أحمد بن علي الدلجي

الفلاكة والمفلكون

ثلاثية الفقر والظلم والحظ السيء عبر التاريخ



تحقيق وتقديم: خميس حسن

أحمد بن علي الدلجي

الفلاكة والمفلكون

ثلاثية الفقر والظلم والحظ السيء عبر التاريخ



تحقيق وتقديم: خميس حسن

الفلاكة والمفلوكون

أحمد بن علي الدلجي

- المؤلف: أحمد بن علي الدلجي
- العنوان: الفلاكة والمفلوكون
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٦٨١٢ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977 - 765 - 087 - 8

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st.- From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO- EGYPT- Tel: 00202 25778743- 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com- www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني- ميدان طلعت حرب- القاهرة- جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢- موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

الفلاكــة والمفلوكون

ثلاثية الفقر والظلم والحظ السيئ عبر التاريخ

تأليف

الإمام العالم العلَّامة الورع الزاهد
خاتمة الحفَّاظ والمحدِّثين مولانا شهاب الملة والدين
أحمد بن علي الدلجي
طاب ثراه
آمين

تقديم وتحقيق
خميس حسن

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الدلجي، أحمد بن علي.
الفلاكة والمفلوكون: أحمد بن علي الدلجي
ط1القاهرة –آفاق للنشر والتوزيع – 2018
320 ص، 24 سم.
رقم الإيداع 26812 / 2016
الترقيم الدولي 8 – 087 – 765 – 977 – 978
1 – تراث
أ – الدلجي، أحمد بن علي
ب – العنوان

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، إله الأوَّلين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خاتم الأنبياء والمرسلين. اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وعلى أصحابه ومن بعدهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

يُعد كتاب «الفلاكة والمفلوكون» لمؤلفه أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدلجي، واحدًا من الأعمال القليلة في تراثنا العربي التي تلقي الضوء على الشرائح والفئات الدنيا أو المهمشة في المجتمع العربي والإسلامي، وتتناول قضايا وظواهر خلاف ما تُعنى به كتب التاريخ العام، التي تجعل همَّها غالبًا تسليط الضوء على الأحداث من أعلى وتتجه بعنايتها إلى القمم غاضَّة الطرف عما يدور في القاع، وهي الصفة التي غلبت على معظم كتابات المؤلفين والكتاب في تلك الحِقب. إذَنْ فالكتاب له بُعد اجتماعي يتناول فيه مؤلفه أحوال شريحة خاصة من أفراد المجتمع، هم أولئك الذين عاندهم الحظ وزوى عنهم وصادفهم النحس من حيث لم يحتسبوا؛ مما يجعله كتابًا مميزًا من بين تراثنا العربي الزاخر. ويظهر فيه الدلجي بمظهر المعبر عن طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه، وما كانت تظهر فيه من ظواهر اجتماعية وتغيرات في حركة السياسة والاقتصاد والعلم، وتأثير تلك الحركة على الناس عمومًا والعلماء بوجه خاص.

يأتي هذا الكتاب منه وكأنه عزاء لهؤلاء المفلوكين «الفقراء» والتعساء والبائسين والمكدين والمغلوبين على أمرهم.

الكتاب محاولة انقلاب على مفاهيم عصره -وعصرنا إذا لاحظنا وجه الشبه بين عصر الدلجي وما يجري حولنا الآن- ليس من باب التحيّز الأعمى للفقير، بل بنفي القدرية، وهو ما يؤكد علمية الدلجي وخطه الفلسفي والعقلاني، حيث يحمّل طبقة الأثرياء مسؤولية إفقار غيرهم وإبقائهم متذللين لهم؛ للحفاظ على مستواهم الاقتصادي.

وقد اطلعتُ على الكتاب في نسخته المصوَّرة عن مكتبة الشعب بالقاهرة عام 1902م (1322هـ) وصدر بهذا الشكل من العديد من دور النشر، وشاءت إرادة الله أن أطلع على صورة لمخطوطة الكتاب محفوظة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وأيقنت أن

الكتّاب بحاجة إلى مراجعة وتحقيق مرة أخرى نظراً لأهميته الكبيرة. فكان هذا الجهد الذي أتمنى أن يكون إضافة للكتّاب وإبرازًا له بصورة تليق به. ولعل في إخراج هذا الكتّاب المميز بعضًا من التنويه بهذا الكاتب والتنبيه على ذكره وردّ الاعتبار له، فهو الكتّاب الوحيد الذي وصل إلينا من تراث هذا الرجل، والباقي ضاع فيما ضاع من تراث هذه الأمة.

والله نسأل أن يرزقنا السِّداد في القول والإخلاص في العمل.

خميس حسن

أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي

لم يحظ الدلجي -رحمه الله- بشهرة، بل إن اسمه غير معروف، ولم يُتداول اسمه ولا كتابه إلَّا حديثًا، وفي محيط محدود، وهو محيط المهتمين بالاقتصاد الإسلامي أو الفكر الاقتصادي العربي. ومما يذكر أن الدلجي -رحمه الله- كتب كتابه في القرن الخامس عشر الميلادي. ويتداول بين الباحثين أسماء برزت في هذا القرن، منهم ابن خلدون، والمقريزي، وبدر الدين العيني رحمهم الله، ولكن الدلجي -رحمه الله- لم ينل هذا الحظ من التداول.

حياته:

المعلومات المتاحة عن حياة الدلجي ومسيرته العلمية وشيوخه شحيحة، شح كتبه التي لم يصلنا منها إلا كتاب واحد. فلا يُعرف تاريخ مولده، ولعل أول من ترجم له وذكره هو عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت 978 هـ) في كتابه (الدارس في أخبار المدارس) حيث قال:

«ومن درَّس بها[1] نيابة عن ابن كاتب السر كمال الدين البارزي، الشهاب أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي المصري ثم الدمشقي الشافعي، اشتغل بمصر وفَضُل في النحو وغيره من العلوم العقلية، ثم توجَّه إلى طرابلس فأقام بها يسيرًا، ثم قدم دمشق حوالي سنة ثماني عشرة وثمانمائة، ولزم القاضي نجم الدين بن حجي وحظي عنده، ثم أبعده وحكم بإراقة دمه، وكان فاضلًا في المعقول، وعبارته صحيحة فصيحة، ودرَّس بالأتابكية نيابة عن ابن البارزي، وجلس للاشتغال بالجامع مدة يسيرة، وتوفي رحمه الله بالقاهرة في شوال سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة»[2].

[1] يقصد المدرسة الأتابكية في دمشق.

[2] الدارس في أخبار المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1/109.

أما في معجم المؤلفين لعمر كحالة، فكانت المعلومات عنه شحيحة جدًّا، وكانت كالتالي:

[أحمد الدَّلْجي (... – 838هـ - ... – 1435م) أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي، المصري ثم الدمشقي، الشافعي (شهاب الدين) تُوفي بالقاهرة في عشر التسعين ظنًّا].

وقال عنه الزركلي: « الدلجي (770 هـ - 838 هـ = 1368 م - 1435 م) أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدلجي: فاضل مصري له اشتغال بالفلسفة. حُكم بإراقة دمه لزندقته.(3). نسبته إلى دلجة.(4) (من صعيد مصر) تعلم في البلاد المصرية ، واشتهر بدمشق، وكان منتقصًا للناس كثير الاستهزاء بهم، وتوفي بالقاهرة».(5).

3). الذي حكم بإراقة دمه هو شيخه ابن حجي.

4). ينسب إلى دلجة أيضًا عالم مصري آخر يحمل نفس اللقب وسلك نفس مسلكه العلمي، ولد بعد وفاة علي الدلجي بعشرين عامًا تقريبًا هو محمد بن محمد بن أحمد الدلجي، أبو عبد الله، محدث، مؤرخ، عروضي. ولد بدلجة سنة 860هـ تقريبًا، وحفظ القرآن، ورحل إلى القاهرة وقرأ على بعض علمائها، ثم رحل إلى دمشق، وأقام بها نحو ثلاثين سنة، وارتحل إلى بلاد عدة وحج وعاد إلى القاهرة وتوفي بها. له العديد من التصانيف العلمية منها شرح الرامزة في علمي العروض والقافية لعبد الله الخزرجي، وشرح الشفا للقاضي عياض وغيرهما. (انظر معجم المؤلفين لكحالة 3/670).

5). الأعلام للزركلي 1/177.

وربما كان الزركلي هو الوحيد الذي انفرد بذكر تاريخ مولده وهو تاريخ تقريبي بناء على ما ذكر أنه عاش سبعين عامًا.

لا يُعرف إلا القليل عن الحياة الخاصة للدلجي، سواء عن أسرته أو أبنائه، سوى ما ذكره النعيمي الدمشقي أنه لم يتزوج. ونذكر من أهم صفاته الشخصية مهارته في الفهم وصحة عقله وذهنه، ونُسب إليه عدم التدين حتى رُمي بالزندقة وأُهدر دمه عدة مرات بفتوى شيخه ابن حجي.

تولى وظيفة الشهادة «وهي وظيفة مهمة في عصره وفي العصور السابقة له ، وتدل على فضل من يتولاها وقوة شخصيته. وقد شرح الدلجي هذه الوظيفة ومسؤولياتها التي تشبه وظيفة المحامي هذه الأيام: «الشهادة: ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقاصد المشهود له وعليه بلفظ صحيح متعارف مستوفٍ لمقاصدهما بشروطٍ شرعيةٍ وعلى إفراغ مقاصدهما في قالب شرعيٍّ إن كانت غير شرعية، وغايته تحويل عبارة المشهود له وعليه العامية إلى عبارة ترتضيها العلماء وتحويل تصويرهما الفاسد إلى صورة شرعية».

أي أن وظيفته بلغة هذه الأيام التعبير القانوني والشرعي عن قضية مَنْ ينوب عنه أمام القاضي، وبيان حججه ودفوعه القانونية.

علمه وثقافته:

شهد العلماء ببراعة الدلجي وفصاحته وقوة حجته؛ ونرى أن من يتولى الشهادة عند القضاة فقد وصل إلى مبلغ جيد من العلم والشهرة فيه. وقد تمذهب بالمذهب الشافعي؛ لأنه تولى التدريس بمدرسة من مدارس الشافعية وهي المدرسة الأتابكية، ولأنه درس الفقه على شيخه ابن حجي سنة 818هـ وهو شافعي، ولأنه أخيرًا ألَّف في الفقه على المذهب الشافعي. ولهذا ذكر العلماء له عدة مؤلفات أثنى عليها العلماء ولم يصل إلينا منها سوى «الفلاكة والمفلوكون».

1- فوائد على شرح البخاري. ولم يذكر مترجموه أي شرح هذا، وذكر صاحب (الدارس في أخبار المدارس) أنه «شرح البخاري للكرماني وتكلم فيه وذكر فيه فوائد».(6) ولكن يبدو أنه فتح الباري لأن مؤلفه الإمام ابن حجر من أشهر علماء الشافعية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ابن حجر(7) يسبق عصر الدلجي بقدر يسير، فهو أقرب العلماء إلى المؤلف.

(6) الدارس في أخبار المدارس 1/110.

(7) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (773هـ - 852هـ، 1372م - 1448م) صاحب أشهر شرح لصحيح الإمام البخاري أصله من عسقلان بفلسطين، ومولده ووفاته بالقاهرة.

2- مختصر تكلم فيه على قول الناس فلان معلول، وهو في علم رجال الحديث ونقدهم، وفيه فوائد كثيرة.

3- الجمع بين التوسط للأذرعي والخادم للزركشي في مجلدات، وهو في الفقه الشافعي، وقد اقتناه شيخه ابن حجي. قال أبو الفضل الخطيب النويري: إنه اشترى من تركة قاضي القضاة بهاء الدين بن حجي منه مجلدات، تكون أربعة ضخمة وأكثر، وأنه يدل على فضل الرجل الفضل الزائد.

4- كتاب «الفلاكة والمفلوكون» والذي نحن بصدد دراسته، وهو الوحيد المطبوع من كتب الدلجي السابقة الذكر.

لماذا سمى الدلجي كتابه: «الفلاكة والمفلوكون»؟

لعل أول ما يلفت النظر إلى هذا الكتاب هو غرابة العنوان واختيار المؤلف لهاتين الكلمتين «الفلاكة» و«المفلوكون» وتفضيلهما على ألفاظ (الفاقة) و(الفقر) و(الإملاق)

، وقد علل الدلجي ذلك بقوله: «ووجه اختيار لفظ الفلاكة على الفاقة والإملاق والفقر ونحوها أن هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها نص وصريح في مدلولها بخلاف لفظة الفلاكة والمفلوك، فإنه يتولد منهما بمعونة القرائن معانٍ لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها».

ولفظ (الفلاكة) كلمة فارسية أصلها (فلاكت) بالتاء المفتوحة، ومن معانيها البؤس والفاقة وسوء الحظ. وقد جاء بها المؤلف في عنوان الكتاب على صورة الكلمات العربية وببعض أوزانها كالخطابة والمهارة والنباهة. يقدم الدلجي تبريرًا لاختياره هذه اللفظة فيقول: «هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل العجم، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل غير المحظوظ المهمَل في الناس لإملاقه وفقره».

إن من يقرأ الكتاب ويلاحظ بعناية مظاهر الفلاكة الكثيرة التي عدّها المؤلف وجهاتها التي يؤتى منها المفلوك، يدرك أن أيًّا من الألفاظ العربية الثلاثة (الفقر والإملاق والفاقة) لا يمكن أن يقوم مقام لفظ الفلاكة أو يشع بما توحيه من معانٍ؛ ذلك أن هذه الألفاظ مجتمعة لا تخرج عن معنى العُدْم، والعُدْم في المال غالبًا. أما لفظ (الفلاكة) فلفظ فضفاض المعنى ينطبق على حالات لا تُحصى من البؤس وسوء الحظ وعدم التوفيق في المال والعلم والصداقة والعمل، وعلاقة الفرد مع أبناء مجتمعه من المواطنين العاديين والحكام، وهي وجوه تتعدد مستوياتها ومظاهرها وتتضمن كل المعاني التي تحملها الكلمات الثلاثة مجتمعة.

أما اللفظ الثاني وهو (المفلوك) فهو وإن كان يسلم بأعجمية اللفظ الأول، فإنه مع لفظ المفلوك يتبنى موقفًا مزدوجًا؛ إذ ينظر بعين إلى معناه وبعين إلى اشتقاقه، فمعناه في استعماله متولد من مصدره الأعجمي (فلاكت)، أما اشتقاقه فقد بذل جهده لتأصيله عربيًّا وربطه بلفظ (الفلك).

فهو يصرح بأن لفظ (الفلاكة) لم يرد في الصحاح للجوهري ولا في القاموس للزبيدي، ولكن مع ذلك يرى أن هناك قربًا بين ما في القاموس من قوله: «فَلَّكَ تفليكًا إذا لجَّ في الأمر، فإنه يمكن أن يجعل مصححًا لهذا الاستعمال. وبيانه أن اللَّجاج لازم الإملاق فإنه يلزم من الإملاق وعدم الحظ اللجاجُ، فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة

الملزوم» . والدلجي يرد على هذا بقوله: «وهذا مع ما فيه من التكلف مردود بأنّ فَعَّلَ – بتضعيف العين- تفعيلًا لا يصح أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعول».

يقول الدلجي: «والذي يظهر أنه مأخوذ من الفلَك الذي هو جسم محيط بالعالم، فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ في مراده ويدافعه عنه».

ثم يقول: «فقد صح بهذا التقرير جواز أخذ المفلوك من الفَلَك على معنى أنه الذي يعارضه الفلك في مراده على جهة التّجوُّز. ولو سلم أن السُّعودَ والنُّحوسَ لا تدور مع حركات الأفلاك دائمًا لم يكن ذلك قادحًا في صحة التجوُّز، لأن إضافة الفعل إلى زمانه مجازًا لا تحتاج إلى كون القضية دائمة كما في قولهم: نهاره صائم وليله قائم، وأمثاله مما لا يحصى».

ويجب أن نشير هنا إلى أن الدلجي استخدم أحيانًا كلمة المفاليك بدلا من كلمة المفلوكين، وكلمة المفلوكية بدلًا من كلمة الفلاكة.

عصره:

خلصت مصر للمماليك الجراكسة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي- الثامن الهجري، وظلوا في حكمهم لها مائة وخمسة وثلاثين عامًا، وكانت تسود بينهم روح التضامن والعزم على الاحتفاظ بأكبر نصيب من الجاه والثروة، ولا يصل الأمير للحكم إلا إذا حسب حسابًا لهؤلاء الأمراء ومالأهم وبث بينهم روح العداء والتنافس.

وقد عاش الدلجي في عصر السلطان المملوكي المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي (1369-1421م)، أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة، الذين حكموا في القرن الثامن الهجري. وتحكي كتب التاريخ أنه قدم من الشام إلى القاهرة وعمره 12 عامًا، وكان ذكيًّا جميل الصورة، فعينه السلطان فرج بن برقوق في الحرس السلطاني، ثم جعله أميرًا للحج، ثم نائبًا للشام.

تولّى الخليفة العباسي المستعين بالله الحكم بعد مقتل السلطان فرج ابن برقوق لمدة ستة أشهر، ثم عين الأمير شيخ المحمودي نائبًا للملك في 8 ربيع أول 815 هـ ، ثم عيّنه شريكًا في المُلك ولقّبه بالملك المؤيد، ثم استطاع الملك المؤيد الانفراد بالسلطنة في أوائل عام

815 هـ / 1412م، وأبعد الخليفة العباسي المستعين إلى الإسكندرية وعين أخاه داود خليفة مكانه في عام 818 هـ.

وقد وقعت أشنع المظالم الاقتصادية في عهد السلطان المؤيد، مع اتصافه بالعلم والتقى والدين والبعد عن حب الظهور والميل إلى التقشف، نقول: ومع ذلك وبرغم هذه الصفات الحميدة، كان قليل الحول أمام وزرائه والمواطنين، ولكنه مع حبه لنصرة المظلومين لم يفعل شيئًا.[(8)]

8) دراسة للفكر الاقتصادي عند الدلجي- حمد بن عبد الرحمن الجنيدل، دار معاذ للنشر والتوزيع ، الرياض، 1993، ص 11- 12.

وقد كان عصر هذا الحاكم امتدادًا لحالة الفوضى التي كانت تعيشها البلاد سواء في مصر والشام التي كانت في حوزتهم؛ بسبب الصراعات بين الأمراء والتي تصل إلى القتال بينهم في الشوارع والأزقة، وإطلاق يد رجالهم على الشعب لتحصيل الأموال بصور شتى وبصورة عنيفة دون مراعاة لأحوال الناس.[(9)]

9) انظر شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي، المطبعة الحيدرية، النجف ، ص 19.

لذا يعد كتاب (الفلاكة) مُنْبِئًا عن العصر الذي عاش فيه كاتبه وثورة اجتماعية ضد الظلم والقهر، وعزاء لهؤلاء المفلوكين المظلومين من الناس والحاكم، بل من أنفسهم أيضًا.

وقد أشار الدلجي إلى أنه عاش في عصر الملك المؤيد في الفصل السادس من الكتاب، حيث يعنون هذا الفصل الفصل السادس (في مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات) وينتهي إلى «أنّ العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف، اللهم إلا أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها، فهو الذي عمّر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره، وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقهره وإحياء معالم العلم شرعه وشعره. أبقى الله دولته بقاء الفرقدين، ومَلَّكَه ما بين المشرِقين».

شخصيته:

أكاد أتصور أن الدلجي وهو يكتب كتابه (الفلاكة والمفلوكون) يصور حياته هو نفسه، أو يحكي عن حياة الفلاكة التي عاشها؛ إذا اعتبرنا أن عدم الاستقرار والانتقال من بلد إلى بلد، وعدم تحصيل المال الكافي الذي يضمن الحياة الكريمة على الرغم من تحصيله

قدرًا من العلم -بشهادة من كتبوا عنه- تضمن له ما يصبو إليه، فضلًا عن الاضطهاد من الناس ومن معلميه من علامات الفلاكة التي نص عليها في كتابه. فقد ورد أنه «اشتغل بمصر وفَضُل في النحو وغيره من العلوم العقلية، ثم توجه إلى طرابلس فأقام بها يسيرًا، ثم قدم دمشق حوالي سنة ثماني عشرة وثمانمائة، ولزم القاضي نجم الدين بن حجي وحظي عنده، ثم أبعده وحكم بإراقة دمه»(10).. حياة مضطربة وصلت إلى الحكم بكفره من القاضي نجم الدين بن حجي بسبب خلاف حدث بينهما. وما أكثر الأحكام الجائرة التي يتهم بها العلماء بعضهم بعضًا في ذلك الوقت وتمتلئ بها كتب التاريخ، لم يسلم منها علماء كبار لهم مكانتهم العلمية الرفيعة، برغم وجود الكثير من الدلائل التي تكذب هذه الادِّعاءات. وقد سلك الدلجي هذا المسلك؛ فما أكثر من اتهمه بالخروج عن الدين أو الزندقة في كتابه(11)، دون فحص وتمحيص، أو مراعاة مكانة من يتهمه بهذه التهمة الشنيعة، وحرمة رمي الناس بالكفر دون بينة قاطعة. وكأنه في ذلك ينتقم لنفسه بسبب اتهامه هو شخصيًّا بالزندقة.

(10) الدارس في أخبار المدارس، ص 109.

(11) راجع ما كتبه عن صالح بن عبد القدوس والعفيف التلمساني، والقطب الشيرازي، وشميم النحوي وغيرهم.

لقد كتب الدلجي كتابه عن الفقر والفقراء باعتباره واحدًا من الفقراء الذين يعانون شظف العيش؛ إذ توضح مراجعة الكتاب اعتماده في تناوله لمشكلة الفقر والفقراء على الملاحظة بالمشاركة ومعايشة الفقراء باعتباره واحدًا منهم، فهو يشير إلى ذلك وهو يوصي الفقراء ببعض الوصايا رأى أنه يمكن الاستضاءة بها في ظلمة الفقر. يقول: «اعلم يا أخي في الوفا وأخوة المصطفى، خصوصًا المفلوك مثلي، أن في الكمالات النفسانية لذة تزيد على اللذات الجسمانية، فلا تستصغرن نعمة الله فيها متى زويت عنك الدنيا».

ويشير إلى ذلك أيضًا في قوله: «قد منحتكم يا معشرَ إخواني المفاليك كتابًا بديعَ المثال، منسوجًا على غير منوال، مُخترعًا من غير سابقةِ مثالٍ».

ويستخدم مصطلح «إخواني» مشيرًا إلى أنه يكتب عن نفس الفئة التي ينتمي إليها.

وفي موضع آخر يقول الدلجي ما يؤكد أنه واحد من الفقراء يعايش غيره من أمثاله ويكتب عن تجربة واقعية ووضعية حيث يقول شارحًا معنى الزهد: إن شرط الزهد هو

ترك المقدور، فمن ترك ما لا يقدر عليه كغير ابن أدهم من أمثالنا في دعوى الزهد في المُلك لا يكون زاهدًا.

وإذا كانت هذه العبارات قد أوضحت أن الدلجي كان واحدًا من الفقراء، وأنه يكتب لينفث عن نفسه حالة يعيشها على ما يقول، فقد توافر له شرط يعد أحد الشروط الأساسية في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة ألا وهو الملاحظة بالمشاركة ومعايشة المجتمع. وتوافر هذا الشرط يضع كتابه عن الفقر والفقراء ضمن الكتابات الأنثروبولوجية الثقافية، ويجعل منه رائدًا في هذا النوع موضوعًا ومنهجًا. فالكتاب يمثل دراسة أنثروبولوجية للفقراء ويتبنى المدخل الثقافي في الوصف والتحليل. فإن دراسة الفقراء ومعتقداتهم وعلاقاتهم وأحوالهم وعاداتهم وغير ذلك وعلاقة ذلك بحالة الفقر التي يعيشونها من ناحية، واستخدام الملاحظة بالمشاركة من ناحية أخرى في هذه الدراسة يجعلها مماثلة لدراسات أوسكار لويس وبيتر تاونسند وكاميل جيفرز، بل تجعله متميزًا عن هؤلاء جميعًا ممن اهتموا بدراسة الفقر، حيث تتميز دراسة الدلجي بأنها أكثر عمقًا وأكثر تحقيقًا واستخدامًا لمنهج الملاحظة بالمشاركة في دراسته للفقراء والفقر، بكونه واحدًا من الفقراء الذين يتحدث ويكتب عنهم.(12)

(12). علم الاجتماع الاقتصادي في دراسات المسلمين، د. عبد الله عبد الغني غانم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ص 135- 137.

بين الدلجي وابن خلدون:

عاش الدلجي حتى عام 838 هـ ، ويفسر لنا هذا التحديد أوجه التشابه الواضح بين كتاب الدلجي ومقدمة ابن خلدون التي انتهى من تأليفها مع بقية كتابه (العِبر) عام 780هـ ومن الممكن الاعتقاد بأن الدلجي قد تأثر كثيرًا بمقدمة ابن خلدون، وقد ظهر هذا الأثر في طريقة العرض، فالدلجي يبدأ عددًا من الفصول بالتوجه إلى القارئ كما يفعل ابن خلدون في مقدمته، وكذلك يتخلل كتابه الاستشهادات التاريخية. ثم يعرض لحقائق موضوع الفصل بأسلوب علمي تغلب عليه الصبغة الفلسفية وتتخلله الاستشهادات التاريخية، وهو يختم الفصل عادةً بآية أو بآيتين من القرآن الكريم، أو حتى ببيت من الشعر يناسب المقام وهو نفس ما يفعله ابن خلدون.

كما أن الدلجي ينظم كتابه بنفس الطريقة، فهو يعنون كل فصل بقضية منطقية أو بحكم أو بنتيجة في شكل قانون، ثم يحاول البرهنة عليه داخل الفصل وسرد الحقائق التي استخلص منها هذا القانون، وهذا هو ما نجده في مقدمة ابن خلدون.

ويبدو استخدامه لهذا المنهج وبخاصة في الفصول التالية:

- الفصل الثالث الذي يعنونه بالعنوان الآتي:

في أن التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين.

- الفصل الرابع ويعنونه: في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها.

- الفصل الخامس ويعنونه : في أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك.

- الفصل السادس ويعنونه: في مصير العلوم كمالاتٍ نفسانيةً وطاعةً ليس إلا بعد كونها صناعة من الصنائع وحرفةً من الحرف وبيان السبب في ذلك.

- الفصل السابع ويعنونه: في غَلَبَة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان السبب في ذلك.

فعنوان الفصل نص لنظرية أو قانون ثم بيان الحقائق التي استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة.(13)

(13) المرجع السابق ص 130، 131، 134.

ورغم هذا التشابه بين كتاب الدلجي ومقدمة ابن خلدون، إلا أن الدلجي لم يذكر مقدمة ابن خلدون مطلقًا في كتابه.

ماذا في هذا الكتاب؟

يسهب الكاتب في وصف حال المفلوكين، وتعداد آفاتهم، وفي مقدمها النزق، والعزلة عن الناس، ويؤكد أنه «متى استولى القهر والغلبة على شخص، حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والتخبيب وفساد الطوية والخبث والخديعة...». ويحاول الربط بين القهر الذي يتعرض له الأولاد عند تنشئتهم واكتسابهم لصفات الفلاكة «ولذلك أيضًا يُنهى عن إرهاف الحد على الولدان والعبيد، ويؤمر بترويحهم ومد الطول لهم خشيةً عليهم من اكتساب هذه الأخلاق الذميمة». من جهة أخرى، يستشهد برسائل الخلفاء إلى مؤدّبي

أولادهم، ومنهم هارون الرشيد، وتيقظهم إلى مسألة خطرة بأنه إذا استحلى الابن الفراغ، فسيقوده حتمًا إلى الفلاكة، وحينها يستهون به الناس ولا يقيمون لغضبه وزنًا.

ويقرن الدلجي بين الغنى والتمدن، ويشدد على أن الاجتماع بين المفلوكين ومن هم أكثر فلاكة لا فائدة منه؛ لأن حكمة التمدّن مفقودة فيهما، وغاية الاجتماع بهما تضاعف الفلاكة وتكاثفها، خلافًا لاجتماع الأغنياء وتمدنهم.

ويتولع المفلوكون بالسفر والبحث عن حظهم المفتقد في أوطانهم، وربما تلاقت هذه النظرة مع مقولة الإمام علي: «الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن»، كما يتعلق المفلوكون بالأسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء والحرف الهوائية الضعيفة ومنها شهادة الزور. ويكشف الدلجي الأغنياء الذين يقاومون كساد الأسواق بالغش والاستعانة بوكلاء السوء والتحالف مع الملك. وفي توثيقه للعلماء المفلوكين.

الفلاكة عند الدلجي أربعة أنواع:

الفلاكة المالية: وقد جعلها علة للأنواع الأخرى ، وهو يعرف صاحبها بأنه «غير محظوظ في أمور الدنيا المالية». والمفلوك ماليًّا، نتيجة لصفاته النفسية، يصنع فلاكته؛ إذ يصبح عاجزًا عن كسب قوته بالوسائل الطبيعية، بل يميل إلى التعلق بالأسباب المستحيلة مثل التنجيم والكيمياء، وإلى الاشتغال بحرف غير مستقرة ولا تحتاج إلى جهد حقيقي، وهي تلك الحرف التي يسميها «الحرف الهوائية الضعيفة الصدفية»، وهي حرف غير دائمة فقد تتيح فرص العمل وقد لا تتيحها. وهي لا تحتاج إلى بذل جهد ولا إلى اكتساب مهارات حقيقية لامتهانها. وهي تتفق مع طبيعة المفلوك الذي يقنع دائمًا «بالتمني» لاعتياده الاعتماد على غيره وعلى البحث عن السعادة في غير أبوابها.

الفلاكة الحالية: ويعرفها بأنها «تعذُّر المقاصد وانعدامها بحيث تصير الفلاكة حالًا ووصفًا ذاتيًّا للشخص في أفعاله وأقواله دفعًا وتحصيلًا حكمًا وتعليلًا. والدليل على ذلك أن نقول: هذا مفلوك مالًا، وكل مفلوك مالًا فهو مفلوك حالًا».

النوع الثالث من الفلاكة هو الفلاكة المعنوية ويعني بها «الأوصاف المخالِفة لمحاسن الطبيعة أو لمحاسن الشريعة من الأفعال المحرمة أو الأفعال المكروهة والأخلاق القبيحة المذمومة».

النوع الرابع من الفلاكة فهو ذلك النوع المرتبط بأهل العلم وأطلق عليه الدلجي اسم «الفلاكة اللفظية» وهذه الفلاكة إذا ما استولت على «عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلامٌ عقليةٌ، ولا شك أن الألمَ العقليَّ أقوى من الألم الجسماني»، وهي أيضًا نتاج للفلاكة المالية شأنها شأن الفلاكة المعنوية والحالية، وإن اختلفت عنهما في أنها ليست نقصًا وفقرًا وافتقارًا في أصحابها، إنما هي تعبير عن آلامهم التي تسببها لهم فلاكتهم المالية، وهي وسيلتهم للخلاص من هذه الآلام بالتنفيس بالأقوال تعويضًا عن العجز الذي لحق بهم نتيجة لسلب الفلاكة إياهم قدرتهم على الفعل.

يقول الدلجي: «إن في الكلام راحة وفرجًا وتنقيصًا من ألم الباطن، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ، وكذلك أيضًا قلما يطيق الإنسان استدامة أقوال تخالف ما في باطنه، بل لا بد له من فلتات مطابقة لما في باطنه، لما أن النفس بطبعها تطمح إلى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور. وإذا اتضح أن في الأقوال تنفسًا وراحة ولذة وتنقيصًا من آلام الباطن وضحت الحكمةُ في انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء، فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المالية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية، ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة، ويصوغون عنها أعذارًا وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة؛ تنقيصًا من قبح صورتها، وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة في صورتها الشنيعة. ومرة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها لأن النفوس تكره المعاد؛ ولذلك قيل في الأمثال: «أقبح من معاد» وليكون ذلك أخف على نفوسهم لما أن الشخص يتأنف من نفسه ما يتأنفه من غيره ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره».

والفلاكة برأي الدلجي ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم لأسباب كثيرة، فالإمارة (الحكم) عنهم بمعزل، والتجارة مبنية على المكر والكيد والآمال التي لا يقوم دليل على وقوعها، والصناعة والحرف يلزمها حيل ورذائل يأنفون عنها، فيقعدون عن الاكتساب متعللين بالأماني الكاذبة فيقعون في الفقر والإملاق.

وأهل العلم يحسنون الظن بالناس على مقتضى ما يتوهمونه في أنفسهم، والناس لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزنًا، ويحاولون تطبيق قواعد العلمِ ونظرياته الدقيقة في شؤون الحياة اليومية، ولكن القضايا تختلف عن بعضها من وجوه عدَّة، وثقتهم بقواعدهم العلمية تجعلهم يخبطون خبطًا عظيمًا ويخطئون أصلًا ورأسًا، والعامة الذين لا يعرفون هذه العلوم ينظرون في كل قضية جزئية أمامهم نظرًا جازمًا غير مشوَّش، يبعد عنهم الفتور وضعف العزيمة فتنجح مساعيهم ويصيبون في ظنونهم غالبًا.

والعلماء بنظرتهم الفاحصة العميقة يفرضون احتمالات بعيدة ويجزمون بوقوعها، وما من شيء إلا ويطرقه احتمال المثبط عن إمضائه واستقامته فيتخلفون لذلك عن مظانِّ الخير فيقعون في الفلاكة والإهمال، ويقضون العمر في تحصيل العلم وهو بطيء، والعلم ليس أمرًا يقاس ويعرف على وجه الدقة، فهو قابل للجحود والإنكار، وأن يدخل فيه غير أهله بالتلبيس والتمويه والجاه.

ومن العلماء الفقراء (المفلوكين) الذين عاشوا فقراء أو تعرضوا للسجن والاضطهاد: القاضي عبدالوهاب، والأخفش إمام اللغة والأدب والنحو مات عام 315 هـ غمًّا عندما نهره الوزير العباسي أبو الحسن علي بن عيسى، والترمذي المحدِّث إمام الشافعية في عصره (توفي عام 295هـ)، والحافظ عبد الغني المقدسي، والخليل الفراهيدي واضع علم العروض وأوزان الشعر، والطبري شيخ الشافعية (توفي عام 450هـ)، وابن خلكان مؤلف كتاب وفيات الأعيان الذي يُعد من أشهر كتب التراجم في التراث العربي، والشيرازي إمام عصره في المعقولات (توفي عام 710هـ)، وابن دريد إمام عصره في اللغة والأدب، وابن هانئ الأندلسي الشاعر المشهور، وابن الخشاب البغدادي، وعلاء الدين الباجي، وواصل بن عطاء إمام المعتزلة، وسيبويه حجة النحو (توفي عام 180هـ وعمره 32 عامًا)، والقاضي شريك وأبو بكر النيسابوري وابن حزم، وإن كان غنيًّا ووزيرًا وابن عائلة علم ونفوذ، فقد شُرِّد وتُوفي في الصحراء عام 456هـ، وابن دحية الكلبي والشاطبي إمام القراءات وأصول الفقه، وياقوت الحموي مؤلف معجم الأدباء ومعجم البلدان وأبو حامد الإسفراييني، ونفطويه وابن خزيمة وأبو الفضل الميداني وأبو العلاء الهمذاني وابن الجصاص، والفارابي إمام الفلاسفة العرب بلا منازع عمل ناطورًا ببستان

في دمشق، وهو في ذروة علمه وشهرته، والهروي والبيهقي المحدث والإصطخري عالم الجغرافيا والرحلات صاحب (المسالك والممالك) والحريري صاحب المقامات، والنووي إمام الشافعية ومؤلف كتاب المغني أهم مرجع في الفقه الشافعي، وروى وشرح صحيح مسلم، كان يأكل وجبة واحدة في اليوم مما يرسله له أبوه من بلدته نوى في حوران، وكان يقيم في دمشق في المسجد الأموي، وكان طعامه دائمًا من الكعك اليابس والفواكه المجففة وملبسه من الثياب المرقعة، ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل سُجن وعُذب، وأبو حنيفة سُجن وعُذب، والبخاري سُجن وعُذب والنسائي.. وغيرهم.

الفهم الصحيح للقضاء والقدر بشأن الفقر:

حسنًا فعل الدلجي عندما طرح هذا الموضوع؛ ليبين بجلاء ووضوح رفض هذه النظرية سواء قال بها الفقراء أنفسهم أو قال بها الأغنياء الجاحدون نعمة الله عليهم. وقد تحدث الدلجي عن هذه المسألة ليقطع عذر الفقراء وتعللهم بأن ما هم فيه من فقر أمر خارج عن نطاق قدراتهم ومسؤولياتهم؛ إذ إنه من فعل القضاء والقدر فهو أمر مقضيّ به ومقدر عليهم من قبل الله تعالى، ولا راد لقضائه ولا حيلة لدفعه.

فاعتقاد بعض الفقراء أن الفقر الواقع عليهم هو قضاء وقدر من الله سبحانه وتعالى لا ينفك عنهم، ويلازمهم طوال حياتهم، قد يؤدي بالفقير ألا يحاول علاج الفقر الواقع عليه، وهذه القضية فطن الدلجي لها في كتابه. وتمثل الآراء التي عرضها تصورًا للفهم الصحيح للقضاء والقدر بشأن الفقر، فقد خصص الفصل الثاني من كتابه لموضوع: خلق الأعمـال وما يتعلق به، وقد كتب في بيان سبب بحث هذا الموضوع ما يلي: (الغرض من هذا الفصل إقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم وإلجامهم عن التعلق بالقضاء والقدر، وأنه متى نعيت عليهم فلاكتهم أو نودي عليهم بها كان ذلك لأنهم إما فاعلوها استقلالًا أو مشاركة ...). الفصل الأول في كتاب الدلجي عن تحقيق معنى مفلوك، أي تعريف الفقير. بعد هذا التعريف يدخل مباشرة في الفصل الثاني في مناقشة قضية القضاء والقدر وتعلق الفقراء (الباطل) بها. يدل هذا على أن الدلجي يعتبر مناقشة هذه القضية الواجب الأول في موضوع دراسة الفقر والفقراء، بعبارة أخرى: إن دراسة الفقر تبدأ بهذا الموضوع، وهو إبطال تعلق الفقراء بالقضاء والقدر، وبالتالي إبطال استسلامهم

للحالة التي هم عليها من الفقر. ولإبطال تعلق الفقير بالقضاء والقدر، ولإثبات مسؤوليته عن فقره، عرض الدلجي الأدلة التالية والتي منها:

- الفقير فاعل فقره -أي متسبب فيه- إما استقلالًا أو مشاركة.
- يتفق العلماء على أن القضاء والقدر لا يحتج به.
- حركة العبد للسعي تجامع التعلق بالأسباب ولا تنافيها.
- الاكتساب لإحياء النفس ولغير ذلك واجب.
- الرسول ﷺ قال للأعرابي: «اعقلها وتوكل على الله».
- ليس من شرط التوكل ترك الأسباب، فإن ذلك حرام في الشرع ولا يتقرب إلى الله بمحارمه.
- الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ [النساء : 71].
- وجود المال في اليدين لا في القلب، ودخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها، لا ينافي الزهد.

الأدلة التي عرضها الدلجي تبطل تعلق الفقراء بالقضاء والقدر لتبرير استسلامهم للفقر، ويمثل هذا العنصر الأول في صحة العقيدة الاقتصادية، فهذا العنصر له أهميته، بل له الأهمية الأولى بين الأساليب التي يواجه بها الفقر، أو التي يعالج بها الفقر. وذلك لأنه يبدأ بعلاج الفقر بتصحيح عقيدة الفقير، ولأنه يجعل العلاج من الفقير نفسه، لأنه يحمِّله المسؤولية، وهي مسؤولية تنبع من العقيدة.

هذا الأمر له أهميته في حياتنا المعاصرة، ذلك أن هناك من يفسر تخلف المسلمين بارتباطهم بالقضاء والقدر وقعودهم عن العمل، والدلجي يبطل الفهم الخاطئ في هذه القضية، حيث إن تصحيح عقيدة الفقير بشأن القضاء والقدر له توظيفاته الاقتصادية المتعددة، من ذلك أنه يدفع الفقير للعمل ليقضي على فقره، ويدفعه لحب المال فيسعى لجمعه وامتلاكه، ويدفعه لاعتبار العنصر المادي في الحياة فلا يهمله.

الجانب الاقتصادي في كتاب الفلاكة:

كتب الدلجي -رحمه الله- عن الفقر وعن الفقراء، ولم تكن كتابته تفريعًا علي كتابته في موضوع أو موضوعات أخرى، إنما الفقر والفقراء هو الموضوع المستهدف وحده الذي كتب عنه، بل أبلغ من ذلك أنه كتب ما كتب مخاطباً به الفقراء، يقول: «منحتكم يا معشر إخواني المفاليك كتابًا بديع المثال، منسجمًا على غير منوال، مخترعًا من غير سابقة مثال، مسلاةً وتمثلًا وحكمًا وإعالًا، تتخذونه مفاكهة وأمثالًا، وتصرفون به في ظنونكم ردًّا وإعالًا، وتنزعون به أيديكم من ربقه انتزاعًا، وترفعون به نحو الأغراض والمقاصد شراعًا...».

وذِكْرُ سببِ كتابته يؤكد أنه قصد الكتابة عن الفقر والفقراء، وأنه خاطبهم بما كتب «لأن سائلًا سأل عن السبب في غلبة الفلاكة والإهمال على نوع الإنسان، فصادف منّي نشاطًا للكلام في ذلك نفثة مصدور، وضربة موتور، ونارًا ساكنة ألقمها حطبًا، دعوة وافقت إرادة ومطلبًا...».

ثم إن عنوان الكتاب وتتبع موضوعاته جملةً وتفصيلًا يثبت أن الكتاب كله دراسة في الفقر والفقراء.

والتصنيف الاقتصادي للكتاب يعني تحديد الفرع الاقتصادي الذي يتصل به، وكتاب الفلاكة والمفلوكون صنّف على إنه دراسة في اقتصاديات الفقر. فالفقر والفقراء واحدة من الموضوعات القديمة من حيث الاهتمام بها، ولكن الاهتمام بها كدراسة اقتصادية يُعدُّ حديثًا نسبيًّا، بل قد يكون حديثًا جدًّا، وتحمل هذه الدراسة العنوان اقتصاديات الفقر. والمتتبع للكتب التي تصدر في الاقتصاد في البلاد الأوروبية والأمريكية يجد أن اقتصاديات الفقر موضع اهتمام واسع.

إن المجتمعات التي تتبع نظام الاقتصاد الحر تعاني من التفاوت الحاد في توزيع الدخول والثروات، بالرغم مما أحرزته من تقدم اقتصادي واسع. ومع ذلك فإن الفقر يفرض نفسه كموضوع للاهتمام في هذه المجتمعات.

وقد دخلت البلاد المتخلفة أيضًا إلي دائرة الاهتمام بدراسة اقتصاديات الفقر. وحدث ذلك بتوجيه الدراسات الاقتصادية التي تُعمل عن هذه المجموعة من البلاد إلى الاهتمام باقتصاديات الفقر.

ولقد تناول الدلجي بعض المسائل التحليلية والنظرية التي تحتل أهمية كبيرة في عالم الاقتصاد، مما يعني أن الدلجي رحمه الله كان أحد المنظِّرين الأوائل لعلم الاقتصاد .

يقول الدلجي: «وأيضًا يقال على وجوه المعاش الثلاث -الزراعة والتجارة والصناعة- إنه كلما تجدّد للإنسان دخلٌ جدّ د له صرفًا إما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطًا في الشهوات وانهماكًا في اللذات، أو خوفًا من سوء القالة والأحدوثة، أو لأن الحالات المتجدّدة في دخله يلزمها تجدّد أمور صرفه فلا يزال الشخص مفلوكًا...».

يرى الدلجي أن الدخل يجب أن يكون أكبر من الإنفاق ولكن الواقع شيء آخر، حيث إنه كلما زاد الدخل زاد الاستهلاك، وزيادة الاستهلاك لزيادة الدخل قد تكون شيئًا طبيعيًّا، وقد يكون نتيجة عوامل غير رشيدة، وعلى أي حال فالواقع الذي يصفه الدلجي وهو كلما تجدد للإنسان دَخْلٌ جدّد له صرفًا وإنفاقًا، هو أمر متفق عليه بين كل الناس عامة، والاقتصاديين بصفة خاصة.

ولكن ما هي العوامل المسؤولة عن زيادة الإنفاق، نتيجة زيادة الدخل؟! سؤال طرحه الدلجي رحمه الله وأجاب عليه بقوله إنها عوامل عدة، وذكر منها:

أ- المباهاة، والترفع عن الأمثال.

ب- الإفراط في الشهوات.

جـ- الانهماك في اللذات

د- الخوف من سوء القالة.

هـ- الحالات المتجدّدة في دخله يلزمها تجدّد في أمور صرفه.

وهذه الأمور الخمسة التي لا يقصد بها الحصر في الإنفاق، حيث يترتب عليها أن يبقى الشخص مفلوكًا مهملًا شؤون دخله.

أي أن الاستهلاك متغير تابع للدخل، وهذا ما أكدته النظرية الاقتصادية الحديثة على يد كينز ومن بعده.

ويضاف إلى ذلك أن الدلجي رحمه الله بيّن أن العوامل المسؤولة عن زيادة الاستهلاك بجوار الدخل هي البدائل الاجتماعية والعوامل النفسية وعوامل أخرى كالمباهاة والترفّع

على الأمثال، وهناك الاستهلاك الترفي وهناك الخوف من البخل.

وبعد، أفلا يكون الدلجي بذلك قد سبق كينز، ودوزنبري -صاحب نظرية الدخل النسبي- وغيرهما من قادة النظرية الاقتصادية الكلية بقرون عديدة..

ودلالة أخرى تؤخذ من النص السابق تتعلق بالفائض الاقتصادي، حيث أبرز الدلجي رحمه الله في ذلك النص، أهمية توافر الفائض، وتزايده في محو الفقر والتخلف، وأبرز ثانيًا تعدد العوامل والاعتبارات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحدّد الميل للاستهلاك.(14).

(14). دراسات اقتصادية- إعداد وتأليف الدكتور/ زيد بن محمد الرماني عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – منشور على الانترنت.

وختامًا لكلامنا نقول إنه قد تجلى في أسلوب الكتاب خلق العالم تواضعًا وعرفانا بقدره وحدوده وإمكاناته ، فهو لم يدَّع أنه حقق الكمال وأصاب كبد الحقيقة في كل ما قاله ، ولكنه بعكس ذلك يقول: «وأنا أعتذر عما لا يوافق الغرض ولا يصيب الغرض» وفي آخر الكتاب يقول: «هذا آخر ما تيسر لي كتابته في هذا الغرض مما سهل ومما حضر وفي النفس من معاودته وبسط القول فيه».

الكتاب يعد نصًّا فريدًا ومميزًا وجاذبًا لعالم اللغة وعالم النفس وعالم الاجتماع والباحث الاقتصادي والمؤرخ؛ لما يقدمه من صورة للعصر الذي كُتب فيه والحياة العقلية والفكرية السائدة في زمن المؤلف.

ما قمت به في الكتاب:

لما كان الهدف من تحقيق النصوص إنما هو إخراجها صحيحة سليمة كما سبق أن وضعها أصحابها، فقد بذلت كل ما في وسعي من جهد، وقدمت كل ما لدي من طاقة في هذا السبيل، واضعًا في اعتباري ما تحتاجه إعادة النص إلى طبيعته الأولى من حيطة وحذر ودقة وأمانة؛ حيث إن إعادة النص إلى أصله أصعب بكثير من إنشاء أصل جديد.

وقد اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسختين:

الأولى: النسخة المصوَّرة عن طبعة مكتبة الشعب بالقاهرة الصادرة عام 1902م (1322هـ) عناية خليل صادق، وهي نسخة محققة بها بعض الهوامش والشروح غير

الكافية، وأشير إليها بالرمز (ط).

الثانية: صورة مخطوطة محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحمل رقم 2084 أدب. وتتكون من 107 ورقة، في كل ورقة 23 سطراً. وهي مكتوبة بخط النسخ الجميل، خالية من الأخطاء وتمت مراجعتها بدليل وجود العديد من التصويبات في الهامش. وقد أشرت إليها برمز (خ).

وكان عملي في الكتاب على النحو التالي:

1 - احترمت نص الكتاب فلم أتدخل فيه إلا بالقدر الذي لا يمس جوهره، ككتابته وفق القواعد الإملائية المعروفة لنا اليوم.

2 - ترجمت لبعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم ولم يذكر لهم المؤلف ترجمة منفصلة، ولما كان الاسم يتكرر أكثر من مرة فقد اكتفيت بترجمته في المرة الأولى.

3 - خرجت الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية من حديث أو أثر ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

4 - الإشارة إلى مواضع الاختلاف سواء بالنقص والزيادة بين النسختين.

5 - فسرت بعض الألفاظ الغريبة لغويًّا.

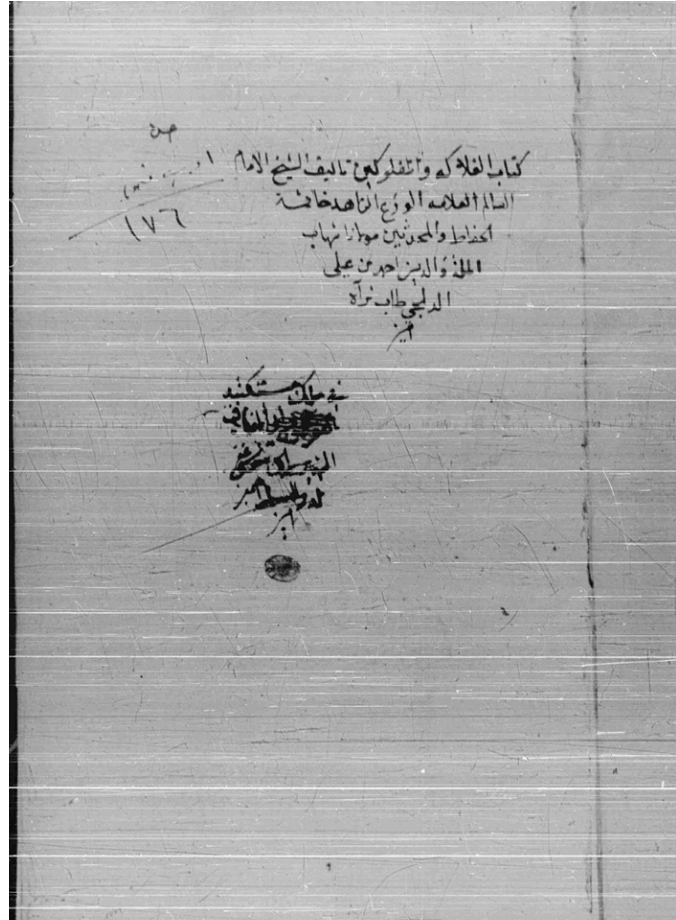
6 - أعجمت الحروف التي لم تكن معجمة.

7 - ضبط علامات الترقيم في الكتاب كله؛ لما لها من دور مهم في فهم المعنى.

8- عمل فهارس كاشفة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأعلام والبلاد والأمكنة وقوافي الأبيات الشعرية.

أرجو من الله العلي القدير أن أكون بهذا العمل قد قدمت خدمة لهذا الكتاب القيِّم ولمؤلفه، الذي لم ينل ما يستحقه من التنويه والشهرة، رغم ما يتمتع به من موهبة وقدرة على البسط والتحليل، وهذا ما تجلى بصورة واضحة في كتابه الذي بين أيدينا.

الصفحة الأول من المخطوط



الورقة الثانية من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لمن يستحق الحمد لذاته وهويته ويستوجب
الشكر لكمال الاهيته وتتقاصر الاوهام عن دقائق
اقداره واقضيته وتتحير الافهام في لطائف الايه
ورافته وتدهش العقول في كمال مصنوعاته وحكمته
وتقف الافكار حيرى في كبريائه وقاهريته الخلق
مفتونون محجوجون بساطع محجته والقلوب في
تصرفه يقلبها كيف يشاء على وفق مشيئته ما من شيء
الا وفي خزائنه غير معدوم وما ننزله الا بقدر معلوم
الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين على جعله
الخير والشر والنفع والضر والحركات والسكون
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كل في فلك يسبحون
جعل لكل اجل كتابا وللمسببات اسبابا وربط
المسببات بالاسباب وهو خالق الاسباب والمسببات
واوقع الشبع عقيب الاكل ابدا على العادة وهو غني
عن العادات وهب العقل فليس بسواء السبيل وركب
الخرق فيفضي به الحظ من التحصيل ما من دابة
الا هو اخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم
انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون اغنى
واقنى واضحك وابكى وامات واحيى لا يسئل عما يفعل
وهم يسئلون   ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له ما شاء كان وما لم يشا لم يكن وهو العليم الحكيم
واشهد ان محمدا عبده ورسوله الهادي باذنه الى صراط

مستقيم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمومنين رؤف
رحيم صلى الله عليه وعلى اله وتجهيز وذويه
وسائر اتباعه واوليائه ومحبيه وسلم تسليما كثيرا
... فقد منحتكم يا معشر اخوان المفاليك كتابا
بديع المثال منسوجا على غير منوال نحيزعا من غير سابقة
مثال مشادة وتمثالا وحكمة وعللا تتخذون منها كمنه
وانتها لا وتتصرفون به في ظنونكم ردا واعمالا وتنزعون
به ايديكم من ربقة التقليد انتزاعا وترفعون به
عن الاغراض والمقاصد شراعا وكان المحرك لهذه الكتابة
ان سائلا سال عن السبب في علية الفلاكة والاهمال
على نوع الانسان فصادف مني نشاطا للكلام في ذلك
نفثة مصدور ومنية موتور ونارا ساكنة الهبها
حطبا ودعوة وافقت ارادة ومطلبا وانا اعتذر عما لا
يوافق الغرض ولا يصيب الغرض وعن استبدال
الجوهر بالعرض بان استكشاف اسرار الدقائق
واستشفاف انوار الحقائق مما يعتذر او يتعسر مع
العوائق البدنية والصوارف النفسانية ولو كان
الخاطر صقيلا باترا ومواد الكلام بحرا زاخرا فكيف
اذا كانت الفكرة كليلة والبضاعة من العلم قليلة
والصوارف متناصرة والبواعث متقاصرة والشواغل
الجمة تمنع من معاودة التنقيح والتهذيب والوقت
ضيق عن اختيار الالفاظ ووجوه الترتيب والكتب
مفقودة او مستعارة والهموم تشن غارة بعد غارة

الورقة رقم (29) من المخطوط

في ثاني الحال في فهم المراد منه والواقف لم يتلفظ به
ولا بعظمه ولو قرئ عليه لم يفد لاستحالة ارادة معنى شيء
بدون فهمه على ان الانشاآت لا بد فيها مع اللفظ من
فهم المعنى بدليل ان الاعجمي لو لقن الطلاق بلا فهم فاوقعه
واراد معناه عند العارف بمعناه لم يقع وعلى الجملة
فشهادتهم على الواقف بما نسب اليه فيه وهو لم يفهمه
منكر [illegible] ويتنشا من عبارتهم الفاسدة الناشية
عن الجهل حرمان من لعل الواقف لم يرد حرمانه لو
روجع فيه ودخول من لم يرد دخوله وعلى الجملة ففي
هذا الموضع نظر ظاهر فليتامل [illegible] تصريح
العلما من الشافعية والحنفية بانه لا يشهد على خطه
ما لم يتذكر الواقعة فاما القضايا التي يكون للشاهد
فيها مدخل او يكون هو المورق وله في عباراتها وكتابته
ما يذكره بالقضية فلا كلام فيها ولكن ثم من القضايا
ما يستحيل التذكر فيه عادة كالشهادة على الحكام في
ظهور السجلات مع طول المدة وما في معنى ذلك
فليستفت الشاهد قلبه في ذلك فانه من مزال الاقدام
[illegible] الاكتفا في الشهادة على الحكام في السجلات
الطويلة والمحاضر وصور المجالس الطوال بقول
الحاكم له نعم جوابا لقول الشاهد له اشهد عليكم بما
فيه من غير ان يقراه عليه بل ولا يعرف الشاهد ما فيه
لا اجمالا ولا تفصيلا وقد قال فقهاء الشافعية
في كتاب القاضي للقاضي انه لو لم يقرا على الشاهدين

وقال

وقال الحاكم لهما اشهد كما علي انه كتابي او ان ما فيه
خطي لم يكتف بذلك [illegible] دفع الشهود نسب
من لا يعرفون نسبه مع ان ذلك شهادة بنسبه ضمنا
كما قاله السبكي في جمع الجوامع في الكلام على ان مورد
الصدق والكذب انما هو النسبة التي تضمنها الخبر
لا واحد من طرفيها ولو سلم ان ذلك ليس شهادة بالنسب
لا اصلا ولا ضمنا فقد قال الامام كما نقله عنه في الروضة
والرافعي انه لو لم يعرف المشهود عليه الا باسمه لم
يتعرض في الشهادة لاسم ابيه هذا ما رايت ان اذكره
من ما قوي عندي مما حضرني في هذا المقام من موانع
حصول المقصود من حرفة الشهادة ومفاسدها
وما الى ذلك مما لا يمكن التصريح به ورايت ان الاعراض
عنه اولى وما احق ذلك بقول القايل
في النفس اشيا لا استطيع اذكرها لو قلتها قامت الدنيا على ساق
والله المسؤول في الخلاص منها والله اضرع وعليه
اتوكل ومنها اعني من الافات التي تنشا من الملازمة
[illegible] في ان الملازمة والاهمال الصنف
باهل العلم والزم لهم من غيرهم وسياتي السبب في ذلك
وانما كانت الملازمة الصنف بهم اغلب من غيرهم لان
[illegible] ان الامارة عنهم بمعزل والتجارة مبنية على
السفسفة والمماحلة والامال التي لا تقوم دليل على
وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمها المهانة والتلوث
برذايل الحيل الدنيوية واهل العلم لهم انفة واستنكاف

الورقة الأخيرة من المخطوط

من رق غيرك فك اسيرا لاعلك فكاكه الا انت
ليس على عطايك عايق ولا يعجزك شي فلك القدرة
الكاملة والرحمة الواسعة والحكمة البالغة وكلتا
يديك سحا ولا ينقص فيضك العطا وتستحيي
من تخييب امليك غاية الحيا وعلمك قد احاط
بما في الارض والسما وبما في القلوب والضماير من
الجلا والخفا انظر الينا منك بنظرة رحيمة ربنا
مسنا ضر نفوسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكون
من الخاسرين لا اله الا انت سبحانك اني كنت من
الظالمين سمع الله لمن حمده سبحان الله امين
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى اله وصحبه
وسلم تم الكتاب
بحمد الله وعونه
وحسن
توفيقه
وكرمه

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لمن يستحقُّ الحمدَ لذاتِه وهويته، ويستوجبُ الشكرَ لكمالِ إلهيَّتِه، وتتقاصرُ الأوهامُ عن دقائقِ أقدارِه وأقْضيتِه، وتحيرُ الأفهامُ في لطائفِ آلائه ورأفته، وتَدْهَشُ العقولُ في كمال مصنوعاته وحكمته، وتقفُ الأفكارُ حَيْرَى في كِبريائه وقاهِرِيَّتِه. الخلقُ مقهورون محجوجون بساطع حُجَّته، والقلوبُ في تصرُّفه يقلِّبُها كيف يشاءُ على وَفْقِ مشيئته. ما من شيءٍ إلا وفي خزائنه غير معدوم. وما ننزِّله إلا بقدَرٍ معلوم. ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ [الأعراف: 54]، على علمه الخيرَ والشرَّ، والنفعَ والضُّرَّ، والحركاتِ والسكونَ. والشمسُ والقمرُ والنجومُ مُسخراتٌ بأمره كلٌّ في فَلَكٍ يسبحون. جعل لكل أجَلٍ كتابًا، وللمسببات أسبابًا، وربط المسببات بالأسبابِ وهو خالقُ الأسبابِ والمسبباتِ. وأوقع الشِّبَعَ عُقيب الأكل دائمًا على العادة وهو غنيٌّ عن العادات. وَهَبَ العقلَ فيسَّر به سواءَ السبيل، وركّب الخُرْقَ(15) فنقصَ به الحظَّ من التحصيل. ما من دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إن (ربي) على صراط مستقيم. ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون ﴾ [يس: 82]. أغنى وأقْنَى(16)، وأضحكَ وأبكى، وأمات وأحيا. ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهُم يُسألون ﴾ [الأنبياء: 23].

(15) الخرق بالضم: الحُمق وأن لا يحسن الرجلُ العملَ والتصرفَ في الأمور.

(16) أقنى: أرضى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، ما شاءَ كان وما لم يشأ لم يكن وهو العليم الحكيم. يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم أشد عذابٍ أليمٍ. وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الهادي بإذنه إلى صراطٍ مستقيمٍ. ﴿ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ﴾ [التوبة: 128] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذَويه، وسائر أتباعه وأوليائه ومحبيه. وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

(وبعد) فقد منحتكم يا معشرَ إخواني المفاليك كتابًا بديعَ المثال، منسوجًا على غير منوال، مُخترعًا من غير سابقةِ مثال، مَسْلاةً(17) وتمثُّلًا، وحكمةً وعللًا. تتخذونه مُفاكهة وأمثالًا، وتتصرفون به في ظنونكم ردًّا وإعمالًا، وتنزعون به أيديكم من ربقة التقليد انتزاعًا، وترفعون به نحو الأغراض والمقاصد شِراعًا. وكان المحرِّكُ لهذه الكتابة أنَّ سائِلًا سألَ عن السببِ في غَلَبَة الفلاكةِ والإهمال على نوعِ الإنسان. فصادف مني نشاطًا للكلام في ذلك نفثةَ مَصْدورٍ، وضربة مَوْتورٍ، ونارًا ساكنةً

ألقمها حطبًا، ودعوةً وافقتْ إرادةً ومَطْلبًا. وأنا أعتذر عمّا لا يُوافق الغرضَ ولا يُصيب الغرضَ[18]، وعن استبدال الجوهر بالعَرَض، بأنَّ استكشاف أسرار الدقائق، واستشفاف أنوار الحقائق، مما يتعذَّر أو يتعسَّر مع العوائق البدنية، والصَّوارفِ النفسانيَّة، ولو كان الخاطرُ صقيلًا باترًا، وموادُّ الكلامِ بحرًا زاخرًا. فكيف إذا كانتِ الفكرةُ كليلةً، والبضاعة من العلم قليلةً، والصوارف متناصرةً، والبواعث متقاصِرةً، والشواغل إلى حد المنع من معاودة التنقيح والتهذيب، والوقت ضيق عن اختيار الألفاظ وجودة الترتيب، والكتب مفقودة أو مستعارة، والهموم تشن غارة بعد غارة. هذا مع أن المخترعات التي لم تسبق بتصنيف ولا بتدوين وترصيف[19]، لا تبلغ بها الفائدة نصابَها، وتفتح للمعاذير أبوابها. ومن الله أستمد العصمة من وصمة الغلط، وغوائل الأوهام وبوادر السّقَط[20]. وأن يوفقنا لإخلاص النية، وإحسان الطَّوِيَّة.

[17] هو مفعلة من السلوان أي يسليك عن الالتفات إلى متاعب هذه الحياة، وقوله: وتمثلًا، في القاموس: تمثل بالشيء ضربه مثلًا، وإلى هذا المعنى والذي قبله يشير قوله: تتخذونه.. إلخ.

[18] كلمة (الغرَض): الأولى معناها: موضوع القول، و (الغرض) الثانية معناها: الهدف.

[19] الرَّصْفُ: ضَمُّ الشيء بعضِه إلى بعض ونَظْمُه، رَصَفَه يَرْصُفُه رَصْفًا فارْتَصَفَ وتَرَصَّفَ وتَراصَفَ. (لسان العرب: مادة رصف).

[20] السّقَط: الرديء الحقير من المتاع والطعام، ومعناها هنا: الخطأ في القول والفعل.

ورتبت مقصود هذا الجمع في فصول:

الفصل الأول: في تحقيق معنى المفلوك الذي قُصر[21] عليه هذا الكتاب.

[21] في (خ): (كسر) وهو خطأ من الناسخ، والصواب ما أثبتنا نقلا عن (ط).

الفصل الثاني: في خلق الأعمال وبيان أن لا حجة للمفلوك في التعلق بالقضاء والقدر.

الفصل الثالث: في أن التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين.

الفصل الرابع: في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها.

الفصل الخامس: في أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك.

الفصل السادس: في مصير العلوم كمالاتٍ نفسانيةً وطاعةً ليس إلا بعد كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف وبيان السبب في ذلك.

الفصل السابع: في غَلَبَة الفلاكة والإهمال والإملاق على نوع الإنسان وبيان السبب في ذلك.

الفصل الثامن: في أن الفلاكة المالية تستلزم الفلاكة الحالية.

الفصل التاسع: في أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضى الطرق بهم إلى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك.

الفصل العاشر: في تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل.

الفصل الحادي عشر: في مباحث تتعلق بالفصل قبله، ومن المباحث النكبات الحاصلة للأعيان.

الفصل الثاني عشر: في أشعار المفلوكين أو من في معناهم وما فيها من مقاصد شتى، وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة.

الفصل الثالث عشر: في وصايا يُستضاء بها في ظلمات الفلاكة نختم به الكتاب.

الفصل الأول

في تحقيق معنى المفلوك

هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل العجم، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل غير المحظوظ المهمل في الناس لإملاقه وفقره. وليس في صِحاح الجوهري ولا في القاموس المحيط في هذه المادة ما يصلح لهذا المعنى إلا قول صاحب القاموس: فَلّكَ تفليكًا إذا لجَّ في الأمر، فإنه يمكن أن يجعل مصححًا لهذا الاستعمال. وبيانه أن اللَّجاج لازم الإملاق، فإنه يلزم من الإملاق وعدم الحظ اللجاجُ، فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم. وهذا مع ما فيه من التكلف مردود بأنَّ فَعَّلَ تفعيلًا لا يصح أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعول.[22] والذي يظهر أنه مأخوذ من الفَلَك الذي هو جسم محيط بالعالم، فكأن الفلك يُعارِض غير المحظوظ في مراده ويدافعه عنه. فإن قيل هذا فاسد لفظًا ومعنًى، أما اللفظ فلأن الفلك اسم جامد لا يصح أن يشتق منه صيغة مفعول ولا يصح اشتقاقه من الفلك لما فيه من معنى الاستدارة؛ لأن الفلاكة بمعنى عدم الحظ ليست من معنى الاستدارة في شيء، ولا على المجاز على معنى أن عدم الحظ لما استلزم الحركة والاضطراب والجولان كان إطلاقها وإرادته من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم لأن اللازم لعدم الحظ هو مطلق الحركة والاضطراب لا الحركة المقيدة بالاستدارة، وأما المعنى فإن اشتقاقه من الفلك على معنى أن الفلك يعارضه في مراده ويدافعه عنه غير مستقيم لما تقرر في الكتب الكلامية أن الله تعالى هو خالق كل شيء.

[22]. يقصد كلمة (مَفْلُوك) فهي على وزن (مَفْعُول).

فالجواب عن الأول أن اشتقاق المفلوك من الفلك غير ممتنع، فقد قالوا رَأَسْته بمعنى ضربتُ رأسَه، ورأَيْتُه بمعنى أصبتُ رِئته، وأبلغ من ذلك اشتقاقهم من الحروف كما في اشتقاق أُحاشي من حاشا الحرفية الاستثنائية في أحد التخريجين في قول من قال: *ولا أحاشي من الأقوام من أحد.[23]* وأبلغ من ذلك اشتقاقهم من لفظ الجملة كالحوقلة والبسملة والهيللة. وعن الثاني- أن ذلك من قبيل المجاز العقلي وهو نسبة الشيء إلى زمانه مجازًا تشبيهًا للتلبس غير الفاعلي بالتلبس الفاعلي، ويشهد لذلك ما قاله العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم: «الشُّؤمُ في ثلاثة، أو إنْ يكن الشؤمُ ففي ثلاثةٍ: المرأةِ والدارِ والفَرسِ» على اختلاف الروايتين.[24] جزمًا وتعليقًا [من].[25] أن

ذلك على المجاز والاتساع، أي قد يحصل الشؤم مقارنًا لها وعندها، لا أنها هي في أنفسها مما توجب الشؤم، فقد تكون الدار قد قضى الله تعالى أن يُميت فيها خلقًا من عباده كما يقدِّر ذلك في البلد بالطاعون والوباء، فيضاف ذلك إلى المكان مجازًا والله خَلَقَه عنده وقَدَّره. فقد صح بهذا التقرير جواز أخذ المفلوك من الفَلَك على معنى أنه الذي يعارضه الفلك في مراده على جهة التّجوُّز.

(23) هذا عَجُز بيت للنابغة الذبياني، من قصيدة في مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه، والبيت بتمامه:

ولا أرى فاعلًا في الناس يشبهه
ولا أحاشي من الأقوامِ من أحَد

وكلمة (أحاشي) هنا فِعْل بمعنى (أستثني). ويرى المؤلْف أن هذا الفعل (أحاشِي) مشتقّ أو مستمدّ من (حاشَى) أو (حاشَ) الاستثنائيّة التي تعدُّ في بعض استعمالاتها حَرْفًا.

(24) حديث صحيح رواه البخاري(5094) عن ابن عمر: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس) ومسلم (2225) من طريق الزهري عن سالم عن عبد الله بن عمر (إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس والمرأة والدار).

(25) زيادة من (ط).

ولو سلم أن السُّعودَ والنُّحوسَ لا تدور مع حركات الأفلاك دائمًا لم يكن ذلك قادحًا في صحة التجوُّز، لأن إضافة الفعل إلى زمانه مجازًا لا تحتاج إلى كون القضية دائمة كما في قولهم: نهاره صائم وليله قائم، وأمثاله مما لا يحصى. على أنَّا نقول اللغة اصطلاحية على قول والألفاظ العلمية التي يدير عليها أهلُ كل علم علمهم كالرفع والنصب للنحاة مثلًا اصطلاحية إجماعًا ووفاقًا. ووجه اختيار لفظ الفلاكة على الفاقة والإملاق والفقر ونحوها أن هذه الألفاظ الثلاثة ونحوها نص وصريح في مدلولها بخلاف لفظة الفلاكة والمفلوك، فإنه يتولد منهما بمعونة القرائن معانٍ لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها.

الفصل الثاني

في خلق الأعمال وما يتعلق به

مذهب.(26). إمام الحرمين.(27). وجمهور الفلاسفة وأبي الحسين البصري.(28). من المعتزلة [أن] .(29). الله تعالى يوجد للعبد القدرة والإرادة، ثم تلك القدرة والإرادة يوجبان وجود المقدور. ومذهب أكثر المعتزلة أن القدرة الحادثة موجبة لحدوث مقدورها، وأنه لا تأثير للقدرة القديمة فيه. ومذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري.(30). وجماعة من أصحابه والقاضي أبي بكر الباقلاني.(31). في أحد أقواله والنّجّار.(32). من المعتزلة أنه لا تأثير للقدرة الحادثة في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاته وإن أجرى الله العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها فيكون الفعل خلقًا من الله إبداعًا وإحداثًا وكسبًا من العبد لوقوعه مقارنًا لقدرته. واختلف في تفسير الكسب على قولين:

26). في ط: (أما مذهب).

27). إمام الحرمين: (419 -478هـ) هو: ضياء الدين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني. فقيه أصوليّ متكلم مفسّر أديب. له كثير من الكتب في الفقه وأصول الدين وتفسير القرآن. [معجم المؤلفين].

28). أبو الحسين البصري: (ت 436هـ) هو: محمد بن علي بن الطّيّب البصري المعتزلي، متكلّم أصوليّ كثير التصانيف، منها: المعتمد في أصول الفقه، والانتصار في الردّ على ابن الراوندي. [معجم المؤلفين].

29). في (ط): (فهو أن).

30). أبو الحسن الأشعري: (270هـ -324هـ) هو: علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل، ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري، متكلم تُنسب إليه فرقة الأشاعرة. له مؤلفات كثيرة من أشهرها: مقالات الإسلاميين [معجم المؤلفين].

31). القاضي أبو بكر الباقلّاني: (338 -403هـ) هو محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري، متكلّم على مذهب الأشعري، له مؤلفات كثيرة من أشهرها: إعجاز القرآن.

32). هو: الحسين بن محمد النّجار زعيم الفرقة النجارية، وهي إحدى الفرق المنسوبة إلى المعتزلة على خلاف بينهم في التفاصيل. [انظر الملل والنحل للشهرستاني 1/88].

أحدهما: أن ذات الفعل تحصل بقدرة الله تعالى وكونه طاعة ومعصية، كما في لطم اليتيم تأديبًا وإيذاءً، صفات له تابعة لوجوده يحصل بقدرة العبد لأن مفهوم الفعل أعم من خصوص كونه قيامًا وقعودًا، وما به التمايز غير ما به الاتحاد، فما به التمايز هو الكسب، صرح بذلك الأبهري.(33). في شرح المواقف، وبعض شراح الطوالع، ولكن المشهور إيراده مذهبًا للقاضي أبي بكر الباقلاني وأخذًا من أقواله.

33). الأبهري: هو سيف الدين أحمد الأبهري.

القول الثاني: وهو المشهور في تفسير الكسب أنه تصميم العزم على الفعل، على معنى أن الله تعالى أجرى عادته بأن العبد إذا صمم العزم على المعصية يخلق الله تعالى فعل المعصية فيه، فالعبد وإن(34) لم يكن موجدًا إلا أنه كالموجد. واستدلت الأشاعرة على مطلوبهم بمسالك كثيرة ضعفها الآمدي(35) في أبكار الأفكار(36)، ولم يرتض منها إلا مسلكين أخصرهما: لو كان العبد خالقًا لأفعال نفسه للزم وجود خالق غير الله، ووجود خالق غير الله محال، ويلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم. وأما المعتزلة فاستدلوا على مذهبهم بوجوه كثيرة مرجعها إلى أمر واحد وهو أنه لولا استقلال العبد بالفعل لبطل مدح العباد وذمهم على الطاعات والمعاصي؛ إذ لا يُمدح زيدٌ ولا يُذم بما يفعله عمرو من طاعة أو معصية، ولا ارتفع الثواب والعقاب؛ لأن العبد إذا لم يكن موجدًا لفعله لم يستحق ثوابًا ولا عقابًا وكان الله مبتدئًا بالثواب والعقاب من غير استحقاق من العبد لذلك؛ ولو كان كذلك لجاز عقاب الأنبياء وثواب الكفرة الأغبياء ولم يبق لأحد وثوق بعمله. ولا يخفى ما في ذلك من تشويش الدين والخبط في الشريعة. وأيضًا لولا الاستقلال لبطل التكليف بالأوامر والنواهي والتأديب؛ لأنه إذا لم يكن العبد موجدًا لأفعاله فكيف يصح عقلًا أن يقال ائت بفعل الإيمان والصلاة والزكاة ولا تأت بالكفر وشرب الخمر والزنا لأنه تكليف ما لا يطاق، ولبطل أيضًا فائدة بعث الأنبياء وهي [دعوة](37) المكلفين إلى فعل الطاعات وزجرهم عن المعاصي إذا لم يصدر منهم عمل فيلزم التكليف بما لا يطاق - والجواب بمنع الملازمات- أما في المدح والذم فلأنهما باعتبار المحلية لا باعتبار الفاعلية إذ يجوز أن يمدح الشيء لحسنه وسلامته ويذم لقبحه وعاهته، فتمدح الجوهرة لحسنها وصفائها ونقائها من العيوب، وأما الثواب والعقاب فلأن عادة الله جارية على خلق الثواب عَقِيبَ خلق الطاعات وعلى خلق العقاب عَقيبَ خلق المعاصي لا أن العبد يوجد الطاعة والمعصية وهما يوجبانهما كما يخلق الشبع عقيب خلق الأكل والاحتراق عقيب مسيس النار وإن قدر على أن يخلقها ابتداء. وقولهم: لو لم يكن الثواب جزاء فعل العبد لجاز عقاب الأنبياء وثواب الكفرة، قلنا: مسلَّم ولكن جوازًا تحيله العادة أو لا تحيله العادة، الأول مسلّم والثاني ممنوع فلا يشك في انتفاء ما ذكروه وإن كان جائزًا عقلًا. وأما حديث التكليف والتأديب والبعثة والدعوة فلأنها قد تكون دواعي الفعل وأجرى الله العادة بترتيب آثارها عليها.

(34) في (خ): (إن) دون الواو.

35). الآمدي: (551 -631هـ) هو سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم.. فقيه أصوليّ متكلّم منطقيّ.. من تصانيفه: غاية المرام في علم الكلام، والإحكام في أصول الإحكام وغاية الأمل في علم الجدل [معجم المؤلفين 7/155].

36). أبكار الأفكار في أصول الدين» كتاب من تأليف الإمام سيف الدين الآمدي يعد من أهم ما صنف في أصول الدين وعلم» الكلام. مطبوع.

37). في (خ): دعوى.

وتخليصه أن الأشاعرة لما وردت عليهم هذه الشبهة، ورأوا أيضًا تفرقة بديهية بين ما نزاوله من الأفعال الاختيارية ومن حركة المسحور على وجهه والمرتعش وزادهم ومنعهم البرهان الدال على أن الله خالق كل شيء عن إضافة الفعل إلى اختيار العبد مطلقًا جمعوا بين الأمرين وأثبتوا الكسب على التفسيرين السابقين، فأما أن يقال كون خصوص الفعل من كونه طاعة ومعصية واقعًا بقدرة العبد كاف في تكليفه وتأديبه ودعوته، وأما أن يقال العبد إذا صمم العزم على المعصية يخلق الله فعل المعصية فيه، وإذا صمم على الطاعة يخلق الله فعل الطاعة فيه وعلى هذا يكون العبد كالمُوجِد لفعله وإن لم يكن مُوجِدًا، وهذا القدر كاف في التكليف والتأديب والدعوة، وهذا أيضًا مُشكِل لأن الدواعي والتصميم فعل من الأفعال مخلوق لله تعالى فلا مدخلَ للعبد أصلًا، ووجه الاعتذار عن هذا الإشكال كما قرره الأصفهاني(38) أن الله تعالى يُوجِد القدرةَ والإرادةَ في العبد ويجعلهما بحيث لهما مدخل في الفعل، لا بأن تكون القدرة والإرادة لذاتهما اقتضت أن لهما مدخلًا في الفعل بل كونهما بحيث لهما مدخل بخلق الله إياهما على هذا الوجه ثم يقع الفعل بهما فإن جميع المخلوقات يخلق الله بعضها بلا واسطة وبعضها بوساطة أسباب لا بأن تكون تلك الوسائط والأسباب لذاتها اقتضت أن يكون لها مدخل في وجود المسببات بل بأن خلقها الله تعالى بحيث لها مدخل فتكون الأفعال الاختيارية المنسوبة إلى العبد مخلوقة لله تعالى أو مقدورة للعبد بقدرة خلقها الله تعالى في العبد وجعلها بحيث لها مدخل في الفعل.

38). هو أبوالفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني الأموي القرشي، يرجع نسبه الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد بأصبهان سنة 284هـ، ونشأ ببغداد، زيدي المذهب، مؤرخ ونسابة وأديب وشاعر. وكانت وفاته سنة 356هـ. من أهم كتبه كتاب الأغاني.

والغرض من هذا الفصل إقامة الحجة على المفلوكين وقطع معاذيرهم وإلجامهم عن التعلق بالقضاء والقدر، وأنه متى نُعيت إليهم فلاكتهم أو نُودي عليهم بها كان ذلك متجهًا مخيلًا؛ لأنهم إما فاعلوها استقلالًا أو مشاركة، وإما بالمحلية والمدخلية على ما سبق تحقيقه. ولو سلم أن ذلك من باب القضاء والقدر الصِّرف أو فرضت فلاكة سماوية صِرفة فكلمات العلماء في مجاري أبحاثهم طافحة بأن القضاء والقدر لا يحتج به، وذلك لما روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال: «اجتمع آدم مع موسى فقال له موسى: يا آدم، أنت خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة. قال صلى الله عليه وسلم: فحجَّ آدمُ موسى»[(39)](#). قال النووي في شرحه: فإن قلت: فإن العاصي مِنا لو قال هذه المعصية قدَّرها الله عليّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقًا فيما قاله، فالجواب أن هذا العاصي باق في دار التكليف جارٍ عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها، وفي لومه وعقوبته زجرٌ له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت. فأما آدم فميتٌ خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر، فلم يكن في القول المذكور له فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل. اهـ.

[39)](#). أخرجه مسلم برقم(2652):«احتج آدم موسى فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة. فقال ﷺ: فحج آدمُ موسى فحج آدمُ موسى».

فانظر كيف اعترف بحقيقة السؤال واعتذر في الجواب بأن الحديث ليس منه، والقضاء والقدر وإن لم يحتج به في الدنيا فجائز أن يحتج به الأنبياءُ في الآخرة لعلو مقامهم عن الإيذاء والتخجيل. وإذا ثبت أن القضاء والقدر لا يحتج به في المعاصي فغيرها كذلك؛ إذ لا قائل بالفرق أو المقايسة لأن العلة التي اقتضت المنع من الاحتجاج بالقدر في المعاصي مطردة في غيرها من أقداره تعالى بالمناسبة والإخالة[(40)](#).

[40)](#). الإخالة: هي الفِراسة وبعد النظر، أَخَلْتُ فيه خالًا من الخير.. أي: رأيتُ فيه مَخِيلَتَه، أي دلالته.

الفصل الثالث

في أن التوكل لا ينافي التعلق بالأسباب
(وأن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين)

ومقصود هذا الفصل يحصل بالكلام على مقامين. المقام الأول: مقام التوكل. التوكل في اللغة عبارة عن إظهار العجز والاعتماد على الغير، وخُص بما يكون الاعتماد فيه على الله تعالى. وفي الاصطلاح عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر[في](41) جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الأسباب الطبيعية. ودوام حسن الملاحظة يجامع التعلق بالأسباب ولا ينافيها، وحينئذ فحركة العبد ببدنه أو بتدبيره إما لجلب نفع كالكسب أو حفظه [كالادخار](42) أو دفع ضر كمقاومة الصائل أو قطعه كالتداوي، فأما جلب المنافع ودفع المضار ورفعها فإفضاء الأسباب إليه إما مقطوع به وهي الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعالى ارتباطًا مطردًا، وإما مظنون ظنًّا يوثق به وهي المسببات [التي](43) ارتبطت بالأسباب ارتباطًا أكثريًّا بحيث لا [يحصل](44) بدونها إلا نادرًا، وإما موهوم وهو لا يوثق به ولا يطمأن له.

(41). في (خ): (أن) والتصويب من (ط).
(42). في (خ): (كالادخال) والتصويب من (ط).
(43). زيادة ضرورية لإتمام المعنى.
(44). في (خ): (يصل).

فأما المقطوع بإفضائه والمظنون إفضاؤه من الجلب والدفع والرفع، كمد اليد إلى الطعام الحاضر، واستصحاب الزاد في السفر في البراري المقفرة، والتنحّي عن مجرى السيل وعن مفترس الأسد، وترك النوم تحت الجدار المائل، وإغلاق الباب، وعقل البعير، والتداوي بالأمور المجربة، فكل ذلك لا ينافي التوكل، وإهماله مراغمة لحكمة الله تعالى في نصب الأسباب وعدم الاكتفاء بالقدرة المجردة وجهل بسنة الله وعادته فمن ترك الوِقَاع(45) ومد اليد إلى الطعام وإبلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله وانتظر أن يحصل له ولد كما ولدت مريم عليها السلام، أو أن يخلق الله له الشّبع بغير أكل، أو يرسل ملكًا فيمُضِغَه ويدخله في فِيه فهو مجنون جاهل بالشريعة؛ لأن الاكتساب لإحياء النفس واجب والاكتساب لنفقة الزوجة والبعض أصلًا كان أو فرعًا في الثابت الصحيح واجب أيضًا، ولأن إهمال العيال حرام، وإهلاك النفس جوعًا حرام، وإغلاق

الباب عليه وسد طريق العلم به وامتحان قدرة الأرزاق حرام، وتصبير النفس على الجوع لمن لا تطيق نفسه ذلك وتضطرب عليه حرام، كما قاله [في الإحياء وعبارته: «ونفسه أيضًا عيال عنده لا يجوز له أن يضيعها إلا بأن تساعده على الصبر(46). على الجوع مدة، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل. انتهى.

45). الوِقاع: الجماع.

46). ما بين قوسين سقط من (ط).

وقد قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أهمل بعيره وقال توكلت على الله: «اعقلها وتوكل على الله»(47). وقال تعالى: ﴿ خُذُوا حِذرَكُم ﴾ [النساء: 71] وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ [النساء: 102] وقال: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ [الأنفال : 60] وقال لموسى: ﴿ فَأَسرِ بعبادي ليلًا ﴾ [الدخان: 23] والتحصن بالليل لإخفائهم عن عين العدو نوع تسبب، واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار عن عين الأعداء للضرر وأخذ السلاح في الصلاة سبب مظنون.

47). رواه الترمذي وأبو نعيم في حلية الأولياء وليس فيه (على الله).

وأما الموهوم إفضاؤه دفعًا وتحصيلًا كالرقية والكي والاستقصاء في حِيَلِ المعيشة والتدبيرات الدقيقة من وجوه الاكتساب فذلك كله منافٍ للتوكل لما أنه من ثمرات الحرص وحب الدنيا لا لمنافاته التوكل بالذات؛ لأنا قد قدمنا أن التوكل عبارة عن دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث وهذا إنما ينافي الاستقصاء وتدقيق التدبير باختلاف اللوازم لا بالذات، فحينئذ التوكل هو عدم الاعتماد على الأسباب مفضية كانت إلى مسبباتها بالقطع أم لا، وأن يكون الاعتماد على خالقها، فإن اليد والطعام وقدرة التناول مثلًا كلها من قدرة الله تعالى. وكيف يتكل على اليد وغيرها وربما تفلج(48). في الحال ويهلك الطعام أو يحدث من تناوله مرض يؤدي إلى الهلاك أو يتسلط على زاد المسافر غاصب أو سارق وما شاكل ذلك من الآفات. فيجب أن يعتمد على فضل الله تعالى في دفع جميع هذه الأشياء. فقد بان واتضح مما قررناه أن ليس من شرط التوكل ترك الأسباب وإطراحها وإهمال الكسب بالبدن والتدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة اللَّقَى(49). أو كلحم على وضم(50)، فإن ذلك كله حرام في الشرع ولن يتقرب إلى الله بمحارمه. وأما الادّخار فما كان منه مع فراغ القلب عن المدخر فليس من ضرورته بطلان التوكل، هكذا صرح به في الإحياء(51). وأما غيره فمن انزعج قلبه بترك الادّخار واضطربت نفسه

وتشوشت عليه عبادته وذكره واستشرف[52] إلى ما في أيدي الناس فالادخار أولى لأن المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله، ورُبَّ شخص يشغله عنه وجود المال، ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور هو الشغل عدمًا كان أو وجودًا، فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها؛ ولذلك بُعِث صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق، وفيهم التجار والمحترفون، أي أهل الحرف والصنائع، فلم يأمر التاجرَ بترك تجارته، ولا المحترفَ بترك حرفتِه، ولا أمر التاركَ لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله وأرشدهم إلى أن نجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا. فصواب الضعيف ادِّخار قدر حاجته، كما أن صوابَ القوي ترك الادخار، وكذلك المُعْيِل[53] لا يخرج عن حدِّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرًا لضعفهم وتسكينًا لقلوبهم، وقد ادخر صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنته. وأما نَهْيُ أمِّ أيمن عن أن تدخر شيئًا لغدٍ ونهيُ بلالٍ عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، وقال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالًا»[54] فلأن الادخار يضر بعض الناس دون بعض. وكذلك ما روى أبو أمامة الباهلي أن بعض أصحاب الصُّفة[55] تُوفي فما وُجِدَ له كفنٌ فقال صلى الله عليه وسلم: «فتشوا ثوبه» فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم: «كَيَّتَانِ»[56] وقد كان غيرُه من المسلمين يموت ويخلف أموالًا كثيرة فلا يقال ذلك في حقه، ووجه الجمع بين هذين الأمرين أن إظهار الزهد والفقر والتوكل مع تلك الدنانير تلبيس.

48) تفلج: يصيبها الفالج وهو الشلل.

49) اللَّقى: كل شيء مطروح متروك كاللُّقَطة. ويقصد هنا: كالخرقة البالية الملقاة.

50) كلحم على وضم: الوضم ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير، وتركهم لحمًا على وضم: ذللهم وأوجعهم.

51) يقصد كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي.

52) استشرف إلى الشيء: تطلع إليه.

53) المُعْيِل: الكثير العِيال.

54) أورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (2661).

55) الصُّفَّةُ: الظُّلَّة، والبَهْو الواسع، وهي هنا: مكان مظلَّل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراءُ المهاجرين، وهم أصحاب الصُّفّة، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشملهم برعايته.

56) روى الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (21594)مرفوعا: عن أبي أمامة، أن رجلًا من أهل الصّفَّة تُوفي وترك دينارًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له: «كَيَّة»، قال: ثم توفي آخر وترك دينارين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَيَّتَانِ».

قلت: رأيتُ في ترجمة النجم الخبوشاني[57] الأمّار بالمعروف النّهاء عن المنكر للملوك فمن دونهم، الذي يُضرب به المثلُ في الزهد أنه لما مات وجدوا له ألوفَ دنانير، هذا مع مبالغة المترجمين له في

الثناء عليه ومع ما في ترجمته من أنه كان يصوم ويُفطر على خُبز الشعير ويركب الحمارَ وآنيةُ بيته كلُّها خَزَفٌ، فهذا الكلام مع نبوِّه عن هذا المقام سهل ذكره ما ذكره العلماء في الجمع بين حديث الدينارين وعدم إنكار الأقوال الكثيرة في ميت آخر، وأن ذلك لما أن إظهار الزهد والباطن بخلافه تلبيس، فاعجب لحال الخبوشاني وعجب ولا تغتر.

(57) الفقيه الكبير ، الزاهد نجم الدين ، أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد ، الخبوشاني الشافعي، الصوفي. قال المنذري: ولد سنة 510 وحدث عن هبة الرحمن ابن القشيري. مات في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمسمائة. [سير أعلام النبلاء 21/204].

المقام الثاني في أن الزهد لا ينافي كون المال في اليدين:

الزهد في اللغة: الرغبة عن الشيء، خُصِّص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا. وفي الاصطلاح: ترك المباح المحبوب المقدور عليه لأجل الله. وفي ضابطه قيود، الأول: ترك المباح؛ فتارك المحظورات لا يُسمى زاهدًا. الثاني: المحبوب، فتارك ما لا يؤبه(58) إليه كالتراب والحجر لا يُسمى زاهدًا. الثالث: كونه لأجل الله، فبذل المال وتركه على سبيل السخاء والفتوة واستمالة القلوب والطمع في الثناء لا يكون زهدًا، إذ الذكر والثناء وميل القلوب أهنأ من المال، فهو استعجال حظ آخر للنفس. الرابع: المقدور، فمن ترك ما لا يقدر عليه كغير ابن أدهم(59) من أمثالنا في دعوى الزهد في المُلك لا يكون زاهدًا. وفي إفراد المباح إشارة إلى أن الزهد يتبعض كما أن التوبة تتبعض، فمن ترك بعض التمتّعات من الشهوة والغضب والرياسة دون بعض كان زاهدًا، وأما القانع فهو المرجح لوجود المال على عدمه ترجيحًا لا يحمله على الدأب فيه، فقولنا المرجح خرج به من لا يحب حصوله ولا يكره زواله وهو الراضي، وقولنا ترجيحًا لا يحمله على الدأب فيه خرج به من يتركه عجزًا ويسعى فيه ما وجد سبيلًا وهو الحريص. وهذه المرتبة وهي مرتبة الحرص وإن كانت دنيا فإن لها فضلًا لدخولها تحت العمومات الواردة في فضل الفقر، وذلك جمع بين قوله صلى الله عليه وسلم: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»(60) وبين قوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: «بأربعين خريفًا» أي أربعين سنة، بأن الأول تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب، والثاني تقدير تقديم الفقير الحريص على الغني الراغب. فكان الفقير الحريص على درجتين من خمسة وعشرين درجة من الفقير الزاهد؛ إذ هذه نسبة الأربعين إلى الخمسمائة. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الفقراء، أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا»(61) يقتضي(62) أن الحريص لا ثواب له على فقره ، فلعل المراد بعدم الرضا الكراهة

لفعل الله من حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة من فعله.[63]

[58] هو لا يؤبه له: أي لا يُفطن ولا يُنتبه إليه. والمعنى أنه لا ينظر إليه ولا يُهتم به.

[59] إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، القدوة الإمام العارف ، سيد الزهاد أبو إسحق العجلي، وقيل التميمي، الخراساني البلخي، نزيل الشام ، مولده في حدود المائة من الهجرة.

[60] أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه والترمذي في جامعه وصححه الألباني.

[61] أورده الغزالي في إحياء علوم الدين وقال محققه: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف فيه أحمد بن الحسن بن أبان متهم بالكذب.

[62] في (ط) : (فلا يقتضي) وهذا خطأ لا يستقيم به المعنى.

[63] جاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (4/243) في بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» «طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به» (رواه مسلم) وقال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلبوكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» فالأول القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابًا ... فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر. ا.هـ.

إذا عرفت تمايز هذه الحقائق بمسمياتها وأسمائها فاعلم أن وجود المال في اليدين لا في القلب، ودخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها لا ينافي الزهد، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح، فكم من الرهَّابين من رَدَّ نفسه في كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازم ديرًا لا بابَ له، وإنما أعلى المقامات أن يستوي عند القلب وجود المال وفقده، فإن وجده لم يفرح ولم يتأذّ، وكذلك إن فقده. وقد روي عن عائشة إنها فرقت في يوم مائة ألف درهم، فقالت لها جاريتها: هلّا شريت لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟ فقالت: لو ذَكَّرْتِني لفعلت. وذلك لأن الكاره للدنيا[64] مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله، والمشغول ببُغض نفسه مشغول عن الله أيضًا، بل كل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فإن التفات قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه واستثقاله وكراهة حضوره، فهو في حال اشتغال قلبه به منصرف عن التلذّذ بمشاهدة معشوقه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق بِحُبٍّ شِرْكٌ كذلك النظر إلى غيره ببُغضٍ شِرْكٌ فيه ونقصٌ. وأما هروب الأنبياء والأولياء والأكابر من الدنيا فذلك لأن الدنيا خدَّاعة مدعاةٌ إلى الشهوات، والراحة في بذلها أُنْسٌ بغير الله، والأنسُ بغير اللهِ بُعْدٌ عن الله، فالأنبياء والأولياء يتركون الدنيا للتشريع والتعليم والخوف على أتباعهم من أن يتشبهوا بهم مع عدم قوتهم فيهلكوا،

ومن دونهم ممن لا قوة له يترك ذلك احتياطًا وحزمًا، فإن استواء الذهب والحجر في القلب عسير ومزلة قدم، وهو حال الأنبياء وأفراد الأولياء.

64) أي بكراهتها، فهو دائمًا يعمل نفسه في التنحي عنها والتخلص منها كما أن الراغب فيها مشغول بتحصيلها فهو في كلتا الحالتين مشغول بها دفعًا وتحصيلًا.

ويوضح ذلك أن المال في اليدين بدون القلب لا ينافي الزهد. إن خزائن الأرض حُملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أبي بكر وعمر، فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها. وكان لعثمان عند خازنه يوم قُتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير بالربذة وترك صَدَقاتٍ كان يتصدَّقُ بها بين أريس وخيبر ووادي القرى قيمته مائتا ألف دينار، وكان للزبير عند وفاته خمسون ألف ألف ومائتا ألف. قال عروة: كان للزبير بمصر خِططٌ(65) وبالإسكندرية خِططٌ وبالبصرة دُورٌ، وكانت له غلَّات تَقْدِمُ عليه من أعراض المدينة. وترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة. قال ابن سيرين: كان فيما تَرَكَ ذَهَبٌ قُطعَ بالفؤوس حتى مَجِلَت(66) أيدي الرجال منه، وترك أربع نسوة فأُخْرِجت امرأةٌ من ثُمْنِها بثمانين ألفًا.

65) خِطط: جمع خِطة، وخطة الأرض: قطعة أرض تحاط بسياج علامة على أنها في مِلكِ مالكٍ ليقيم عليها بناءً.
66) مَجِلَتْ يدُهُ: تقرَّحتْ من العمل.

قال أبو الأسود عن عروة: أوصى عبد الرحمن بن عوف في السبيل بخمسين ألف دينار. وروى موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كان طلحة يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبالأعراض له غلات، وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلتُه كل سنةٍ بعشرة آلاف، وقضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم. وقال الواقدي: حدثني إسحق ابن يحيى عن موسى بن طلحة أن معاوية رضي الله عنه سأله: كم ترك أبو محمد يعني طلحة من العين؟ قال: ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار. وقال إبراهيم بن محمد بن طلحة: كان قيمة ما ترك طلحة من العقار والأموال وما ترك من الناض(67) ثلاثين ألف ألف درهم، وترك من العَيْن(1) ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عُروض(1). وقال علي بن رباح: قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: حُدِّثت أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ترك مائة بهار(68) في كل بهار ثلاث قناطير ذهب. قال: وسمعت أن البهار جلد ثور والبهار لغة ثلثمائة رطل. قال ذلك كله أبو عبد الله محمد

بن سعد كاتب الواقدي.(69) في طبقاته الكبرى. وأيضًا كان لسعد بن أبي وقاص والبراء بن معرور السلمي والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن عمر أموال كثيرة. ويدل على ذلك أن العباس فدى نفسه وابن أخيه عقيلًا بثمانين أوقية ذهب، ويقال ألف دينار. وما رُوي عن عبد الله بن عمر إنه كان إذا رأى من رقيقه أمرًا يعجبه أعتقه، فعرف رقيقه منه ذلك فشمروا للعبادة فأعتقهم؛ فقيل له: إنهم يخدعونك. فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له. وما رُوي أن سعد بن أبي وقاص قال: مرضتُ فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني، فقلت: يا رسول الله، مالٌ كثيرٌ وليس يرثُني إلا ابنٌ فأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا»... الحديث. فهذا كله مما يدلك أن الدنيا ليست مكروهة لعينها وإلا لأمرهم صلى الله عليه وسلم بالانسلاخ من أموالهم.

(67). العُروض: جمع عَرْض، وهو المالُ من المَتاع والسّلع وكلّ شيءٍ سوى الدراهم والدنانير. والعيْن: المالُ الحاضِر من الدنانير والدراهم المضروبة. والنَّاضُّ من المال: هو ما تحوَّل عيناً بعد أن كان متاعًا، أو هو الدّيْن المستحقّ للدائن، فهو مال ولكنّه غيرُ حاضر لا عينًا ولا عُروضًا.

(68). هو بالضم شيء يوزن به وهو ثلثمائة رطل أو أربعمائة أو ألف، وهو أيضًا العِدْل فيه أربعمائة رطل. انظر القاموس.

(69). كاتب الواقدي: (168 -230هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد المشهور بكاتب الواقدي محدث حافظ، حدث وروى وكتب الحديث والفقه، من آثاره (كتاب الطبقات الكبير) [كحالة 10/21].

وأما المسألة المشهورة في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر فذهب ابن عطاء الله - قدس الله روحه- إلى تفضيل الغني، وخالف في ذلك الجنيدَ وجمهورَ الصوفيةِ وما أوردوه عليه من أن الغِنى وصف الحق والفَقْر وصف العبد، وصفات الربوبية لا ينازع فيها معارضٌ بأن العلم والمعرفة وصف الرب، والجهل والغفلة وصف العبد فليكونا أفضل [له].(70)، ثم لا شك أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص، والغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص. قال ابن دقيق العيد في شرح العمدة: الذي تقتضيه الأصول أنهما إن تساويا وحصل الرجحان بالعبادات المالية يكون الغنيُّ أفضلَ. ولا شك في ذلك وإنما النظر فيما إذا تساويا في أداء الواجب فقط وانفرد كل واحد بمصلحة ما يوفيه، وإذا كانت المصالح متقابلة ففي ذلك نظر يرجع إلى تفسير الأفضلية، فإن فُسر الأفضل بزيادة الثواب فالقياس يقتضي أن المصالح المتعدية أفضل من القاصرة، وإن كان الأفضل بمعنى الأشرف بالنسبة إلى صفات النفس فالذي يحصل للنفس من التطهير للأخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر أشرف فترجح الفقر. ولهذا المعنى ذهب الجمهور من الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر لأن مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضتها

وذلك مع الفقر أكثر منه مع الغنى، فكان أفضل بمعنى الشرف، هكذا قاله ابن دقيق العيد في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» لما شُكي له أن الفقراء قالوا: ذهب أهلُ الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم... الحديث.[(71)]

[(70)] زيادة في (ط) (له).

[(71)] عن سمي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة رضي الله عنه(أن فقراء المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، قد ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم والمقيم. قال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة: ثلاثًا وثلاثين مرة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».(أخرجه مسلم)

فقد بان لك واتضح بالكلام في هذين المقامين أن التعلُّقَ بالأسباب لا ينافي التوكل، وأن وجود المال في اليدين لا في القلب لا ينافي الزهد، والمقصود إلجام المفلوكين عن التعلق بالزهد أو التوكل في انزواء الدنيا عنهم جدلًا مهما كانوا محتجين لا زاهدين حقيقة، فإن الزاهد حقيقة لا كلام معه لأن الزهد كما لا ينافي المال لا يستلزمه وغايته أن الزهد على قسمين: قسم مع المال وقسم لا مع المال، فلا منافاة ولا استلزام له.

الفصل الرابع

في الآفات التي تنشأ من الفلاكة وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها

وهي أكثر من أن تُحصى أو يحملها القلم. فمنها ضيقة العَطَن والنَّزَق.(72)، وذلك أن طبيعة الفرح والسرور هو تفشي الروح الحيواني وتخلخله، وينشأ من ذلك سعة الصدر وقبول النفس لما يرد عليها وانفعالها له؛ ولذلك تتحين أصحاب الحوائج بحوائجهم سرور من يسألونه إياها. وطبيعة الكمد والقبض هو تكاثف الروح الحيواني وتجمعه وينشأ منه ضيقة العَطَن والنزق وسوء العشرة والانحراف والانكماش عن الخلق. ومنها أن الفلاكة يلزمها القهر والإكراه، ومتى استولى القهر والغلبة على شخص حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والتخبيب وفساد الطوية والخبث والخديعة، [ولذلك كانت اليهود موصوفين بالخبث والذل والخديعة].(73) لاستحكام القهر عليهم وغلبة الإكراه على عامة أحوالهم، ولذلك أيضًا يُنهى عن إرهاف الحد على الولدان والعبيد، ويؤمر بترويحهم.(74) ومد الطول لهم خشيةً عليهم من اكتساب هذه الأخلاق الذميمة.

(72). هو كناية عن انقباض الصدر، والعَطَن: مَبْرَك الإبل ومَرْبِض الغنم عند الماء، وفلان واسع العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي كثير المال. والنزق بالتحريك الخفة والطيش عند الغضب.

(73). زيادة في (ط).

(74). في (ط): (بتزويجهم).

أرسل هارون الرشيد إلى خلفٍ الأحمر.(75) لتأديبِ ولدِه الأمينِ فقال له: إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مُهْجَةَ نفسه وثمرةَ فؤاده فكُن له حيث وَضَعَك أميرُ المؤمنين؛ أقرئه القرآنَ، وعرِّفه الأخبارَ، ورَوِّهِ الأشعارَ، وعلِّمه السُّنَنَ، وبصِّرْه بمواقعِ الكلامِ، وامنعه من الضَّحِكِ إلا في أوقاته، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مُغتنمٌ فيها فائدةً تفيدُه إيَّاها من غير أن تحزنه فتميتَ ذهنَه أو تهملَه فيستحلِي الفراغَ ويألفَه، وقوِّمْه ما استطعتَ بالقرب والملاينةِ فإنْ أباهُما فعليكَ بالشدةِ والغلظةِ.

(75). خلف الأحمر: أبو محرز خلف بن حيان، من علماء البصرة في اللغة والنحو. توفي في حدود 180هـ وكان راوية ثقة علامة.

ومنها.(76) الحقد، وذلك أنه إذا استحكمت الفلاكةُ وعُرِف بها شخصٌ أوسعه الناسُ إغاظةً استهوانًا به وعدم مبالاة بغضبه وأمنًا من غائلتِه ومغبَّته، فإذا تواردت موجِبات الغضب وازدحمت عليه من توقيفه على نقائصه والإغماض عن كمالاته وتقريعه بزلَّاته وتوبيخه على تقصيره وهَتْكِ أستارِه وإذاعةِ أسرارِه وجَبْهِهِ بأقبح الكلام في وجهه وعدم اعتباره والمبالغة في عَتْبِه ومعاكستِه في مرادِه أو عدمِ إسعافِه به وعَجْزَ عن الوقوف في ذلك موقف نكير أو أن ينفس

غيظَه منه بنفثةٍ مصدور أو ضربةٍ موتور واستبحرت أسبابُ الغيظ وزخَرتْ أمواجُ العجز عن إطفائِه بالانتقام عاد ذلك إلى الباطن وأُجّج فيه نارًا وتحوَّل حقدًا وضغينةً وسخيمةً، وتعوقه موانعُ الفلاكةِ عن أعماله فيصير ألمًا صرفًا ووسواسًا سوداويًّا ومعصيةً مجردةً.

(76). أي: من الآفات التي تنشأ عن الفلاكة: وقد انقطع السياقُ اللغوي بالحديث عن تكليف هارون الرشيد خلفَ الأحمر بتأديب ولده الأمين. والقصة ليست بعيدة عن السياق المعنوي، ولذلك قلنا إنّ الذي انقطع هو السياق اللغوي لبُعد معاد الضمير.

ومنها الحسد، وتوجبه الفلاكةُ من وجوه: أحدها إنه إذا توالت مقتضياتُ الغيظ كما قدَّمنا وعجز المفلوكُ عن الانتقام تحوَّل ذلك حِقدًا وضغنًا كما مرَّ، والحقد يقتضي الانتقام، فإن عجز أحب أن يتشفى منه بانتقام الزمان له منه، وربما يحيل ذلك على كرامته عند الله وربما يظهر أنه لا منزلةَ له عند الله حيث لم ينتقم منه. وبالجملة فالفلاكةُ يلزمها الإغاظةُ، والإغاظةُ يلزمها الحقدُ، والحقدُ يلزمه إرادةُ الانتقام، والعجزُ عن ذلك يلزمه حبُ زوال النعمة التي بها التفاوتُ اللازم منه الإغاظة، ولازمُ لازمِ الشيء(77) لازمٌ لذلك الشيء. وثانيها أن يثقل على المفلوك أن يترفع عليه غيره، فإذا أصاب مُسَاوٍ له في صفات النفس مالًا أو جاهًا وخاف أن يتكبَّر عليه وهو لا يُطيق أن يتكبَّر عليه ولا تَسمح نفسُه باحتمال صَلفه وتِيهه وتفاخُرِه عليه وأن يستصغِرَه ويستخدمَه، وعجز عن زوال الفلاكة عنه واللحوق به في تلك النعمة أحبَّ زوالها عن غيره. وثالثها ما يحدث في نفوس المفلوكين من دعوى الاستحقاق لتلك النعم ولذلك قال ابن مقلة:

(77). في (خ): (ولازم الشيء).

وإذا رأيتُ فتًى بأعلـــى رتبةٍ
في شامــخٍ من عِزِّهِ المترفِّـــع
قالت ليَ النفسُ العَرُوفُ بقدرها
ما كــــان أولاني بهذا الموضِـع

حتى إنَّ من المفلوكين من تنتهي به دعوى الاستحقاق إلى حدٍّ يرى أن النِّعمَ التي بأيدي الناس استحقاقُه ومغصوبةٌ منه، والمالكُ المستحِقُّ طالبٌ لزوالِ ماله من أيدي الغاصبين لا محالة.

ومنها الغِيبةُ والطعنُ في أعراض الناس والغضُّ منهم؛ وذلك أن الغضب والحقد والحسد ثلاثتها من البواعث العظيمة على الغِيبة إذا امتلأ المفلوكُ غضبًا وحقدًا وحسدًا وعجز عن الجري على مقتضاها جهارًا ومواجهةً التجأ إلى الفكرة والغوص على مساوئ خصومه وإعمال الحيلة في

الاطلاع على عوراتهم، وضم إليها أكاذيبَ وتميقًا ونشرَها على وجه الغِيبة مرّةً إرادة الترفع بنفسه بسلامته من تلك النقائص أو لاتّصافه بنقائضها الكمالية على سبيل التعريض، كما يقول: فلانٌ فاسقٌ أو شريرٌ؛ إرادةَ سلامتِه من ذلك، أو فلانٌ جاهلٌ أو ذهنُه ركيكٌ وكلامه ضعيفٌ؛ تعريضًا باتصافه بنقائض ذلك. ومَرَّةً إرادةَ صرفِ الناس عن الاسترسال في تعظيم خصومه وكفِّهم عن الإفراط في الثناء عليهم ومحبَّتِهم بتوقيفهم على ما يوجب تنقيصَهم وصرفَ القبول عنهم. ومَرَّةً بتمهيد عذر نفسه من اتصافه بالمساوئ والنقائص بمشاركة العظماء له في تلك المساوئ. ومرةً على سبيل اللذة بالطعن في الأعراض تشفيًا بحسب المقدور، حتى قال بعضُ الأعراب: لم يبق من لذات الدنيا إلا الطعنُ في أعراض اللِّئام. ثم يتعود لسانه هذه المعصية العظيمة حتى تصير له خلقًا وفكاهة ونُقْلًا.(78)، ويساعده على ذلك إمكانُها وتسهيلُها وعدمُ افتقارها إلى أدوات وآلات وكونها عبارة عن النطق الذي هو انضغاط الهواء في المجرى على مقاطع الحروف والهواء والتنفس طبيعي للحيوان بخلاف غيرها من المعاصي لتوقفه على أدوات كثيرة. وأيضًا فالإنسان خُلق فعالًا بالطبع كما ذكره الشيخ في الإشارات.(79). ولا يتخلف عن مقتضى طبعه من الفاعلية إلا لصارف وصادّ كما في الأفعال الشاقة التي لا يمكن مزاولتها إلا بتجشم الكُلَف والمؤَن، وكما في الصارف العقليّ أو الوهميّ من الكلام المُضمر، فمهما وُجِدَ المقتضى وزال الصارِفُ عن الفعل كما في الكلام عملت الطبيعةُ عملَها؛ ولذلك كان الامتناعُ من الكلامِ ولزوم السكوتِ عسيرًا شديدًا.

(78) النُّقْل: ما يُتَسَلَّى بتناوله مع الشراب وفي مجالس السمر من فاكهة وكوامخ ومسلّيات مثل الفستق والبندق واللّوز. والمقصود أن يصبح الطعن في الأعراض من جانب المفلوك عادة مألوفة وسهلة ومتكرّرة.

(79) المقصود بالشيخ: الشيخ الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا (370 -428هـ). والمقصود بـ (الإشارات) كتابه: الإشارات والتنبيهات (في المنطق والحكمة).

ومنها كون الفلاكة غِطاءً وسِترًا على محاسنِ المفلوك وكمالاته النفسانيَّة وأدواته ومعارفه، حتى إن الفلاكة تسري إلى نُطقه ومصنوعاته ومقاصده، فإما أن يغفَل عن محاسنِ كلامه ومقاصدِه ولا يعبأَ بها ويُعرَض عنها وإما أن يصرف كلامه عن ظاهره بوجهٍ من التأويل، وإما أن لا يُفهم مرادُه منه، وإما أن يُدّعى عليه غيرُ مرادِه، وإما أن يُدّعى فسادُ قصده فيه؛ ولذلك تُروَّجُ بعضُ الكتبِ بنسبتها إلى رجلٍ مرموقٍ بعينِ الجلالةِ كما فُعل في «الورقات» حيث نُسبت إلى إمام الحرمين وليست له؛ بشهادة عباراته الفائقة الرائقة في باقي كتبه، ومخالفة «الورقات» لما في

«البرهان في التصحيح والحكم» وكما فُعل في «السرّ المكنون» وفي «المضنون به على غير أهله» حيث نُسبا إلى الغزالي كما قاله الإسنوي.(80) في الطبقات وليْسَا لَهُ كما ذكره في «الطبقات» ولذلك أيضًا تجد البحث النفيس يلقيه الباحث بين الأفاضل فيبادرونه بالإنكار والتزييف والمناقشة ويضايقونه فيه حتى يقول لهم: هذا البحث قاله الإمام فخر الدين الرازي.(81) أو الزمخشري.(82) مثلًا أو مَنْ في معناهما، فحينئذ يرجعون إلى ذلك البحث بالتأويل والتثبت ويعترفون بحُسنه وربما يزيدونه توجيهًا وتقريرًا. ولكون الفلاكة غطاء وسِترًا على المحاسن تجد الشهرةَ والصيتَ والسمعةَ يقعن في غير موقعها غالبًا، فرُبَّ شخصٍ مشهور بالعلم أو الصلاح وليس هناك، ورُبَّ شخصٍ قعدت عنه الشهرةُ وهو أحقُّ بها؛ وذلك لأن الفلاكة متى زالت عن شخص تُزُلِّف إليه بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه وحُمِّل كلامُه وفعلُه من المحاسنِ والمقاصدِ الجميلة فوقَ طاقته، وتناقلته الألسنةُ تزلُّفًا إليه؛ لما يعلمون من أن النفوس مجبولةٌ على حب الثناء، ووقعت المحاباة والإغماض عن أحواله المدخولة وأُفرغتْ في قوالبَ جميلةٍ بالتأويل والاعتذار وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنّع، فيطير ذكرُه في الآفاق وتسيرُ به الركبانُ ويجيء الصيت والشهرة وليس هناك. وعلى الجملة فالشهرةُ إنما تقع في غير موقعها من جهةِ ما يطرق الأخبارَ من التزلُّفِ بالثناءِ الكاذبِ أو ما يطرق الأحوالَ من الخفاء وعدم تطبيقها على الواقع لخفائها بالتلبس والتصنّع فتنتشر على خلاف ما هي عليه. وأنت خبيرٌ بأن التزلُّفَ بالثناءِ إنما يكون للأغنياء أو من في معناهم، وأن الإغماض عن التلبس والتصنع وعدم [كشف].(83) الغطاء عنه إنما يكون لهم أيضًا واعتبر العكس بالعكس.

80). الإسنوي: (704 -772هـ) جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسين بن علي بن عمر... الإسنوي، الشافعي، نزيل القاهرة، مؤرّخ، مفسّر، فقيه، أصوليّ، عالم بالعربيّة والعروض. و (الطبقات) المشار إليه هو كتابه (طبقات الفقهاء).

81). فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الرازي، المعروف بفخر الدين الرازي (ت 606هـ) هو إمام مفسر شافعي، عالم موسوعي. من تصانيفه: التفسير الكبير الذي سماه «مفاتيح الغيب»، وله «المحصول» في علم الأصول ، و«المطالب العالية» في علم الكلام و«نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز» في البلاغة.. وغيرها.

82). الزمخشري: (467 -538هـ) هو أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر بن محمد... مفسّر، محدّث، متكلّم، نحوي، لغوي، بياني، أديب. من تصانيفه: الفائق في غريب الحديث، والمفصل في صنعة الإعراب، والكشّاف عن حقائق التنزيل. [معجم المؤلفين 12/168].

83). زيادة في (ط).

ومنها أن الفلاكة مهما استولت على عالم أو فاضل أو نبيه لزمه بسببها آلامٌ عقليةٌ، ولا شك أن الألمَ العقليَّ أقوى من الألم الجسماني؛ ولذلك يكون التعب القلبي أشدّ إنهاكًا للبدن من التعب الجسماني؛ ولذلك يتحمل عظيمَ المشاقِّ البدنية خوفًا من العتبِ والتوبيخ والملامَةِ والتقريع، كما أن

اللذة العقلية أقوى من اللذة الجسمانية، والدليل على ذلك من ثلاثة أوجه: أولها- أن اللذةَ عبارةٌ عن إدراك الملائم، وكلما كان الإدراك أشدَّ والمدرَكُ أشرفَ كانت اللذةُ أتمَّ، لكن الإدراكَ العقليَّ أقوى من الجسميِّ لأنه ينفذ في باطن الشيء، فيميز بين الماهية وأجزائها وعوارضها وجنسها وفضلها، وأما الحسيُّ فلا شعورَ له إلا بظاهر المحسوس وسطوحه، ومُدْرَكُ العقل أشرفُ وهو الله تعالى وصفاته وملائكته وكيفية وَضْعِ العالم، ومُدْرَكُ الحسِّ السطوحُ وعوارضُه، وإذا كان كذلك وجب كونُ اللذةِ العقليةِ أقوَى من اللذةِ الجسمانيَّةِ. وثانيها- أنَّا نعلم بالضرورة أن أحوالَ الملائكة أطيبُ من أحوال البهائم، وليس للملائكة شيء من اللذات الحسية، فلولا أن اللذة العقلية أطيبُ وإلا لكان حال البهائم أطيبَ من حال الملائكة. وثالثها- الحيوان قد يرجِّح غيرَه على نفسِه في المطعوم والمشروب عند حاجته إليه، ولولا أن لذة الإيثار أقوى من لذة المطعوم والمشروب وإلا لما كان ذلك، بل الشجاع قد يلقي نفسه في المعركة مع ظن الهلاك أو يقينه وما ذلك إلا لأن لذة الحمد أقوى من لذة الحياة. وإذا ثبت ذلك في اللذة ثبت مثلُه في الألم العقليِّ والجسمانيِّ، لأن نسبة هذا الألم إلى الألم الجسماني كنسبة اللذة العقلية إلى اللذة الجسمانية، وكلام الفلاسفة وابن سينا طافحٌ بأن الألم العقلي أقوى من الألم الجسماني.

إذا تقرر ذلك كله فللمفلوكين من أهل العقل والفضل والنباهة آلامٌ عقليةٌ تلزمهم: أولاها تشوُّفهم وتشوُّقهم إلى المكارم والمعالي ومد أعناقهم نحوها، ولا شك أن الشوق إلى المشوق مع عدمه وعدم التمكن من تحصيله وعدم الاشتغال بما يلهي عنه عذاب مذاب؛ ولذلك لا يبتهجون بالأعياد والمواسم، بل تكون زيادةً في كَمَدِهم ونكدِهم، وستأتي أشعارهم في تشوقهم إلى المعالي وتألّمهم على فقدها في الفصل الثاني عشر إن شاءَ الله تعالى. وثانيها تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحيانًا بحكم البشرية لما رَكَّبَ الله تعالى في البشر من القوة الشهوانية والغضبية والمتوهّمة اللواتي هي أصول الفساد وهي المشار إليها في قوله تعالى ﴿ إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ [المرسلات: 30] في أحد الأقوال، ولما أن للقلب ميلًا إلى الأخلاق السَّبْعِيَّةِ والبهيميَّةِ والشيطانيَّة على ما هو مقرر في كتب الصوفية، ولما رُكِّبِ أيضًا في الجسم من التسفُّل، ولما جُعل من أن الفساد أدخلُ تحت القدرة [من].(84) الصلاح كالبناء والهدم. ولا شكَّ أن إطلاق النفس وطبيعتها ترويح لها وتنفيس من ألم ضبطها وحينئذ فيكون الترويح والتنفيس بالنسبة إلى المفاليك ناقصًا

مخدّجًا[85] لما فيه من ترقّب التنقيص به، ويكون أيضًا عسير الانتظام نادر الوقوع لذلك، وقد أحسن من قال[86]:

84) .في خ: (في)
85) . هو مِن أخدجتِ الناقةُ: جاءت بولد ناقص وإن كانت أيامه تامة، ويقال: رجل مخدَّج اليد ناقصها
86) .البيت لمهيار الديلمي (ت 428 هـ -1037 م) مهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي ويروى (الرأس) بدل (المجد)

إمّا ذُنابى[87] ولا تعباً بمنقصَـــة

87) . جاء في لسان العرب: الذُّنابَى ذنبُ الطَّائر ، وقيل: الذُّنابَى مَنْبِتُ الذَّنَبِ . ويقال: هم ذُنَابَى فلان: أَتباعه

أو ذروة المجد واحذرْ أن تقع وسطا

وأشد من ذلك ألمًا وأعظم مصيبةً إضافةُ النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها برآء، [ولقد عَرَى أهلَ الفضل من ذلك شدائدُ][88]. كان الزمخشري (ت: 538هـ) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ساقط إحدى الرجلين، وكان يمشي في حاوب[89] من خشب لسقوطها بالثلج في بعض أسفاره في بلاد خوارزم، فكتب معه محضرًا فيه شهادة خلق كثير لئلا يُرمى بنقيصة السرقة. وكان ابن فضلان[90] (ت: 595هـ) أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل البغدادي، الملقب جمال الدين، الإمام في الأصول والخلاف والجدل، الرئيس الوجيه، ذاهبَ إحدى اليدين؛ لأنه لما خرج من نيسابور سقط عن دابته ففسدت يده، وأدت الحال إلى قطعها فعمل محضرًا بذلك خوفاً من التهمة بالقبيح، ومع ذلك كان يجري بينه وبين المجير البغدادي[91] .مناظرات فيشنع هو على المجير بالفلسفة والمجير يشنع عليه بقطع يده

88) .ما بين قوسين ورد في خ هكذا: (ولقد عار أهل الفضل من ذلك شديدًا)
89) . كذا في خ وفي ط (حلوب) ولم أستدل على معناها ولعلها تعني عكازًا من خشب أو شيئًا من هذا القبيل
90) ابن فضلان: (517 -595هـ) أبو القاسم يحيى الواثق بن علي بن الفضل بن هبة الله بن بركة البغدادي. برع في الفقه .والمناظرة، وكان حسن العبارة، وقد جرت بينه وبين المجير مناظرات عنيفة. [سير أعلام النبلاء 15/420، 421]
91) المجير البغدادي: (517 -592هـ) أبو القاسم مجير الدين محمود بن المبارك بن علي بن المبارك. برع في الفقه والكلام .والأصول، كما اشتغل سرًّا بالمنطق، وكان كثير المناظرة لابن فضلان. [السّير للذهبي]

والسبب في تخصيص أهل الفضل بإذاعة نقائصهم وعدم إقالتهم إياها محققة والتلبيس والافتراء عليهم مهما كانت موهومة محتملة أن النفوس مجبولة على المساماة[92] والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقًا عليها، فهما وجدت سبيلًا للتَنقيص من كمال الكامل ولو تلبيسًا مقبولًا سلكته تنقيصًا للكمال وطلبًا للمساواة بحسب الإمكان بخلاف الناقص في نفسه، [فإنه لا حاجة إلى تنقيصه][93]. وثالثها ألم الانفراد، مع [ما][94] أن الإنسان مدني بالطبع لا يمكنه أن يستقل بنفسه منفردًا

عن الغير، بحيث لا يستعين بأحد في حاجاته وضروراته بل [لا].(95) قِوامَ لأحواله إلا بالتعاون، حتى أن الرغيف من الخبز لا يصير رغيفًا إلا بآلات وأعمال تفتقر إلى صناع كثيرين كثرة بالغة. والمدينة في اصطلاح الحكماء هي الاجتماع؛ و[لما].(96) أنّ الإنسان مدني بالطبع في أحواله الكمالية والمصلحية فلا يمكنه أن يستقل بنفسه منفردًا عن الغير بحيث لا يستعين بأحد في أموره الكمالية والمصلحية، والوجدان والتجربة أصدق شاهد في ذلك، والمناسبة والإخالة تصحّح القياس والإلحاق، والمفاليك يلزمهم الانفراد لزومًا لا انفكاك لهم عنه. والسبب في ذلك أن الناس - بالإضافة إلى المفلوك - أربعة أقسام: مساوٍ له في الفلاكة، أكثر منه فلاكة، أعلى منه بقليل، أعلى منه مطلقًا. ووجه الحصر أن المأخوذ بالإضافة إلى المفلوك إما مفلوك أو غير مفلوك، والأول إما مساوٍ أو أنْزَلُ، والثاني إما أعلى بقليل أو أعلى مطلقًا. إذا تقرر ذلك فالقسمان الأولان لا فائدة في الاجتماع بهما لأن حكمة التمدن مفقودة فيهما، وغاية الاجتماع بهما تضاعفُ الفلاكةِ وتكاثفُها وتغليظُ الحجاب الحاجب عن المقاصد، كانضمام ظلمةٍ إلى أخرى وكغسل العَذِرَة بالبول. والقسم الأخير يمنع من الاجتماع به أمورٌ أعظمُها أن العظماءَ والنبلاءَ يحرصون على سد الذرائع في أطماع المفلوكين في جانبهم بتبعيدهم والإعراض عنهم خشيةً من تثقيلهم بحوائجهم، وأن يكونوا كَلًّا عليهم، وأنهم يتأنفون المفاليكَ ويستقذرونهم ويستثقلون ظِلَّهم، ويتوقعون من تقريبهم مفاسدَ وضوحُها يُغني عن بسطها، ويتوهمون في بعضِهم حَسَدًا وتملُّقًا كاذِبًا صاخيًا.(97) من غير إخلاص ولا مناصحة. والقسم الثالث يمنع من الاجتماعِ بهم أمورٌ كثيرةٌ أعظمُها عدم تعلق الرجاء والخوف بالمفاليك الذي هو داعية الاجتماع غالبًا، وشغل هذا القسم بالمساوين لهم في النباهة بحيث لا يفضلون الاجتماع بالمفاليك غالبًا وعدم حرص المفاليك على استمالتهم واستعطافهم لضعف الرجاء فيهم. ولكن هذا القسم أقل مانعًا من القسم الأخير؛ ولذلك ربما نال بعضُ المفاليك حظًّا من الاجتماع بهم. ومنها ولوعهم بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من العذاب المذاب بشهادة قوله صلى الله عليه وسلم: «السفر قطعة من العذاب».(98) ولقد صرح بتعليل السفر بالفلاكة من قال.(99):

.في (خ): (المساواة) .(92)
.زيادة من (ط) .(93)
.زيادة ضرورية .(94)
.في (خ): (كما) .(95)
.في القاموس: صَخِيَ الثوبُ يصخَى كرضي: اتسخ ودرن، و منه يفهم المراد .(96)

97) في القاموس: صَخِيَ الثوبَ يصخَى كرضي: اتسخ ودرن، و منه يفهم المراد.
98) السفر هذه الجملة قطعة من حديث صحيح أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله».
99) هو إياس بن القائف، وبعد هذا البيت:
فَأَكْرِمْ أَخاكَ الدَّهرَ ما عِشْتُما معًا
كَفَى بالمَماتِ فُرْقَةً وتَنائِيا

يقيم الرجالُ الأغنياءُ بأرضِهم
وترمي النّوى بالمُقْتِرِيــن المَرامِيَا

والسبب في ذلك يفتقر بيانه إلى مقدمة، وهي أن الظن أقوى من الشك، والعلم أقوى من الظن، ورُتَبُ الظنون متفاوتةٌ في نفسها جلاءً وخفاءً وأجلى لقوة مستند الظن وضعفه، وكذلك رتب العلوم متفاوتة في المعلومية، فكم بين المشاهدات وبين كل قضية صَدَقَ العقلُ بها بواسطة الحس ،كعلمنا بحرارة النار وبرودة الثلج، وبين الحدسيَّات، وهي كل قضية يصدق العقل بها بواسطة الحدس، كالعلم بحكمة الصانع عند رؤية العالم على غاية الإتقان من التفاوت وإن كان كلٌّ من المشاهدات والحدسيات مفيدًا للعلم؛ ولذلك لم ينكر العلمَ المستفادَ من الحسِّ إلا السوفسطائيةُ، وكم بين العقلاء من الاختلاف في الحدسيَّاتِ اختلافًا قويًّا وضعيفًا؛ ولذلك أيضًا فرَّقوا بين علم اليقين وعين اليقين. ومن هنا ينكشف لك مادة الجواب عن قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة: 260] ثم الإنسان متشوِّف إلى مصلحته، فإذا تعارض عنده في تحصيل مصلحته طريقان أحدهما مظنونٌ والآخر مشكوكٌ فيه، أو أحدهما أجلى في الظن من الآخر، أو أحدهما أقوى في المعلومِيَّة من الآخر فالعمل بهما معًا جمعٌ للنقيضين وتركهما معًا رفعٌ للنقيضين وكلاهما محال، والعمل بالمرجوح وترك الراجح خلافُ صريح العقل، فيتعين العمل بالراجح إذا تقرر ذلك. فالسبب في كثرة تنقلات المفلوكين في الأرض أنه متى استولت الفلاكةُ على شخص في بلد واضطرب في أرجائها وتلكَّع في طُرِق معاشها وذاق طبائعَ أهلها ورَازَ(100) شهامتهم وعصبيتهم وارتياحهم إلى المحامد وأريحيتهم، وامتحن قوته في التسلق إلى مطالبه، وأبت تلك البلد عليه إلا نَبْوًا ودَفْعًا وممانعة عن المطلوب، ومَلَّ وجوهًا لا خيرَ فيها، ومَجَّ سمعُه كلامًا لا محصَّل له، وقذفهم بقلبه فقذفوه بقلوبهم بل وبظواهرهم، فحينئذ يظنُّ أو يعلمُ أن تأتِّيَ المصلحة في ذلك البلد مستحيلٌ أو متعسِّرٌ، والبلد الثاني ظن الخيرَ قائمٌ به لا سيما فيمن يتوهَّم في نفسه استعدادًا لإفاضة الخير عليه فيجب حينئذ السفر إلى البلد الثاني. والأقيسة العقلية

وإن اقتضت استمرار الفلاكة في البلد الثاني من جهة أن موجِبات الفلاكة القائمة بالمفلوك مصاحبةٌ له سفراً وحضراً، وكذلك موجبات فلاكته القائمة بالناس موجودة فيهم في كل بلد لكن الأدلة متعارضة في البلد الثاني والعلمُ المستفادُ بالتجربة في البلد الأول مفقودٌ في البلد الثاني، والاحتمالات مقتضية للاضطراب، وليس الخبر كالعيان، ولا الشر الحاصل المحسوس كالشر المترقَّب المعقول، وإن كانا معلومين؛ ولذلك من قصده شخص بسيف مُصلَّت يريد قتله وهو على سطحٍ عالٍ يرمي بنفسه منه إلى الأرض وإن كان ذلك أحد الطريقين في هلاكه. وربما صار السفرُ للمفلوك طبيعياً لكثرة ما يعاني من الشدائد والمشاق كمن وقع في ماء أو نار فإنه بطبعه يأخذ إلى محيط النار وساحل الماء. وإذا اتضح عندك ما قررناه وقفت على الحكمة في تمني المفلوكين تغيُّر الدول وتشوُّفهم إلى ذلك؛ فإن الدولة الحاضرة كالبلد الأول والدولة المتمنَّاة كالبلد الثاني، وقوة الرجاء وقيام احتمال الخير المتعلق بالدولة الثانية حكمُه حكمُ البلد الثاني، وقد أشار إلى ذلك من قال:

100) راز: جرَّب واختبر.

إذا لم يكنْ للمرء في دولة اِمــرئ
نصيبٌ من الدنيا تمنَّى زوالهـــــا

ومنها تعلقهم بالأسباب المستحيلة كالنجوم والكيمياء والمطالب والحرف الهوائية الضعيفة الصدفية، كصناعة الشهود لغير المعروف، والدلالة لغير المشهود؛ والسبب في ذلك أنه إذا أخفقت مساعي المفاليك وعجزوا عن المعاش الطبيعي والتعلق بالأسباب المقيسة المطردة، ودهشوا وتحيروا وعميت عليهم الأنباءُ، وتعلقت نفوسُهم بالدنيا ولذَّاتها تمنوا الأمانيَّ وقنعوا بمخادعةِ الإملاق بالمواعيد الكاذبة، واستنشقوا الغِنى من حيث لا تهب ريحُه، وأتوا السعادة من غير أبوابها. وأنا أبين وجه استحالة الأسباب الأول وهي الكيمياء والنجوم والمطالب واستحالة إفضاء التعلق بالسبب الآخر إلى المطلوب. فأما النجوم فنقول: ليس البحث في تأثير شعاع الكواكب في التسخين عند المسامتة أو التبريد عند الانحراف عن المسامتة، ولا في وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه، ولا فيما يجري مجرى التأثير الطبيعي على حسب ما نصَّه سبحانه وله الحمد، مثل أن النبات ينمو ويقوى ويشتد ويتكامل وينضج ثمرُه بالشمس والقمر، كما في امتداد القثاء وطوله وغِلظه بالقمر، وسرعة نضج التين وإدراكه بمقابلة الشمس وبقائه فجًّا

بطيء الإدراك بخفائه عن الشمس، ومثل أن البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤوسنا، وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤوسنا، وكذلك ليس البحث في أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان ناطقَه وبهيمتَه يخرج من أماكنه وأكنَّتِه وتظهر القوةُ والحركةُ فيهم، وتزداد قوة الحيوان مع ازدياد صعود الشمس في الربع الشرقي، وتنقص وتضعف قوة الحيوان وتفتُر مع ميل الشمس عن وسط السماء، ولا في ارتباط فصول العام الأربعة بحركات الشمس، ولا في انفتاح اللينوفر وورق الخطمي وتحركه بطلوع الشمس وضعفه إذا غابت عنه. ولا في المد الحاصل في بحر فارس والهند إذا بلغ القمر مشرقًا من مشارق البحر إلى أن يصير القمر إلى وسط سماء ذلك الموضع، ولا في الجَزْر الحاصل في البحرين المذكورين، ولا في تأثير الشمس والقمر حرارةً ورطوبةً وبرودةً ويبوسةً وتوابعها في هذا العالم من الحيوان والنبات بواسطة الهواء وقبوله للسخونة والحرارة بانعكاس شعاع الشمس مثلًا عليه عند مقابلتها لجرم الأرض واختلاف حال الهواء بذلك واختلاف أحوال الأبخرة في تكاثفها وبردها ولطفها وحرها، ولا في أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء إلى محاذاة ممرّ رأس السرطان وكانت الشمس تمر على رؤوسهم في السنة إما مرة أو مرتين تَسوَّدَتْ أبدانُهم وجَعدَت شعورُهم وقلَّت رطوباتهم فساءَت أخلاقهم وضعفت عقولهم. ولا في أهل الهند واليمن وبعض أهل المغرب لما كانت مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممر السرطان كان السوادُ فيهم أقلَّ وطبائعُهم أعدلَ وأخلاقُهم أحسنَ وأجسامُهم أنصعَ، ولا في أهل العراق والشام وخراسان وفارس والصين لما كانت مساكنهم على ممر رأس السرطان إلى محاذاة بنات نعش الكبرى(101) والشمس لا تُسامت(102) رؤوسهم ولا تبعد عنهم بعدًا كثيرًا وأن لذلك لم يعرض لهم حر شديد ولا برد شديد كانت ألوانهم متوسطة وأجسامهم معتدلة وأخلاقهم فاضلة، ولا في أن هؤلاء مختلفون بحسب اختلاف ذلك، فمن كان من هؤلاء أميل إلى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء والفهم، ومن كان منهم يميل إلى ناحية المشرق فهم أقوى نفوسًا وأشد ذكورة ،ومن كان يميل إلى ناحية الغرب غلب عليهم اللين والرزانة. ولا في أن الترك والصقالبة لما كانت مساكنهم محاذية لبنات نعش والشمس بعيدة عن مساكنهم كان البرد غالبًا عليهم والرطوبة مستولية عليهم؛ لأنه ليس هناك من الحرارة ما ينشفها؛ وكان لذلك ألوانهم بيضاء وشعورهم سَبْطَةً شقراء وأبدانهم رَخْصَةً(103) وطبائعهم مائلة إلى البرودة وأذهانهم جامدة. ولا في أن الأخلاط التي في بدن الإنسان تزيد ما دام القمر آخذًا في الزيادة، ويكون ظاهر البدن أكثر

رطوبة وحسنًا، فإذا نقص ضوء القمر صارت هذه الأخلاط في غور البدن والعروق وازداد ظاهر البدن يبسًا. ولا في ازدياد ألبان الحيوانات بتزايد القمر أول الشهر إلى نصفه وتناقصها مع نقصانه. ولا في أدمغة الحيوان وأمقال البيض التي تزيد أول الشهر وتنقص آخره. ولا في أن الإنسان إذا نام أو قعد في ضوء القمر حدث في بدنه الاسترخاء والكسل وهاج عليه الزكام والصداع. ولا في بِلى الكتّان وفساد اللحم وتغير طعمه بانكشافه لضوء القمر. ولا في كثرة الأسماك في البحر وسِمنها أول الشهر وقلتها وضعفها آخره. ولا في قبول الرياض والأشجار للنمو والنشوء إذا غرست أول الشهر وعدم قبولها لذلك إذا غرست آخره.

(101) بنات نعش الكبرى: بنات نعش الكبرى وبنات نعش الصغرى هذا ما يطلقه العرب على نجمي الدب الأكبر والدب الأصغر.

(102) تسامت: تقابل وتوازي وتواجه.

(103) سبطة: سهل ومسترسل. ورخصة: لينة ناعمة.

إنما البحث في أن النجوم تؤثر في جملة الحوادث السفلية من السعادة والشقاوة والذكاء والبلادة والحسن والقبح والخديعة والمكر والنذالة والشهامة والشجاعة والجبن والأشكال والمقادير ونحوها، وأن ذلك كله باتصالات الكواكب وانفصالاتها ومسامتتها ومباينتها، فإن هذا مما لا برهان عليه لا بخبرِ مَنْ لا يجوز الكذب عليه ولا بضرورة العقل ولا بنظره، وغايته حدسٌ وتخمينٌ وظنونٌ كاذبةٌ ورزق(104) وتفرُّس وحيلةٌ وخديعةٌ، حتى إن من لا يتقيد بالشريعة كابن سينا والفارابي بالغَا في الرد على الأحكاميين والنجوميين، وأطال في ذلك ابن سينا في آخر الشفاء. وحتى إن أبا معشر وهو من أئمتهم اعترف بأنه تخمين، فإنه قال معتذرًا: كلُّ الأعراض الغائبة توهّم لا يكون شيء منها يقينًا، وإنما يكون توهّم أقوى من توهم. وانظر ما كان أقوى تعلّق بني بَرْمك(105) بالنجوم حتى في ساعات أكلهم وركوبهم وعامة أفعالهم وكيف كانت نكبتهم الشنيعة. وانظر حال علي بن مقلة الوزير(106) وتعظيمَه لعلم أحكام النجوم ودخوله داره على طالع سعيد فنُكب فيها أشدَّ نكبةٍ وقُطعت يدُه ولسانُه. والدليل على بطلان ذلك أنَّا نشاهد عالمًا كثيرًا يقتلون في ساعة واحدة في حرب، وخلقًا يغرقون في ساعة واحدة مع القطع باختلاف طوالعهم واقتضائها عندهم أحوالًا مختلفة. ولو كان للطوالع تأثير في هذا لامتنع عند اختلافها الاشتراك في ذلك، ولا ينفعهم الجواب بأن طالع الوقت قد يكون أقوى من طالع الأصل فيكون الحكم له؛ لأنا نقول هذا بعينه يبطل [الجزم](107) بطالع المولود، ويحيل القول بتأثيره. فلعل طوالع الأحوال المتجددة

أقوى من طالع الأصل فيرتفع الوثوق بطالع الأصل، إذْ لا أمان لاقتضاء الطوالع بعده ضد ما اقتضاه، وحينئذ فلا يفيد اعتباره شيئًا. وأيضًا فإنه لو كان طبيعيًّا وذاتيًّا لما اختلف والتالي باطل فالمقدم مثله، أما الملازمة فظاهرة، وأما بطلان التالي فإن المنجمين قلما يُجمعون على شيء ويكون كذلك. فمن ذلك اتفاق حُذَّاقهم سنة سبعٍ وثلاثين عام صِفِّين في مخرج علي رضي الله عنه من الكوفة إلى محاربة أهل الشام على أنه يُقْتَلُ ويُقهر جيشُه، فظهر كذبُهم وانتصر جيشُه على أهل الشام، ولم يقدروا على التخلص منهم إلا بالحيلة التي وضعوها من نشر المصاحف على الرماح والدعاء إلى ما فيها. ومن ذلك اتفاقهم عندما تم بناء بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقتضي أنه لا يموت فيها خليفة، وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصورَ، حيث قال بعض شعرائه:

.في ط (تزوق) وما أثبتناه نقلًا عن (خ) هو الأصوب، ويعني أنه طريقه لكسب المال من المخدوعين بهذه الأقوال (104)
بنو برمك، أو البرامكة: أسرة فارسية مشهورة في تاريخ العبّاسيين، ينتسبون إلى جدّهم الذي كان سادِنا لأحد معابد النار عند المجوس، ولقبه (بَرْمَك)، وقد عمل أبناؤه الحسن وسليمان وخالد في خدمة العبّاسيين ابتداءً من ظهور دعوتهم ومحاربتهم للأمويّين. واشتهر منهم يحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر، واجتمع الثلاثة –مع أفراد من أسرتهم وأتباعهم – في خدمة الخليفة العبّاسي هارون الرشيد الذي بسط نفوذهم في كلّ أرجاء دولته ثم عاد فنكبهم في سنة 187هـ واستمرّ حتى قضى عليهم. (105)
عليّ بن مقلة الوزير، صوابُه: أبو علي محمد بن الحسن بن مقلة (272 -328هـ) صاحب الخط المشهور المنسوب إليه، أديب شاعر، حسن الخطّ. ولِيَ الوزارة أكثر من مرة لأكثر من خليفة عباسي وتعرّض أكثر من مرة للضرب والتعذيب، وانتهت حياته في السجن بعد أن قُطعت يده اليمنى ثم لسانه. كما سيأتي في ترجمة المؤلف له. (106)
.في (خ): (النجوم) (107)

يَهْنِيكَ منها بلدةٌ تقضي لنـــا
أنَّ المماتَ بها عليك حـــرامُ(108)

.لم أعثر على قائلهما (108)

لما قَضَتْ أحكامُ طالع وقتِها
أن لا يُرى فيها يموت إمـــامُ

وأكد هذا الهذيانَ في نفوس العوام موْتُ المنصور بطريق مكة، ثم المهديُّ بماسدان، ثم الهادي بعيساباد، ثم الرشيد بطوس، فلما قُتل بها الأمينُ بشارع باب الأنبار انخرم هذا الأصل حتى رجع القائل الأول فقال:

كَذَبَ المنجِّمُ في مقالته التي
نطقت على بغداد بالهذَيـــانِ

قَتْلُ الأمينِ بها لعَمْرِي يقتضي

تكذيبَهم في سائرِ الحسبـــانِ

ثم مات ببغدادَ جماعةٌ من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفي والناصر وغير هؤلاء. ومن ذلك اتفاقهم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين في قصة عمورية على أن المعتصم(109) إن خرج لفتحها كانت عليه الدائرةُ وأن النصر لعدوِّه، فخرجَ ففتحَ عموريةَ وما والاها من كل حِصنٍ وقلعة، وفي ذلك الفتح قام أبو تمام الطائي مُنشداً:

(109) المعتصم: هو الخليفة العبّاسي أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ولي الخلافة سنة 218هـ بعد أخيه عبد الله المأمون، وتوفي سنة 227هـ. أما عموريّة: فهي إحدى مدن الرّوم افتتحها المعتصم وأحرقها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة في رمضان سنة 223هـ وذلك ردًّا على اعتداء الروم على (زبطرة) إحدى المدن الإسلامية، وهي أقرب الثغور الإسلامية إلى أراضي الدولة البيزنطية. وقد مدح الشعراء، وعلى رأسهم أبو تمام، المعتصم ونوهوا بانتصاره وفتحه لعموريّة.

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُـبِ

في حدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعــبِ

بيضُ الصَّفائحِ لَا سودُ الصَّحائفِ في

مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشَّك والريَـــــبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَـــةً

بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لافي السَّبْعَةِ الشُّهُــبِ

أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُـــومُ وَمَا

صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَـذِبِ

تخرُّصًا وأحاديثًا ملفَّقــــــةً

لَيْسَتْ بِنَبْعٍ(110) إِذَا عُدَّتْ ولا غَـــرَبِ

(110) النبع: شجر تعمل منه القسي والسهام والغرب بالتحريك شجر أيضًا.

وهي نحو من سبعين بيتًا أجيز على كل بيت منها بألف درهم. ومن ذلك اتفاقهم وفيهم زعيمهم أبو الحسن العاصمي على أن المكتفي بالله(111) إن خرج لقتال القرامطة لم يرجع وتزول دولتُه وإنَّ طالعَ مولدِه يقتضي ذلك، وأخافوا وزيرَه القاسمَ بنَ عبيدِ الله من الخروج معه فخرج إليهم المكتفي وأخذهم جميعًا، ولما عاد وزيره القاسم أمر بإحضار رئيس المنجمين وصَفَعَه صَفْعًا عظيمًا. ومن ذلك اتفاقهم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة عندما أراد القائدُ جوهرٌ بناءَ مدينة

القاهرة المعزيّة، وقد كان سبق مولاه الملقبَ بالمعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لمّا أمره ببنائها، وأن يكون نجوم طالعها في غاية الاستقامة، ويكون بطالع الكواكب القاهرُ وهو زُحل أو المريخُ، ولذلك سُمِّيت القاهرة، فجمع القائد جوهر المنجمين فحققوا الرصد وأمر البنائين أن لا يضعوا الأساس حتى يُقال لهم ضعوه، وأن يكونوا على نهايةٍ من التيقظ والإسراع، فوضعت على ذلك الإتقان، واتفقوا على أن الدولة الفاطمية لا تخرج الدولةُ عنهم، فلما استولى عليها صلاحُ الدين يوسفُ بن أيوب وكان المصريون قائمين بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف توهَّم الجهالُ أنَّ ما قاله المنجِّمون حقٌّ، فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بني العباس ظهر كَذِبُهم. وكانت المدة بين وضع الأساس وانقراض الدولة نحوًا من مائةٍ وثلاثة وتسعين عامًا، واعتذار من اعتذر عنهم بسبق البنائين الأرصاد بعيد لأن تبديل البناء وتغييره مع الاحتياط للدولة مع سهولة التغيير مما لا يتسامح به. ومن ذلك اتفاقهم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم(112) على أنها السنة التي تنقضي فيها بمصر دولة العبيديين، وذلك عند خروج الوليد بن هشام المعروف بأبي ركوة الأموي، وحكم الطالع له بأنه هو القاطع لدولة العبيديين، وأنه لا بد أن يستولي على الديار المصرية، ويأخذ الحاكمَ أسيرًا. ولم يبق بمصر منجم إلا حكم بذلك وأكبرهم المعروف بالفكري منجم الحاكم، فكان أبو ركوة قد ملك برقة وأعمالها وكان من تدبير الحاكم أن دعا خواصهم وأمرهم أن يُكاتبوا أبا ركوة ويُطمعوه باختياره على الحاكم(113) ففعلوا، فزحف أبو ركوة بعساكره حتى نزل بـ(وَسِيم).(114) على ثلاثة فراسخ من مصر، فخرجت إليه العساكر الحاكمية فهزمته فتحقق أنها خديعة، فهرب وقُتل خلقٌ كثيرٌ من عسكره وطلب فأُخذ أسيرًا ودُخل به إلى القاهرة على جمل مشهورًا ثم أمر الحاكم بقتله سنة 397هـ وأمر الحاكم بالفكري فقُتل. والسبب في استمالة الفكري للحاكم أن الفكري أصاب معه في قضيتين، إحداهما أن الحاكم عزم على إرسال أسطول إلى مدينة صور لمحاربتهم فسأله الفكريُّ أن يكون تدبيره إليه ليُخرجه في طالع يختاره وتكون العهدة إن لم يظفر عليه، واتفق ظهور الأسطول. الثانية أنه ذكر له أن بساحل بركة موريس (رئيس) مسجدًا وأن تحته كنزًا، وسأله أن يتولى هو هدمه فإن ظهر الكنزُ وإلا بناه هو من ماله، فاتفق إصابة الكنز. ولما حكم عليه الفكري بتغيير دولته وقضى المنجمون بمثل قضائه، وقع في نفس الحاكم أن يغير دولته تغييرًا معنويًّا، فعمد إلى كل متولٍّ في دولته ولاية فعزله منها، وقتل وزيره الحسن بن عماد، وصار يأمر في يومه بخلاف ما يأمر به في أمسه، فأمر بسب الصحابة رضي الله عنهم على رؤوس المنابر

والمساجد ثم أمر بقطع سبّهم وعقوبة من سبّهم وأمر بقطع شجرة الزّرَجُون.(115) من الأرض، وأوجب القتل على من شرب الخمر، ثم أمر بغرس هذه الشجرة وأباح شرب الخمر، وأهمل الناسَ حتى نُهب الجانبُ الغربيُّ من القاهرة وقُتلت فيه جماعةٌ، ثم ضَبَطَ الأمرَ حتى أمرَ أنْ لا تُغلق الحوانيتُ ليلًا ولا نهارًا وأمر مناديًا ينادي مَنْ عُدم له ما يساوي درهمًا أخذه من بيت المال درهمين بعد أن يحلفَ على عَدَمِه أو يعضِّده بشهادة رجلين؛ حتى تحيَّل الناس في ستر حوانيتهم بالجريد لئلا تدخل الكلاب. ثم لما قُتل الفكريُّ لم يزل أثرُ التنجيم في نفسه لتشوُّف النفس إلى التطلع إلى الحوادث قبل وقوعها، فجمع المنجمين جمعًا ثانيًا بعد أن جمعهم أولًا وعملوا له الرصد الحاكمي الذي خالف فيه الرصد المأموني فألزموه فيما ألزموه بركوب الحمار وأن يتعاهد الجبلَ المقطمَ في أكثر الأيام وينفردَ وحدَه يخاطبُ زُحلَ. وحكموا بأنه ما دام كذلك كان سالم النفس، فلزم ما أشاروا عليه به، فخرج بحماره إلى ذلك الجبل على عادته وانفرد بنفسه لكوكبه وقد استعد له قوم بسكاكين فقطعوه هناك، وأعدموا جثته فلم يعلم له خبر. فمن هنا تقوّل أتباعه الملاحدة أنه غائب منتظر. ومن ذلك اتفاقهم سنة 482 هـ على خروج ريح سوداء تكون في سائر الأقطار تُهلك الناسَ إلا من اتخذ لنفسه مغارةً في الجبال بسبب أن الكواكب كانت اجتمعت في برج الميزان وهو برج هوائيّ، كما اجتمعت في برج الحوت زمن نوح عليه الصلاة والسلام، وهو برج مائيّ، فحصل الطوفان فاتخذ الرعاع المغاير(116) استدْفاعًا لما أنذروهم به، فلما جاءَ الوقت الموعود قلَّ هبوبُ الرياح حتى أهم الناسَ ذلك لما هم عليه من الكرب وظهر كذبهم. ومن ذلك اتفاقهم في الدولة الصلاحية على أن الإسكندرية لا يموت فيها والٍ، فلما مات بها الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب سنة 474 هـ ثم واليها فخر الدين قراجا بن عبد الله سنة 489 ثم واليها سعد الدين بن سودكين بن عبد الله سنة 604 انخرمت هذه القاعدة.

(111). المكتفي: هو الخليفة العبّاسي المكتفي بالله علي بن الخليفة أبي العباس أحمد المعتضد بالله. بويع للمكتفي بمدينة السلام سنة 289هـ بعد أبيه المعتضد وتوفّي سنة 295هـ.

أما القرامطة: فهم فرقة من الباطنيّة جمعت في مبادئها أخلاطًا من الضلال والكفر عمادها أفكار المجوس، وكانوا يؤمنون بالنجو والنبوءات التي زعموا أنها تخبر بها ومن بينها أنهم يسيطرون على العالم ويحكمونه في وقت معيّن حدَّدوه في إحدى نبواءتهم بنهاية حكم المعتضد (279 -289هـ) وبداية حكم المكتفي (289 -295هـ) ولكن ما حدث هو أن جيوش المكتفي هزمتهم وقضت على تلك النبوءة الكاذبة.. (وهذا هو موضع استشهاد المؤلف بما وقع بين المكتفي والقرامطة).

(112). الحاكم بأمر الله: سادس الخلفاء الفاطميين، وكان يلقب قبل توليه الخلافة بأبي علي المنصور. ولد سنة 375هـ، وولي الخلافة سنة 386هـ، وعرفت تصرفاته بالشطط والظلم. اختفى سنة 411هـ.

(113). أي تفضيله على الحاكم ورغبتهم فيه.

[114] قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (5/377): وَسِيم: بالفتح ثم الكسر، وميم: كورة في جنوبي مصر، قال البكري: تخرج من الفسطاط وتصير إلى الجيزة وهي في الضفة الغربية من النيل وبقرب الفسطاط على رأس ميل منها قرية يقال لها وسيم.... وهي على ثلاثة فراسخ من مصر.

[115] الزَّرَجُون محركة: الخمر، والكرم، أو قضبانها، وصبغ أحمر ، الواحدة زرجونة.

[116] المَغاير، أو المغائر: جمع مغارة، مثل منارة ومنائر، ومفازة ومفائز.

ومما اتفق عليه المنجمون أن الإنسان إذا أراد أن الله تعالى يستجيب دعاءه جعل الرأس في وسط السماء مع المشتري أو بنظر منه مقبول والقمر متصل به أو منصرف عنه متصل بصاحب الطالع أو صاحب الطالع متصل بالمشتري ناظر إلى الرأس نظر مودة فهناك لا يشكُّون أن الإجابة حاصلة. قالوا: وكانت ملوك اليونان يلزمون ذلك فيحمدون عقباه. والعاقل يعلم أن الله تعالى لا يتأثر بحركات النجوم ولا توجب النجومُ عليه شيئًا.

وأما الكيمياء فلا بحث في إمكانها على يد وليٍّ من قبيل الكرامات وخرق العادات، ولا في الوصول إلى تصحيح صبغها ظاهراً على وجه التلبيس والغش كما يفعله الفساق، إنما البحث في تصيير النحاس ذهباً حقيقة على طريقة صناعية مطردة، فهذا مما لا أعتقد صحته. وقد صنف الشيخ تقيّ الدين بن تيمية[117] رسالة في إنكارها، وكذلك ابن قيم الجوزية[118] كما حكاه هو عن نفسه في كتابه المسمى (مفتاح دار السعادة) واضطرب كلام الفارابي[119] في إمكانها فأثبتها مرة ونفاها أخرى. والشيخ أبو علي بن سينا[120] سلّم إمكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وأن يزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص. قال: وأما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسي فلم يظهر لي إمكانه؛ إذ هذه الأمور المحسوسة تشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصيَّر هذه الأجسام أنواعًا بل هي أعراض ولوازمها وفصولها مجهولة، وإذا كان الشيء مجهولًا كيف يمكن قصد إيجاده أو إفنائه، وللفلاسفة في امتناعها مطلقًا حجج كثيرة، فمن أقواها أن الطبيعة إنما تعمل هذه الأجسام من عناصر مجهولة عندنا ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة أي في نفسها وهي مجهولة عندنا، ولتمام الفعل والانفعال زمان معين هو مجهول عندنا، ومع الجهل لكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الأجسام. ومنها: لو كان الذهب الصناعي مثلًا للذهب الطبيعي لكان [ما][121] بالصناعة مثلًا لما بالطبيعة لكن التالي باطل: أمّا أولًا فلأنّا لم نجد شبهًا، وأما ثانيًا فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة لما حصل بالطبيعة. ولمّا ثبت امتناع التالي ثبت امتناع المقدم. ومنها أن لهذه الأجساد أماكن طبيعية وهي معادنها هي لها بمنزلة الأرحام للحيوان، فمن جوَّز تولدها من غير تلك المعادن كان

كَمَنْ جوّز تولد الحيوان من غير الأرحام. ومنها أن هذه الأجساد متباينة بفصولها النوعية وتلك الفصول مجهولة لنا فلا يمكننا إيجادها ولا إعدامها، وبتقدير أن تكون الفصول معلومة لنا لا يمكننا إزالتها وتحصيلها لأنه لو جاز أن يُجعل نوعٌ نوعًا لجاز أن يجعل الفرسُ حمارًا وبالعكس. ومنها أن الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو متساويين، فإن كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ قبل الصابغ، وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يفنى الصابغ ويبقى المصبوغ على حاله الأول عَرِيًّا عن الصبغ وإن استويا، فكلّما استويا في المصابرة على النار كانا من نوع واحد، فليس أحدهما بالصابغية وآخر بالمصبوغية أولى من العكس. ومنها أن تكوين الذهب الطبيعي إنما يحصل في سنين كثيرة بإنضاج وطبخ من حرارة الأرض على وجه مخصوص بمواد مخصوصة، ومراعاةُ الإنسان النارَ في عمل الذهب على هذا النظام مما لا يفي به علمُ البشر، ثم إذا كان تكوينه بالقدرة القديمة على الوجه الطبيعي إنما يحصل في سنين فكيف يتكون بالقدرة الحادثة في مدة يسيرة؟ قال الطبيعيون: إن الزئبق إذا كَمل نضجُه في الأرض جذبه إليه كبريتُ المعدن فأَجَنَّه وأخفاه في جوفه لئلا يسيل سيلان الرطوبات، فإذا اختلطا واتحدا وذابت الحرارةُ انعقدا عند ذلك ضروباً من المعادن التي يسمونها الفلزات، وهي السبعة الآحاد الذائبة الصابرة على النار المنطرقة. فإن كل الزئبق صافياً والكبريت نقيًّا واختلطت أجزاؤهما على النسبة وكانت حرارةُ المعدن معتدلةً لم يعرض لها عارضٌ من البرد واليُبسِ ولا من المُلوحات والمُرورات والحُموضات انعقد من ذلك على طول الزمان الذهبُ الإبريزُ، وهذا لا يتكون إلا من الأحجار الرخوة والبراري الرملة. وبذلك يتضح عندك أن قوة الإنسان قاصرة عن إيجاد مثل ذلك مادةً وكيفيةً. ويزيد ذلك وضوحًا أن المذكور في كتب الكيمياء إنما هو رموز فلو كان لها حقيقة لصرحوا بها، فقد صرح العلماء بما هو أنفسُ من ذلك وأجلُّ قدرًا مما كان له حقيقة، ولا أقول كحلِّ المشكلات والجمع بين الأحاديث الصحيحة والنكات القرآنية الشريفة لئلا يكون تخليطًا في البحث، فإن البحث إنما هو في الأمور الدنيوية، بل ككتب ابن وحشيّة وغيره في الطّلسمات الصحيحة والفلاحة النافعة وأنواع من السحر هي في بابها كفلق الصبح وفي نفاستها كالكيمياء أو فوقها، فلا يصح التعليل بأنهم إنما كتموها تمويهاً وزَرْفاً[(122)](122) وعجزاً عن تصوير ما لا حقيقةَ له أو توهُّمًا كاذبًا وتخمينًا طمعيًّا، والله أعلم.

[(117)](117) ابن تيميَّة (661 -728): شيخ الإسلام تقيّ الدين أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن عبد الله.. الحرّاني ثم الدمشقي، الحنبلي. من مؤلفاته: مجموع فتاويه، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، منهاج السنّة النبوية في نقض ...

.كلام الشيعة والقدرية [معجم المؤلفين لكحّالة]

[118]) ابن قيم الجوزيّة (691 -751): شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي ثم الحنبلي. فقيه، أصولي مجتهد، مفسّر، نحوي، محدث. من تصانيفه: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، زاد المعاد في هدي خير العباد، تهذيب سنن أبي داود [معجم المؤلفين].

[119]) الفارابي: (260 -339) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، رياضيّ، طبيب، موسيقي متفلسف، لُقّب بالمعلم الثاني، من مؤلفاته: آراء أهل المدينة الفاضلة، المدخل إلى صناعة الموسيقى، إحصاء العلوم. كما لخّص وشرح عددًا من كتب أرسطو التي ترجمت إلى العربيّة.

[120]) ابن سينا: (370 -428) أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ويلقّب بالشيخ الرئيس، فيلسوف، طبيب، شاعر، مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه: القانون في الطبّ، وكتاب الشفاء والقصيدة العينيّة وكتاب الحدود.

[121]) زيادة من (ط).

[122]) زرف في الكلام: زاد فيه، والزَّرافة مثل كَناسة: الكذاب اهـ ومنه يعلم مراد المؤلف.

وأما المطالب فلا بحث في إمكان أن يجد الشخص دفيناً جاهليًّا أو إسلامياً على الاتفاق والصدف،إنما البحث في أنّ تحت الأرض مساكنَ وعماراتٍ مبنية وفيها كنوز وأموال عظيمة وعليها موانع وطلسمات ولتلك الموانع طرق تزول بها وعلى تلك المطالب علامات وأمارات يتوصل بها إلى أمكنتها ويستدل عليها بها، فهذا من مخارق المحتالين وأماني المفلوكين، ولا دليل لهم فيما يروجون كذبهم به من أن في القرون السالفة من كان يعتقد العَوْدَ إلى الدنيا فيدخر ماله لذلك لما سنبينه. والدليل على أنَّ المطالبَ لا حقيقةَ لها وإنما هي من المطامع الفارغة والمخارق والخديعة أنّ ادّخار الأموال العظيمة على هذا الوجه المخصوص إما أن يكون لغرض أو لا لغرض، والغرض إما دنيوي أو أخروي والأقسام الثلاثة باطلة وما أدى إلى الباطل فهو باطل، فالقول بوجود المطالب باطل: بيانه أنه لا جائز أن يكون ادخار المال في الأرض لا لغرض بأن يوضع تحت الأرض عبثاً لتأكله الأرض ويذهب سُدًى، فإنّ ذلك خلاف صريح العقل؛ لما أن الذهب والفضة هما قِيمُ الأشياء وجوهر الثَّمنية وأسباب المطالب، ولا جائز أن يكون لغرض أخروي لأن شريعة الإسلام ليس فيها ما يدل على مطلوبية الادخار والكنز ونيل الدرجات في الآخرة بسببه، بل هي ناهية عنه وآمرة بصرفه في وجوه القُرُبات والخيرات. وأصحاب المِلل غيرها منهم من ينكر المعاد الجسماني على القطع ومنهم من تردَّد فيه، وهؤلاء لا يجوز أن يدخروا المال لأمر أخرويّ لما أنّ أخرويًّا من غير اعتقاد الآخرة محال. وذلك كعبدة النجوم والصابئة والنصارى على ما قاله الأصفهاني في «شرح الطوالع» في الكلام على المعاد الجسماني، وإن كان فيه نظر. وأما من يقول بالأدوار والتناسخ كعبدة الأوثان فالكلام في عدم ادخارهم كالكلام على القسم الثالث. وأما القسم الثالث وهو أن يكون الادخار لأمر دنيوي يعود على المدخر لاعتقاد

عَوْدِه إلى الدنيا فهو أيضًا باطل لأنه لو كان كذلك لبالغوا في إخفائه وسد طريق العلم به لكنّا قد فرضنا له علامات وأمارات يُعرف بها، هذا خُلْفٌ.

وأما عدم إفضاء حرفة الشهادة إلى المقصود فذلك لأنَّ الحِرفَ والصنائعَ على قسمين: قسم يلزم من العلمِ به وإجادتِه الحصولُ على ثمرته، وقسمٍ لا يلزم بل لا بد من ضميمة أخرى، ومنه حرفةُ الشهادة وسائرُ الحرف الهوائية غير المعيشية، وينبغي أن يُسمَّى معاشًا غير طبيعي، وهذه لا وثوق بإفضائها إلى المقصود. وبيانه فيما نحن بصدده، وهو الشهادة، أن حقيقة حرفة الشهادة: ملكة يقتدر بها على التعبير عن مقاصد المشهود له وعليه بلفظ صحيح متعارف مستوفٍ لمقاصدهما بشروطٍ شرعيةٍ وعلى إفراغ مقاصدهما في قالب شرعيٍّ إن كانت غير شرعية، وغايته تحويل عبارة المشهود له وعليه العامية إلى عبارة ترتضيها العلماء وتحويل تصويرهما الفاسد إلى صورة شرعية، ثم لا يلزم من تحصيل هذه الملكة وإجادتها الحصول على ثمرتها والرواج فيها بخلاف القسم الأول من الحدادة ونحوها، فإن من عَلِمَها وأجادَها حَصَلَ على ثمرتها. وحكم سائر الحرف الهوائية كالدلالة والنقابة في عدم إفضائها بالعارف بها إلى مقصودها حكم الشهادة ولك أن تجعل ذلك حدًّا رسميًّا للحرف الهوائية، فيقال في حدها حرفة لا يلزم من العلم بها وإجادتها الحصول على ثمرتها. والحاصل أن لحرفة الشهادة موانع من حصول ثمرتها والمقصود منها، ولها مفاسد ونقائص عاجلة ومضار آخروية آجلة. فأما الموانع فأمور: منها أن حرفة الشهادة من قبيل الاحتراف بالعلم والعلم، كما سيجيء تحقيقه في الفصل الخامس، أقبلُ شيءٍ للخفاء والجحد والجهل بقدره من صاحبه، وأقبل شيءٍ للإضافة إلى غير أهله بالحظ والجاه والتلبيس وسكوت مُعْوِرٍ عن مُعْوِرٍ، وإذا كان كذلك فقد يدور الرواج في الشهادة مع الهيئة والزي الظاهر واللباس الفاخر، ويخفى مكان الاتصاف بحرفة الشهادة على التفسير السابق فيفوت الرواج بفوات الهيئة واللباس، وهناك ينشد:

أرى ثيابًا ولكنْ حَشْوُها بَقَرٌ
بلا قرون وذا عَيْبٌ على البقـــر

ومنها أن مبني حرفة الشهادة على العوام، وهم مربوطون بأوهامهم وواقفون مع مألوف عاداتهم، ولا تمييز لهم بتفهم كتابة وكتابة، والتقليد وظيفتهم وذاتي لهم، فلا يستعملون في وثائقهم ومكاتيبهم مجهولًا لهم لتوهمهم فيه إفساد مكاتيبهم ويلزم من عدم استعمال المجهول استمرارُه على خموله ومجهوليته أَبَد الآبدين ودَهْرَ الداهرين.

ومنها أن مبنى الرواج على الشهرة، والشهرة إما بقدمية أو بتشهير مقبول القول، فأما القدمية فليس المراد بها طول الإقامة في مكان بل كثرة الكتّابة التي للشاهد في أيدي الناس المحركة لِدواعيهم في استعماله التي يستلزم بعضها بعضًا والدخيل خال عن ذلك. وقدّمنا أن الشخص المجهول لا يستعمل، والمكث المجرد عن الكتّابة لا يفيد شيئًا حتى لو أقام الدخيلُ أبد الآبدين في مكان لا يستكتب فيه لم يكن بينه في الجهالة والخفاء والإجمال والجد فرق البتة. وأما تشهير مقبول القول فأعزّ من بيض الأنوق ومن تصحيح الإكسير(123)، وما أحق هذا بقول القاضي الجرجاني(124):

(123) الإِكْسِير: مادَّة مركَّبة، كان الأَقْدَمون يزعُمون أنها تحوِّل المعْدِن الرَّخيص إلى ذهبٍ.

(124) هو على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني. أبو الحسن، ولا يعرف سنة ميلاده... وولد في جرجان ,توفي سنة 393هـ. من مؤلفاته: (الوساطة بين المتنبي وخصومه) و(تفسير القرآن المجيد) و (تهذيب التاريخ).

إذا لم يكن في الأرض حرٌ يعينني
ولم يك لي كسبٌ فمِنْ أينَ أُرْزَقُ

ومنها أن الحرفة هوائية صرفة، وصرفها عن الدخيل والأجنبي الذي لا زبون له بالمواطأة والحيلة والاعتذار والشعوذة والدك(125) من أدْخَلِ الأشياءِ تحت الإمكان لا سيما وأهلُها بطرق اللؤم أهدى من القطا مع ما لهم من القسوة والقِحَة وغِلَظ الأكباد، أحسن الله خلاصنا من أيديهم. وأما المفاسد والنقائص العاجلة فلأن الشهادة في هذا الزمان تستلزم النذالة والسفالة والدناءة وسقوط الهمة وموت النفس والشح والقِحَة، وتؤدي إلى التباغض والتماقت والتقاطع والتدابر والتحاسد، يتقاسمون الفَلْسَ والفَلْسيْن، ويتغاضبون على الحبة والحبتين، ويتراضون بالدرهم والدرهمين، ويسرقون ويختلسون. قال عمر بن الوردي(126) من أرجوزة طويلة في ذلك:

(125) الدّكّ: الدّفع.

(126) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعرّي الكندي المعروف بابن الوردي. ولد في معرة النعمان سنة 691هـ وتوفي بالطاعون في حلب في سنة 749 هـ. وهو فقيه وأديب وشاعر وقد درس في حماة ودمشق وحلب وقام مقام قاضيها محمد بن النقيب عندما توفي ابن النقيب.

يُغيِّب الأشغالَ من أبيه
ويسرق الأجرةَ من أخيـــــه

ويحلفون بالطلاق والعِتاق على ما كذبهم فيه أظهرُ من الشمس فضلًا عما يحتمل الكذبَ، ويعدّون ذلك استرضاءً وعقلًا، ويتهافتون بسرعة القيام للأشغال ويعدونه حذقًا وكيْسًا(127)

:ويوسعون الدخيل حرمانًا وشعبذة ويعدونه دهاءً وكيسًا، وقد قلت في تهافتهم ومبادرتهم القيام

.الكَيْسُ: العقل والفطنة، والرّجل الكيِّس: العاقل الفَطِنُ (127

بُليتُ به جهـــولًا جاهليًّا

ثقيلَ الروح مذمومًا بغيضَـــا

ولم يكُ أكثر الإخوان علمًا

ولكن كان أسرعهم نهوضَـا

.وأما المضار الآخروية فمن وجوه

أولها: حضورهم الأنكحة مع عدم الاستظهار في شروطها من انقضاء العدة والأولياء والكفاءة وغيرها، وعلى الجملة فالإقدام على عقد من غير معرفة حكمُه حرامٌ، ثم بتقدير وجود الشرائط فمعهم من أنفسهم المفسدُ الأعظمُ وهو فواتُ العدالة لما أن كل واحد يعرف من نفسه ما لا يعرف من غيره، والعدالة عند الشافعية عبارة عن عدم مباشرة الكبائر والإصرار على الصغائر مع المروءة، وأين من يجمع هذه الثلاثة مع خطر النكاح وكثرة ما يترتب عليه من الأحكام من التوالد والتوارث وانتشار النسب إلى عدد كثير؟! وما يترتب على ذلك المنتشر من الأحكام ووجوب ما لا يجب إلا بالنكاح وحل ما لا يحل إلا به إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة؟

وثانيهما: أن شركة الأبدان القائل فيها قائلان: قائلٌ بعدم جوازها البتة كالشافعي، وقائل بجوازها كالحنبلي والحنفي، وليس لنا قائل بوجوبها، وأن اثنين ينعقد بينهما شركة الأبدان بغير اختيارهما ومبنى شركة الشهود غالبًا على الإكراه، فقلما يقع بين الشهود شركة أبدان صحيحة بالتراضي بل كل منهم لا يريد الآخر ولا الكتابة معه ويمنعه من ذلك موانع هي إكراهٌ أو في معنى الإكراه ويكتب أحدهما مائة سطر والآخر يكتب اسمه ويتقاسمان على السواء، ولا شركة بينهما قائمة، فيصير .الكسب كله حرامًا مع أن أكل الحرام مما يُظلم القلوب ويمنعها من دخول الحكمة فيها

وثالثها: إنه يجب على كل أحد علمُ ظاهر صناعته كما ذكره الشافعية في كتب الفقه أول كتاب الجهاد، فيجب على الصيرفي مثلًا معرفة أن بيع درهم بدرهمين مثلًا حرام، وغير ظاهر صنعته كباقي مسائل الربا التي لا يكثر دورها لا يجب عليه تعلمه وإذا وقع له شيء منه سأل عنه العلماء، وقياسه أن كل شاهد يجب عليه أن يعلم شروط الرهن والبيع والكفالة والأقارير، لأن هذه الأشياء كثيرة الدور وباقي مسائل هذه الأبواب يسأل عنها المفتي إذا وقع له، فحينئذ من ترك من

الشهود معرفة هذه الأشياء كان عاصياً ويتكرر عصيانه كل يوم ويترتب على ذلك ما لا يخفى. وأيضًا كثيرًا ما يكتب الشهود في الشهادة على من لا يعرفونه وقد عرفه شهوده وهو كذب؛ لأن المعرفة لا تحصل بالنظرة ولا بالمرة. ويتكرر هذا الكذب بتكرر الشهادة على المجاهيل ويترتب على ذلك ما لا يخفى.

ورابعها: تضييع الحقوق بالجهل، فرب من يكتب شيئًا ويزيد فيه كلمة أو ينقص كلمة أو يصور صورة يترتب عليها مفاسد شرعية وهو بجهله لا يعلمها، ولا يصح الاعتذار عن ذلك بأن الكلمة الزائدة أو الناقصة هكذا تحملها لأن ذلك بتسببه وتوريطه المشهود له وعليه في ذلك بتقليدهما إيَّاه ظنًّا منهما أنه أهل للتقليد.

وخامسها: التدليس باسترعاء المشهود عليه بكلمات الفقهاء التي تقصر عن إدراك غوائلها ودسائسها أفهامُ العوام من غير أن يعرف العوامُّ ما وراء ذلك من الغور، مع القطع بأنه لو شرح له ما في ذلك من الفساد لما أقدم عليه. ولا يصح أيضًا الاعتذار عن ذلك بأنه هكذا تحمل وهكذا استرعاه لأن هذا مما لا ينفع عند العليم الخبير.

وسادسها: إنهم يكتبون في كتب الأوقاف كلامًا طويلًا تلقوه عمن تقدمهم من غير أن يعرفوا معناه فضلًا عن الواقف المشهود عليه، بدليل أن العلماء فضلًا عن المورّقين تدور رؤوسهم في ثاني الحال في فهم المراد منه والواقف لم يتلفظ به ولا بمعظمه ولو قرئ عليه لم يفد لاستحالة إرادة معنى شيء بدون فهمه. على أنّ الإنشاءات لا بد فيها مع اللفظ من فهم المعنى بدليل أنّ الأعجمي لو لُقِّن الطلاق بلا فهم فأوقعه وأراد معناه عند العارف بمعناه لم يقع، وعلى الجملة فشهادتهم على الواقف بما نُسب إليه فيه وهو لم يفهمه مشكلة جدًّا بل وينشأ من عباراتهم الفاسدة الناشئة عن الجهل حرمان من لعل الواقف لم يُرِدْ حرمانه لو روجع فيه، ودخول من لم يُرِد دخولَه. وعلى الجملة ففي هذا الموضع نظر ظاهر فليتأمل.

وسابعها: تصريح العلماء من الشافعية والحنفية بأنه لا يشهد على خطه ما لم يتذكر الواقعة. فأما القضايا التي يكون للشاهد فيها مدخل أو يكون هو المورّق وله في عباراته وكتاباته ما يذكره بالقضية فلا كلام فيها ولكن ثَمَّ من القضايا ما يستحيل التذكرُ فيه عادةً، كالشهادة على الحكام في ظهور السجلات مع طول المدة، وما في معنى ذلك فلْيَسْتَفْتِ الشاهدُ قلبَه في ذلك، فإنه من مَزالّ الأقدام.

وثامنها: الاكتفاء في الشهادة على الحكام في السجلات الطويلة والمحاضر وصور المجالس الطوال بقول الحاكم له: نعم، جوابًا لقول الشاهد له: أشهد عليكم بما فيه، من غير أن يقرأه عليه، بل ولا يعرف الشاهد ما فيه لا إجمالًا ولا تفصيلًا. وقد قال فقهاء الشافعية في كتاب القاضي للقاضي إنه لو لم يقرأ على الشاهدين وقال الحاكم لهما: أشهدكما عليّ أنه كتابي أو أنّ ما فيه خطّي لم يُكْتَفَ بذلك.

وتاسعها: رفع الشهود نَسَبَ من لا يعرفون نَسَبَه مع أن ذلك شهادة بنَسَبِه ضمنًا كما قاله السبْكي(128) في جمع الجوامع في الكلام على أن مورد الصدق والكذب إنما هو النسبة التي تضمنها الخبر لا واحدٌ من طرفيها. ولو سلّم أن ذلك ليس شهادة بالنسب لا أصلًا ولا ضمنًا فقد قال الإمام كما نقله عنه في الروضة والرافعي: إنه لو لم يُعرف المشهود عليه إلا باسمه لم يتعرض في الشهادة لاسم أبيه.

(128) السّبكي: (727 -771هـ) هو قاضي القضاة تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الشافعي، فقيه، أصولي، مؤرّخ، أديب ناظم ناثر. و(جمع الجوامع) هو أحد مؤلّفاته، وهو في أصول الفقه، وهو مختصر مشهور يشتمل على زبدة ما في شرحيه على مختصر ابن الحاجب والمنهاج.

هذا ما رأيت أن أذكره مما قوي عندي مما حضرني في هذا المقام من موانع حصول المقصود من حرفة الشهادة ومفاسدها، ووراء ذلك غور لا يمكن التصريح به، ورأيت أن الإمساك عنه أولى، وما أحق ذلك بقول القائل:

في النفس أشياءُ لا أسْطِيع أذكرها
لو قلتُها قامت الدنيا على سَاقِ

والله المسؤول في الخلاص منها وإليه أضرع وعليه أتوكل.(129)

(129) يشير الناسخ أن هنا بياضًا في نسخة المؤلف نحو الصفحة. ولكن الكلام هنا ظاهر أنه ختام للفصل وبعده بداية فصل جديد، فلعل ترك هذه الصفحة مقصود.

الفصل الخامس

في أن الفلاكة والإهمال ألصقُ بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم (وبيان السبب في ذلك)

وإنما كانت الفلاكة ألصق بهم غالبًا من غيرهم لأمور: منها أن الإمارة عنهم بمعزل والتجارة مبنية على السفسفة(130) والمماحلة(131)، والآمال التي لا يقوم دليل على وقوعها والفلاحة والصناعة يلزمها المهانة والتلوث برذائل الحيل الدنيوية، وأهل العلم لهم أنَفَةٌ واستنكافٌ عن ذلك، فيقعدون عن الاكتساب متعلّلين بالأماني الكاذبة فيقعون في الفاقة والإملاق.

130) السَّفْسَفة: اللؤم والمماحكة.

131) ماحله مماحلة ومحالًا: قاوَاه حتى يتبين أيهما أشد. والغرض أن التجارة مبنية على المماكسة.

ومنها أنهم يحسنون ظنونهم في الناس على مقتضى ما يتوهمونه في أنفسهم من استحقاقها لذلك، ويبنون على ذلك رفيعًا ويحاولون منيعًا، والناس لا سيما أهل عصرنا لا يقيمون لعلومهم ومعارفهم وزنًا، فيبنون ظنونهم على شفا جرف هارٍ وتأتي الحوادث بُنيانَهم من القواعد فتجتثُّه ويعودون بآمال خاسرة وظنون كاذبة.

ومنها أنهم لاعتيادهم القواعدَ الكلية والخوضَ في الأنظار الدقيقة يطردون معظم الأشياء كليًّا حرمانًا وحصولًا، ويقيسون الأشياء على أشباهها على طريق قياسهم الفقهي، ويلحقون بعض الوقائع ببعض على سبيل إلحاق النظير بالنظير والقياس التمثيلي. والقضايا، وإن تناسبت أو تساوت من وجه، فقد تختلف من وجه آخر أو من وجوه أُخَر تخفى على غير المهرة في أحكام الدنيا ودقائقها، أو لخصوص في المادة، أو لوجود مانع، أو فوات شرط، أو لكون تلك القاعدة المأخوذ منها حكم ذلك الفرع ليست كلية في نفسها بل أكثرية وذلك الفرع من غير قسيم الأكثر، وهم عن ذلك كله غافلون. والقواعد العلمية التي يعرفونها تقضي عليهم بتصحيح الأقيسة والوثوق بها، فيطردون(132) معظم الأشياء كليًّا حرمانًا وحصولًا، تأليفًا وتنفيرًا، تقريبًا وتبعيدًا، إهمالًا ومراعاة، فيخبطون لذلك خبطًا عظيمًا، ويخطئون السياسة أصلًا ورأسًا، والكَيِّس من العامة والهمج لا يعرف الكليات ولا الأقيسة والعمل بها، ولا إلحاق الأشياء بنظائرها، ولا قياس العكس والخلف والملازمات، فينظر في الجزئي الذي هو بصدده نظرًا خاصًّا غير مشوّش بما

يفسده ويتفقّه فيه مانعًا وعائقًا، ويجسّره على ذلك صحة الجزم وعدم التردد وما ينشأ من كثرة الاحتمالات من الفتور والتواني وضعف العزيمة، فتنجح مساعيهم ويصيبون في ظنونهم غالبًا.

(132) طَرَدَ القَاعِدَةَ : عَمَّمَهَا، أَرْسَلَهَا عَامَّةً. وفي اللسان: أَمرٌ مُطَّرِدٌ: مستقيم على جهته.

ومنها أنهم لبُعد غورهم وغوصهم يفرضون محتملات بعيدة ويجزمون بوقوعها وثوقًا منهم بظنونهم وافتنانًا بأنفسهم، وما من شيء إلا ويطرقه الاحتمال المثبِّط عن إمضائه واستقامته، فيتخلفون لذلك عن مظان الخير والتعرض لتنفيسات الدهر وغشيان أهل الجاه فيقعون في الفلاكة والإهمال.

ومنها ما هو مختص بأصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب وكلام الأقدمين والتصوف الممزوج بالفلسفة والمتبحرين في التشكيكات والشُّبَه، وعلى الجملة فمن تضلَّع من هذه العلوم وحدها ولم يكن له خدمة لما في الكتاب والسنة من الأحكام والمعارف ولا تضلَّع من الفقه ولا نظر نظرًا تامًّا في كلام العلماء الكبار المتشرعين، فإنه يخرج بهاء الشريعة وجلالها ومهابتها وتعظيم ما فيها من قلبه فيسترسل في اللذات: محرمة كانت أو جائزة، رذيلة خسيسة كانت أو غير منفرة، ويستثقل الإتيان بالمأمورات فيتركها طلبًا للراحة والدعة، وأرزاقُ العلماء مبنية على التماس بركتهم والاستنجاح بأدعيتهم وترفيعهم عن رذيلة الاحتراف والاكتساب الجائزين، فمتى لم يرفعوا أنفسهم عن الرذائل المحرمة ولم يكن لدعائهم عمل صالح يرفعه ولا على شمائلهم شواهدُ البركة انكفَّ الناسُ عن إسعافهم بمرادهم، وأخذوا في طعنهم وتنقيصهم، وربما رموهم بالزندقةِ والإلحادِ فتستحكم الفلاكةُ فيهم، والفلاكة كالبَرص في الجسد، تنتشرُ فيه وتسري وتتزايدُ ما لم تجد دواءً حاسمًا مانعًا له من السريان.

ومنها ما هو مختص بأصحاب علوم الأوائل أيضًا، إنهم يرون أن لا كمال إلا التحلي بالمعارف والاطلاع على النكات والحقائق والوقوف على الأسرار والدقائق، وأن الكمالات الخارجانية من المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها، ويمكن أخذ ذلك والاستدلال عليه بقول عز الدين الحسن بن محمد الإربلي الضرير الفيلسوف(133):

(133) الحسن الإربلي (663 - 726 هـ) (1265 - 1326 م) حسن بن أحمد بن زفر الإربلي، الدمشقي (عز الدين) مؤرخ، حكيم، طبيب، من أهل إربل. قدم دمشق، وتوفي بها. من آثاره: السيرة النبوية، وتاريخ الإربلي جزء منه يشتمل على مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها.(معجم المؤلفين، 1/534)

كمِّل حقيقتَكَ التي لم تكمـــلِ

والجسمَ دَعْه في الحضيضِ الأسـفلِ

أتكّمل الفاني وتترك باقيًـــــا

همَلًا وأنت بأمــــره لم تحفَـــلِ

الجسمُ للنفس النفيســــة آلةٌ

ما لم تحصّلْه بهـا لم يحصـــلِ

يفنى وتبقى بعدَه في غِبْطـــة

محمــودةٍ أو شَقْوةٍ لا تنجلـــي

أُعطيتَ جسمك خادمًا لخدمتـه

ونسيت عهــدك في الزمـان الأولِ

ملكتَ رقك مَعْ كمالك ناقصًـا

أتملّك المفضـــولَ رِقّ الأفضـل

وبقول أبي الفتح البستي(134)، والغزالي رحمه الله كثير اللّهجِ به في كتبه:

(134) علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُسْتي ، أَبو الفَتح (...- 400هـ): شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. وكان من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، وخدم ابنه يمين الدولة (السلطان محمود، ابن سبكتكين) ثم أخرجه هذا إلى ما وراء النهر، فمات غريبا في بلدة «أوزجند» بخارى. له «ديوان شعر - ط» صغير، فيه بعض شعره، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها: «زيادة المرء في دنياه نقصان». (الأعلام للزركلي).

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته

وتطلب الربحَ مما فيه خُســـــران

عليك بالنفس فاستكمِلْ سعادتها

فأنت بالنفس لا بالجســـم إنسـان

وبقول الفارابي محمد بن محمد بن طَرْخان الفارابي المتوفى سنة 336هـ:

أخي خَلِّ حيز ذي باطـــل

وكن للحقائق في حيــــز

فما الدار دار مقام لنــــا

وما المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا علـــــى
أقلَّ من الكلـم الموجــز
وهل نحن إلا خطوط وقعن
على نقطة وَقْعَ مُستوفـــــز
محيط السموات أولى بنـا
فماذا التنافسُ في المركـــز

وإذا كان الكمال الخارجاني متلاشياً في أنظارهم على ما تقرر، فهُم لا محالة لا يعطون له بالًا. وهو لعسره لا يتم مع الفكرة في تثميره فكيف مع إهماله وعدم الاعتناء به وإلقائه وراء الظهر. ومنها أن العلوم خرجت عن كونها حرفاً وصناعة من الصناعات بعد مصيرها صناعة من قبل على ما سيجيء تحقيقه والاستدلال عليه في الفصل السادس بعد هذا الفصل. وإذا كان كذلك فكيف العمل على شريعة منسوخة والوصول بسلوك سبيل قد سد، والاستضاءة بمصباح قد طَفِئَ. ومنها أن رواج العلماء إنما هو لعلمهم كما أن رواج أرباب الحرف إنما هو لحرفهم، ولكن العلم بطيء الحصول وليست كل الطباع تقبله، والجزء الغالب عليه الوَهْبُ من الله لا الكسب، فطائفة من العمر تنقضي في تحصيل متنه، وطائفة من العمر ثانية تنقضي في تصوّره وأخذه عن الشيوخ، وطائفة ثالثة في تحقيقه، ثم بعد ذلك كله فصفة العلم ليست من الصفات المحسوسة الظاهرة كالحسن والقبح، ولا مما يدخله الكمية والمقدار المحسوس ليُعرفَ التفاضلُ فيه بالذّراع والشّبر وقياس أحد المطلوبين على الآخر، ولا الدال على صفة العلم، وهو البيان والنطق، ظاهر مكشوف لكل أحد، كالشجاعة التي يُعرف بها القويُّ من الضعيف بالافتراس والإلقاء على الأرض، وكالإجادة في المصنوعات المرئية المشاهَدة، بل صفة العلم من الصفات النفسانية والكمالات الحاصلة بقوة النفس الناطقة والقوى الباطنة، فهي قابلة للجحد والإنكار والمدافعة والتغطية عليها عند أهلها، وقابلة أيضًا لأن يدخل فيها غير أهلها بالتلبيس والتصنّع والتمويه والجاه ويُعين على خفائها وجهل الناس بمكانها من صاحبها وقبولها للتصنع والتمويه أن العلم مستدع لفاهمة وحافظة وقَلّ أن يجتمعا في شخص؛ وذلك لما أن القوة الحافظة من مقدم الدماغ والقوة الفاهمة مما يلي مؤخر الدماغ في وسطه، وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين، وإن شئت

قلت إن البطن المؤخر من الدماغ محل الاسترجاع والتذكر، والبطن المقدم محل التخيل، وبقدر كمال إحداهما بموادها تنقص الأخرى لتقابل المكانين أو لأن الفهم يستدعي مزيد رطوبة في الدماغ والحفظ يستدعي مزيد يبوسة والجمع بينهما محال كما قاله الإمام فخر الدين الرازي في كتابه المصنف في مناقب الشافعي ناقلًا له عن الحكماء. وإن من العلماء من له قلم وكتابة وليس له بيان ولا جدل لأن مزاجه يتغير بالمماراة والمدافعة غضبًا أو حياءً ويضيق قلبه انفعالًا عن ذلك، فيحصل الحبسة في لسانه بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه أو لعدم دُرْبَتِه[135] ومهارته بالبحث، أو لِعِيِّه وحُبسته، أو لأن في العلم والكتابة استعانة على تشييع القوة النفسانية وضبطها عن التشتت، وهذا مستمد مما ذكره الحكماء في كتبهم من أن نفوس الكهان لما ضَعُفَ استعدادُها تشبَّثت بأمورٍ جزئية تكون مشيعة لها ومانعة من تشتتها كالسجع ورؤية الماء وسنوح سانح. ومنهم من له بيانٌ وجدلٌ ولا قلمَ ولا كتابةَ له، إما لفصاحته مع عدم وقوفه على حقائق العلوم وإما لفساد تراكيبه إهمالًا واحترازًا وإن كان واقفًا على حقائقها. والقلم يضبط العيوب ويكون شاهدًا عليه بخلاف العبارة؛ لإمكان المكابَرة والاعتذارِ فيها، وإمكان تغييرها عند المضايقة. وإما لدرْبته ومهارته في البحث وحسن انتقاله فيه وتغطيته على جهله وقلة مبالاته. وإن من العلماء من يزيد عِلمُه على عقلِه فلا يُحسن الغطاءَ على مجهولاتِه ولا الاعتذارَ عنها، مع أن مجهولاتِ الإنسان أكثر من معلوماته، بل لا نسبة لمعلوماته إلى مجهولاته. ومنهم من يزيد عقلُه على علمه فيضع الأشياءَ في حاقّ[136] مواضعها ويضيف إليها رونقًا وبهاء وتهويلًا وتوهيمًا. وإنَّ من العلماء من له صوتٌ لإهماله والبكاء صغيرًا لفقْر أهلِه أو لتسليطِ البكاءِ عليه في المَهْدِ والمخارجُ رطبةٌ لينةٌ فيفتح العياطُ لَهَوَاته وتتسع مجاري صوته وتتصلب أوداجُه. ومنهم من لا صوتَ له لعدمِ ذلك، ومن لا صوت له مغلوبٌ عاجزٌ عن المباحثة؛ حتى إنَّ بعضَ الناسِ علمُه صوتُه ونخرُه نغمُه، وما أحقَّ هذا المقامَ بقولِ القائلِ:

[135] الدُّربة بالضم: هي الضراوة والاعتياد على الشيء. والحُبسة بالضم: تعذر الكلام عند إرادته. والعي: العجز عن النطق.
[136] حاقّ الجوع (بتشديد القاف): صادِقُه. ورجل حاقّ الرجل وحاقّ الشجاع وحاقتهما: كامل فيهما.

فقلتُ لمحمد لما التقينا
تنكَّب[137] لا يقطّرك الزحام[138]

[137] ينسب هذا البيت لأبي ثمامة البراء بن عازب الأنصاري، وورد (محرز) بدل (محمد) ومحرز رجل من بني ضبة. انظر حاشية الدسوقي على شرح المعاني(1/384).
[138] أي اعدل عن طريقي لئلا تصرعك مزاحمتي.

وإن من العلماء من له علم بلا جاه ولا وجاهة، فلا يمكنه المقاومةَ ويتلعثم لسانُه ويتغير للإجلال، ويدافعه الوهم ويقول فلا يُلتَفت إليه أو يُرَد عليه ردًّا جاهيًا.(139) تقبله العامة. ولله درُّ القائل:

139) جاهيًا: أي علانيةً.

إذا التقى الخيل في معسكرها

فكيف حال البعوض في الوَسَط.(140)

140) لم أعثر على قائله.

والقائل:

حياةٌ بلا مال حياةٌ ذَميمــــةٌ

وعلمٌ بلا جاهٍ كلامٌ مُضيَّـــعُ.(141)

141) لم أعثر على قائله.

ومنهم من له جاه وحاله في ذلك ظاهر لا يحتاج إلى الكلام عليه. وإذا تقرر لك ذلك كله علمت أنَّ العلم أقبل شيءٍ للخفاءِ والجَحْدِ والتلْبيسِ والتصنُّع. وكيف الرَّواجُ بحرفة مجحودةٍ أو خفيةٍ أو يُشَارك فيها بالتلبيس والتمويه؟!

ومنها أنَّ ما في أيدي الناس إنما هو ثمرةُ أموالهم وتكسباتهم بأعمالهم حتى لو فرضنا شخصًا خاليًا من المال والتكسب لم يكن إلا شحاذًا مُكْدِيًا، وعلى قدر احتياج الناس إلى نوع ذلك المال ونوع ذلك التكسُّب يكون نَفاقُه(142) بينهم، وبقدر نَفاقه تعظُم ثروةُ صاحبه وغناهُ؛ فلذلك لا تعظم ثروةُ أصحاب منصب القضاء والفتوى والتدريس غالبًا؛ وذلك لعدم احتياج جمهور الناس إلى ما بأيديهم احتياجًا لازمًا لا مندوحة عنه، لما أنَّ الأمورَ المفتقرةَ إلى القضاءِ تنفصلُ بغير قضاءٍ تارةً لرجوع المُبطل عن عناده لوازعِ دينٍ أو عارٍ أو خوفٍ مترقَّبٍ أو نحوها، وتنفصل بالسياسة وبوجوه الناس تارةً أخرى، ولما أنَّ العلوم مُبايِنةٌ لطبائع البعض ومهجورةٌ عند البعض ومستثقَلةٌ على البعض، وضروري الاستفتاء.........(143)

142) النَّفاق بالفتح رواج الشيء وبالكسر المداهنة والخداع ومراد المؤلف الأول كما هو واضح.

143) يشير الناسخ في نهاية الفصل الخامس إلى أنه يوجد بياض مقداره ورقة وصفحة في النسخة التي نقل منها.

الفصل السادس

في مصير العلوم كمالات نفسانية وطاعة من الطاعات)
(ليس إلا بعد كونها صناعة من جملة الصناعات وحرفة من الحرف

هذه الدعوى مركَّبة من ثلاثةِ أمورٍ. الأمر الأول: إن العلوم كانت حرفة من الحرف وصناعة من الصنائع. الأمر الثاني: إن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة وزال منها معنى الاحتراف والصنعة. الأمر الثالث: كونها كمالات وطاعات. وبيان ذلك يفتقر إلى مقدمتين .

المقدمة الأولى: إن هذه الشريعة ناسخة لجميع الشرائع، وأحكامها باقية بقاء الدهر، ثم إن الأحكام كلها متلقاة من الله تعالى ولا مدخل للعقل في إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما؛ ولذلك قيل في حد الحكم الشرعي: خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير. فقيل «خطاب الله» لما أن السنة والإجماع والقياس ترجع إليه بالآخرة. والكتاب والسنة والحكم الشرعي مفتقر إلى العلوم بأسرها. وبيانه أنه بالنظر إلى المفرد الذي يستدل به وصحته في حالة إفراده يفتقر إلى علم الصرف، وأن النظر في صحة التركيب يفتقر إلى علم النحو، وفي تطبيق اللفظ على مدلوله يفتقر إلى علم اللغة، وفي إظهاره وإضماره والتفاته وتقديمه وتأخيره ونحوها مما يرجع إلى مطابقة اللفظ لمقتضى الحال إلى علم المعاني، وفي حقيقته ومجازه وكنايته واستعارته ونحوها مما يرجع إلى إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة إلى علم البيان وبالنظر إلى توابع هذين العلمين إلى علم البديع، وبالنظر في خاصه وعامه، ومطلقه ومقيده ومجمله، ونحو ذلك إلى طائفة من علم أصول الفقه، وفي مواقع القرآن إلى أسباب النزول، وفي استيضاح معانيه إلى علم التفسير، وفي نزوله على حروف متعددة إلى علم القراءات، وفي الاستدلال به وترتيب الأدلة إلى علم المنطق والجدل وآداب البحث، وفي الأحكام المستفادة منه وبواسطته إلى الفقه، وفي استنباط الفقه إلى أصول الفقه. وإن النظر في السنة يستلزم علم رواية السنة وحفظها وعلم الحديث والناسخ والمنسوخ وأسماء الرواة وكناهم وألقابهم ومشتبه أنسابهم وجرحهم وتعديلهم ووفاتهم والأخبار والقصص. وإن النظر في الشارع يفتقر إلى علم الكلام. ثم إن العلوم بعضها مربوط ببعض ومتعلق به، إما على سبيل الاستلزام أو على سبيل الاستمداد، وهذه العلوم المذكورة تستلزم جملة من علوم الحكماء والأوائل ولو بواسطة أو وسائط، كاستلزام الفقه بواسطة الفرائض، والإقرارات المجهولة علم الحساب وهو

الارتماطيقي، وعلم الجبر والمقابلة، وبواسطة اختلاف أحكام الوصية وما في معناها بالمرض المخوف وغيره، وإباحة التيمم بالمرض ونحوه إلى علم الطب، وكاستلزام علم الكلام للطبيعة والرياضة والمنطق، وكاستلزام تعين معرفة القبلة على كل واحد في رأي الرافعي(144). أو على مريد السفر في رأي النووي(145). وهو من الفقه معرفة طائفة من الهيئة، وكذلك معرفة دخول الوقت، واستلزام الاستشهاد بالشعر في النحو والتفسير علم العروض. وعلى هذا القياس قس تجد العلوم مرتبطة بعضها ببعض بالاستلزام أو الاستمداد.

144) الرّافعي: هناك أكثر من مصنّف يحمل هذه النسبة، ولم يقدّم المؤلف ما يشير إلى أحدهم، ونرجع أنه: أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي القزويني الشافعي (555 هـ -623هـ): فقيه، أصوليّ، محدّث، مفسّر، مؤرّخ. له: فتح العزيز على كتاب الوجيز للغزالي، وهو في فروع فقه الشافعي، شرح مسند الشافعي في مجلدين، الأمالي الشارحة على مفردات الفاتحة.

145) النّووي: (631 هـ -677هـ): محيي الدين أبو زكريّاء يحيى بن شرف النووي، الدمشقي، الشافعي. محدّث، حافظ، لغويّ. له: الأربعون النوويّة، (روضة الطالبين وعمدة المتقين) في فروع الفقه الشافعي، تهذيب الأسماء واللغات، والتبيان في آداب حملة القرآن.

المقدمة الثانية: أن الحفاظ للقرآن بكماله في عصره ﷺ معاذ بن جبل، وأبو زيد سعيد بن عمر الأنصاري، وأبو الدرداء عويمر، وزيد بن ثابت. وفي قول: وعثمان بن عفان، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري. وأصحاب الإفتاء في عصره ﷺ: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر، وحذيفة، وزيد بن ثابت، وسلمان، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري. ثم انتهت أصول العلم إلى عبد الله ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، فأخذ عن ابن مسعود ستةٌ: علقمة، والأسود وعبيدة، والحرث بن قيس، ومسروق، وعمرو بن شرحبيل. وأخذ عن زيد ابن ثابت أحدَ عشرَ رجلًا ممن كان يتبع رأيه ويقتدي بقوله: قبيصة بن ذؤيبٍ وخارجة ابن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وسعيد بن المسيّب، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار. وأخذ عن ابن عباس ستة: سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وجابر بن زيد، وطاووس. هكذا رواه أبو بكر الخطيب بإسناده عن علي المديني، وروى الحاكم أبو عبد الله عن أبي العباس الأصم عن العباس الدوري قال: انتهى علم الصحابة إلى ستة: عمر وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت، اهـ. وانتهت أصول الرواية

إلى ستة: أبي هريرة، وأنس، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعائشة. وانتهت أصول الأخبار والقصص إلى ستة: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وطاووس اليماني، ومحمد بن إسحق، ومحمد بن عمر الواقدي. وانتهت صناعة التفسير إلى ستة: عبد الله بن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسّدّي. هكذا ذكر هذا كله جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي.(146) في كتابه المسمى (تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير) ثم صار الأمر من بعده صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق واسمه عبد الله بن عثمان، بويع له في اليوم الذي تُوفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة. ثم بويع له البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وتُوفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال. ثم استُخلف عمرُ بنُ الخطاب يوم وفاة أبي بكر بنصِّه عليه، ثم قُتل لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام. ثم استُخلف عثمان بن عفان أول يوم من المحرم سنة أربع وعشرين وقتل يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأياماً. ثم استُخلف علي بن أبي طالب وقُتل في رمضان سنة أربعين في يوم الجمعة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وأياماً، ثم بايع الناسُ الحسنَ ابنَ عليٍّ يوم موته فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوماً، ويقال أربعة أشهر، ثم كره سفك الدماء فتخلى عنً الأمر لمعاوية وانخلع وبايعه في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين فانتقل الأمر إلى بني أمية وخلُص لهم ثنتين وثمانين سنة، ألف شهر، وعِدتهم أربعةَ عشرَ رجلاً، أولهم معاوية وخلافته سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر وآخرهم مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم ومدة ولايته نحو من ثماني سنين، وبعد معاوية يزيد بن معاوية وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرين، ثم بُويع لابنه معاوية بن يزيد فمكث أربعين ليلة ثم مات، وقيل خَلَعَ نفسَه لصعوبة الأمر عليه، ثم بُويع لعبد الله بن الزبير بمكة لسبع خلون من رجب سنة أربع وستين، ثم قام مروان بن الحكم بالشام بعد بيعة ابن الزبير بأشهر فبايعه جماعة من أهل الشام وذلك في المنتصف من ذي القعدة سنة أربع وستين ثم مات في رمضان سنة 65 هـ، فكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً فقام مقامه عبد الملك ابنه وجهز العساكر مع الحجاج ابن يوسف لقتال ابن الزبير وقُتل ابنُ الزبير في المسجد الحرام بمكة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت

من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وكانت ولايته تسعة أعوام وشهرين ونصفًا. ثم وَلِيَ الوليدُ بنُ عبد الملك وتوفي سنة 96 هـ فكانت ولايته تسع سنين وخمسة أشهر. ثم استُخلِف أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفي سنة 99 هـ فكانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر. ثم استُخلف عمر ابن عبد العزيز وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام. ثم استُخلف يزيدُ بن عبد الملك وكانت خلافته أربع سنين وشهراً. ثم استخلَف أخاه هشام بن عبد الملك وكانت ولايته تسعة عشر عامًا وسبعة أشهر وعشرة أيام. ثم استُخلف الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك، وكانت خلافته سنة وشهرين. ثم استُخلف يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ثم بُويع أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقُتل سنة 132 هجرية. ثم انتقل الأمر إلى بني العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، فتولَّى أبو العباس السفاح، واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في ربيع الأول وقيل الآخرة سنة 132 هـ ،وتوفي في ذي الحجة سنة 136 هـ ،فكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر. ثم تولى بعده أخوه المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد وكان أكبر سنًّا منه وحج فتوفي لسبع خلون من ذي الحجة سنة 158 هـ، فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً. ثم ولي المهديُّ محمدُ بن عبد الله بمكة وتوفي لثمان بقين من المحرم سنة 169 هـ ، وكانت خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يومًا. ثم ولي ابنه الهادي موسى بن محمد وكانت خلافته أربعة عشر شهراً وإحدى وعشرين يومًا. ثم ولي بعده أخوه الرشيد أبو جعفر هارون بن محمد فكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يومًا. ثم ولي بعده ابنه الأمين أبو عبد الله محمد ابن هارون وقُتل في المحرم سنة 198هـ، وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأربعة وعشرين يومًا. ثم ولي أخوه المأمون عبد الله بن هارون في المحرم ومات ببلاد الروم لثمانٍ خلون من رجب سنة 218 هـ، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا. ثم تتابع العباسيون واحدًا واحدًا إلى أن ختموا بالمستعصم أبي أحمد عبد الله بن المنتصر بالله أبي جعفر منصور، وكانت عدة خلفاء بني العباس سبعة وثلاثين خليفة وجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرين سنة، ولم تكن أيدي بني العباس حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فقد خرج عن بني العباس بلاد المغرب. وإنما ذكرت هذه المقدمة بطولها لتعرف ترتيب الدول، فإن تغير الأحوال إنما هو بتغير الملوك وتجدد العوائد بحسب أحوال الملوك. وسيتضح لك ذلك بإذن الله تعالى.

(146) ابن الجوزي: (510 هـ -597هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي.. القرشي، التيّمي، البغدادي، الحنبلي. محدّث، حافظ، مفسّر، فقيه، واعظ، أديب، مؤرّخ. من مصنفاته: المغني في علوم القرآن، وبستان الواعظين ورياض السامعين، والمنتظم في تاريخ الأمم، وذكر له مؤلّف الكتاب كتابه المسمّى (تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير).

إذا تقرر ذلك فاعلم أن العلوم الإسلامية لم تكن مدوَّنة، ولكن اقتضتها الشريعة اقتضاءً واستلزمتها لزومًا وأفاضتها إفاضة، كما تقرر في المقدمة الأولى، وتلقت الصحابة أصولها من حضرته ﷺ ومشاهدتهم الوحيَ، وتفقهم بأسباب النزول، وما أفاضته عليهم أنوار النبوة، ثم ثابروا على الحق وتساءلوا وتناظروا واجتهدوا وتراجعوا عند اختلافهم إلى مَنْ عنده مزيد علم بالمختلَف فيه وتواصوا وتعاونوا على إمضاء الشريعة وتشييعها وإلزام الناس بها وإكرام حَمَلتها، وملوك الناس علماؤهم، والعلماء الكبار قليلون كما مر في المقدمة الثانية على ما هو العادة في الأمور المبتدأة كيف تكون في مبدئها وأولها قليلة، وما ظنك بالشيء المحتاج إليه مع قلته؛ ويلزم من ذلك كله وفور الداعية في تحصيل العلم ومزيد الاعتناء به والرغبة فيه، ولذلك كانت الفضائل والكمالات والعلوم تأخذ في الازدياد والنمو لنَفاق أصحابها ولبقاء أنوار النبوة غضة طرية بين الناس، وكلما ازدادت الشريعة تمهيدًا ونشرًا ازدادت الصحابة، وحاشاهم من تعلق هممهم بالدنيا، سيادةً ويسرًا؛ فلقد كثر المال في خلافة عثمان بن عفان كثرةً بالغة لم يكثر قبلها في خلافة من تقدمه حتى جاءَ نصيب الفارس في غزوة إفريقية ثلاثة آلاف دينار أو عشرين ألف دينار فأطلقها كلها عثمان رضي الله عنه في يوم واحد لآل الحكم ويقال لآل مروان. ثم صارت الخلافة من الخلفاء الأربعة والحسن رضي الله عنهم إلى الأمويين فالعباسيين على ما تقدم في المقدمة الثانية، وهم ما بين صحابي وتابعي ومُدلٍ بنسبته إلى النبي ﷺ، والشريعة- التي العلوم خَدَمتُها- شريعة قريبهم وصاحبهم، وسيادتهم وفخرهم واستيلاؤهم على الممالك به ﷺ وبشريعته المستلزِمة للعلوم على ما مر في المقدمة الأولى. فكيف لا تأخذُ العلوم في الانتشار والملوك والأمراء والأعيان والقضاة والوزراء هم أهل العلم والفضل والعقل؟ أو الممدوحون الكُمَّل وشهرتُهم وذكرُ أسمائهم في غالب خطب كتب الأقدمين تُغني عن عدهم بالأسماء، فقلّ أن يخلو كتاب من كتب العلماء الأقدمين خصوصًا في العلوم العقلية والأدبية إلا ويذكر فيه أن الباعث على تدوينه وزيرٌ أو قاضٍ أو أمير أو مَنْ في معناهم. ويلزم من ذلك قوةُ داعية التعلم وتوفرُ الإرادة له أن المجانسة واتحاد المقاصد والتعاون على مقصد واحد واستمداد العلماء بعضهم من بعض وزيادة العلم ورسوخه بالبحث فيه والمذاكرة له، كل ذلك مُقتضٍ للألفة والمحبة والاختلاط والعناية وأُلفة الملوك والأعيان ومحبتهم، والاختلاط بهم

يقتضي تأليفَهم ومن يحبونه إلى مقاصده ومآربه؛ ولذلك بُنيت المدارسُ بألوفِ الدنانير لجنس العلماء أو لواحد منهم بالقصد الأول ولجنسهم بالقصد الثاني، واتسع الحالُ بالعلماء أنفسهم حتى بنوا هم لبني نوعهم مدارسَ كثيرةً، وكُتب التاريخ طافحةٌ بهذا. ولذلك أيضًا بُذلتِ الألوفُ في الإرشاد إلى تصحيح كلمة أو مساعدةٍ على مقصد علمي، كحكاية النضر بن شميل.(147) مع المأمون، وإنه أمر له بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل على أن أرشده إلى أن (السِّداد) الذي بمعنى البُلغة وسَدِّ الثلمة بكسر السين لا بفتحها، وأن الفضل زاده من عند نفسه لذلك ثلاثين ألف درهم، فتم له ثمانون ألف درهم. وكحكاية أبي عثمان المازني وإحضار الواثق إياه من البصرة ليسأله عن نَصْبِ رجل أو رفعه في قول العرجي.(148):

147) النّضْرُ بن شُميْل (.... - 203 هـ): هو أحد علماء اللغة والرواية، وكان من أهل البصرة عالمًا بغريب اللغة وبالشعر والنحو والحديث وأيّام العرب والفقه. أما الكلام عن الفرْق بين (السَّداد) - بفتح السين- و(السِّداد) - بكسرها- فوارد في سياق كلام دار بين النّضْرِ والخليفة المأمون وردتْ فيه الكلمةُ في حديث نبويّ، فنطقها المأمونُ بفتح السينِ وصحّحها النضر فكسر السّين، ليسأل الخليفةُ - الذي راعه أن يخطئ في لفظ الحديث - عن الفرق بينهما، فيتولّى النضر توضيحَ الفرق. والقصة واردة في (البصائر والذخائر) للتوحيدي و(نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء) لكمال الدين عبد الرحمن الأنباري، و (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي. وهذا هو نصّها موفّقًا فيه بين المصادر الثلاثة:

قال النَّضر بن شميل: كنتُ أدخل على المأمون في سَمَره، فدخلتُ عليه ذات ليلة وعَلَيَّ قميصٌ مرقوع، فقال [أي المأمون]: يا نَضْرُ، ما هذا التقشّف؟ أتدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلْقان؟ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف وحرّ مَرْوَ [اي مدينة مَرْو] شديد، فأتبرّد بهذه الخُلقان، فجرى ذكرُ النساء فقال [أي المأمون]: حدثنا هُشَيْم عن مجالد عن الشّعبيّ عن ابن عباس قال: قال رسول اله صلى الله عليه وسلم: إذا تزوج الرجلُ المرأةَ لدينها وجمالها كان في ذلك سَدَادٌ من عَوَزٍ. فأورده بفتح السّين، قلتُ [القائل هو النّضْر]: صدق أميرُ المؤمنين، حَدّثنا عَوْفُ بن أبي جميلة عن الحسن عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا تزوّج الرجلُ المرأةَ لدينها وجمالها كان فيها سِدَادٌ من عَوَزٍ. وكان المأمون متكئًا فاستوى جالسًا وقال: السَّدادُ عندك لحنٌ [أي خطأ] يا نضر؟ قلت: نعم ها هنا يا أمير المؤمنين، قال: أَوَ تلحّنُني؟ قلتُ: إنما لحن هُشيْم -وكان لحّانًا- فتبع أميرُ المؤمنين لفظه. فقال: ما الفرق بينهما؟ قلتُ: السَّداد: القَصْد في الدين والطريقة والأمر. والسِّداد: البُلْغَةُ [أي ما يكفي الحاجة] وكلّ ما سددت به شيئًا فهو سِداد. قال [المأمون] أَوَ تعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العَرْجيُّ [شاعر أمويّ] يقول:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا

ليوم كريهةٍ وسدادِ ثَغْر

قال [النضر]: فأطرق المأمونُ مليًّا ثم قال: «قَبّحَ اللهُ مَنْ لا أَدبَ له، ثم وصلني بخمسين ألفَ درهم».

هذا وللقصة بقية في بعض رواياتها الأخرى. وهي دالة على تقدير الخلفاء في الصدر الأول للعلم والعلماء، وعلى حرصهم على التزوّد بالمعرفة، ثم هي أحد الشواهد على ما قاله المؤلف عن الفترة التي كان فيها الحكّام من أهل العلم.

148) عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، أبو عمر، شاعر، غزل مطبوع، ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة. كان شغوفًا باللهو والصيد. وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين. صحب مسلمة بن عبد الملك في وقائعه بأرض الروم، وأبلى معه البلاء الحسن. وهو من أهل مكة. ولقب بالعرجي لسكناه قرية «العرج» قرب الطائف. وسجنه والي مكة محمد بن هشام في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن إلى أن مات. وهو صاحب البيت المشهور، من قصيدة: «أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر» له ديوان شعر مطبوع. وفي خزانة الأدب للبغدادي (1: 47):

«مات في حبس محمد بن هشام المخزومي، بعد ضرب كثير، وتشهير في الأسواق، لأنه شبب بأمه، ليفضحه، لا لمحبة كانت بينه وبينها».

أظلومُ إنَّ مصابَكم رجلًا

أهدى السلام تحيةً ظلم

وأمره له على توجيهه إياه بألف دينار. وكحكاية دعلج بن أحمد بن دعلج أبو محمد السجزي (149). الفقيه المعدل المحدث الرئيس صاحب الأموال الجزيلة التي أنفق أكثرها في العلم وأهله، المتوفى عن ثلثمائة ألف دينار سنة 351 هـ ، حيث بعث بمُسنده إلى ابن عقدة (150). لينظر فيه وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين دينارًا. وكحكاية عبد الله بن طاهر حيث رتب للقاسم بن سلام أبي عبيد في كل شهر عشرة آلاف درهم لما وَضَعَ كتابَه في غريب الحديث وقال له: إن عقلًا يعين صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق أن لا يحوج لطلب المعاش (151). وكحكاية علي بن محمد بن الفرات (152). من أنه كان ينفق على خمسة آلاف من العلماء والعبَّاد ويجري عليهم نفقاتٍ كل شهر. وكغير ذلك من أخبار المدح والكلمات العلمية مما يغني تواتره المعنوي عن الإطالة به. ولذلك أيضًا كان التقريب والتبعيد والضَّعة والشرف على حسب الاستعداد والاستحقاق؛ وذلك كله يستلزم كون العلوم والكمالات صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف لما أن الناس كانوا يرون احتياجهم إلى العلماء فوق احتياجهم إلى الحاكة والباعة والصناع وباقي الحرف أضعافًا مضاعفة. وكان العلماء يسترزقون بعلومهم ومعارفهم ويتخذونها ذرائع ووسائل إلى مقاصدهم فوق استرزاق الحاكة والخاطة أضعافًا مضاعفة، فلذلك اتسع نطاق العلم ودونت الدواوين وصُنفت الكتب وهُذبت ورتبت وبُسطت واختُصرت واستُبحر العلم استبحارًا وذخرت (153). أمواجه وأخذ إلى أبعد مسافة من أقطار الأرض شرقًا وغربًا، حتى أن علوم الشريعة كلها من التفسير والنحو والأصول والمعاني والحديث أكثر أصحابها العجم على بعد قطرهم، مع أن صاحب الشريعة عربي وكتابه عربي والمتلقون عنه وهم الصحابة عرب. ولذلك سبب أذكره استطرادًا وهو أن الشريعة لما استلزمت العلم على ما مر، وكان العلماء هم الملوك والأعيان، وكان نَفاق العلماء (154). والاحتياج إليهم فوق نَفاق الخياط والحداد والحائك والاحتياج إليه، واسترزاق العلماء بعلمهم فوق استرزاق هؤلاء بحرفتهم صار العلم حرفةً من الحرف على ما تقدم، وقاعدة الحرف أن موجوديتها وكثرتها ومهارة أهلها يدور مع التمدن والحضارة، فكلما ازداد القطر تمدنًا وحضارةً ازدادت الحرفُ إحكامًا ومهارة؛ فلذلك لا تجد في القرى من المصنوعات ما يوجد في المدن، ولا في صغير المدن

ما يوجد في كبيرها؛ لما أن رواج الحرف ونَفاقها هو سر موجوديتها وإحكامها لأن الناس لا يضعون سلعهم حيث لا تُقبل أو لا تَنفق، وكِبرُ المدينة وكثرةُ أهلها يستلزم النَّفاق لاحتياج الناس واختلاف أغراضهم وهممهم احتياجًا على البدل والتناوب إلى المصنوعات واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعور والخلو واقتضائه للنفاق؛ لأن توزيع المجموع على المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة. ومملكة فارس والعجم كانت أكثر تمدنًا وحضارة فلذلك انتشرت العلوم فيها وأحكِمت إحكامًا بليغًا إلى حد لا يوجد في غيرها لكثرة ناسها وعظم مملكتها. هذا كله في تبيين أن العلوم كانت صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف.

149) نسبة إلى سجستان على غير قياس.

150) في خ (ابن عقد) والتصويب من ط، وهو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن زياد بن عبد الله بن عجلان، أبو العباس الكوفي الحافظ العلامة، أحد أعلام الحديث، ونادرة الزمان، وصاحب التصانيف على ضعف فيه، وهو المعروف بالحافظ ابن عقدة. وعقدة لقب لأبيه النحوي البارع محمد بن سعيد، ولقب بذلك لتعقيده في التصريف، وهو من العلماء العاملين. كان قبلِ الثلاثمائة. وولد أبو العباس في سنة 249هـ بالكوفة. (سير أعلام النبلاء 15/356)

151) الخبر عن إجراء عبد الله بن طاهر لأبي عُبيد القاسم بن سلّام (ت 225) معاشًا قدره عشرة آلاف درهم في كلّ شهر لتأليفه كتابه في غريب الحديث، ودلالته على احترام أصحاب السلطة للعلماء وارد في: نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري، ص 111.

152) علي بن محمد بن الفرات: هو أحد من استوزرهم الخليفة المقتدر بالله العبّاسي (295 هـ -320هـ) وذلك في سنة 299هـ، وقد استمر في الوزارة ثلاث سنين وتسعة أشهر إلى أن سخط عليه، [مروج الذهب 4/213]

153) في (خ): (زخرفت).

154) أصل معنى النَّفاق -بفتح النون- هو: الرّواج والانتشار، والفعل منه: نَفَق.. ينفُقُ.. نَفاقًا. أما النّفاق – بكسر النون- فهو إظهار الإنسان خلافَ ما يبطن، وهو خُلُق ذميم. والفعل منه: نافق.. ينافق.. نِفاقًا. ونَفاق العلماء معناه: علوّ مكانتهم، وكرامتهم على المجتمع والحكام وكثرة الرجوع إليهم ومشاورتهم والاهتداء بهديهم.

وأما الأمر الثاني وهو أن العلوم الآن خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف فذلك أن الحرف والدول لها شباب وهرَم، ولها عمر طبيعي كأعمار الحيوانات، (155) والأمور المعنوية تتراجع وتتناقص عند التناهي كالأمور الحسية. وكنا قد قدمنا أن العلوم اقتضتها الشريعة اقتضاءً، وأن الصدر الأول تشايعوا على إظهار الشريعة ولوازمها وتوابعها فراجَ العلمُ والعلماءُ لذلك. ولا شك أن الدول بعد الخلفاء الأربعة وإن كانت فوق عصرنا هذا في الانتظام والسَّداد أضعافًا مضاعفة لكنها دون عصره صلى الله عليه وسلم، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «خَيرُ القرون قَرْني ثم الذين يَلُونَهم ثم الذين يَلُونَهم ثم يجيء قومٌ تسبقُ شهادةَ أحدِهم يمينُه ويمينَه شهادتُه» (156) وقوله صلى الله عليه وسلم في رواية علي بن الجعد عن حماد عن سعيد بن جمهان (157) عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكًا» (158).

وخَرّجَ البيهقيّ في دلائل النبوّة عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله، عزَّ وجلَّ، بدأ هذا الأمر نُبوَّةً ورحمةً وكانتا خلافةً ورحمةً وكانتا ملكًا عَضُوضًا وكانت عُتُوًّا وجبريَّةً وفسادًا في الأمة، يستحلون الفُروجَ والخُمورَ والحريرَ، ويُنصَرون على ذلك، ويرزقون أبدًا حتى يلقوا الله عز وجل» (159) وخرَّجه أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة بنحو مختصرًا. ولسر هذه الأحاديث تجدد في الدول بعده صلى الله عليه وسلم ما لم يكن في عصره صلى الله عليه وسلم، واستعجم الملك، وتجددت فيه أحوال فارس والعجم من الملابس الفاخرة والمساكن الأنيقة والحُجَّاب ومضاعفة الحِجاب ومن الوزراء والجاويشية والجوندارية وأصناف أمراء ووظائف وأسماء لم تكن في عصره صلى الله عليه وسلم. وحدث تخطي الحدود والتعازير وتشنيع القتل وإيقاعه بغير مُوجِب شرعي، وزالت أحوال البداوة من خوف المذمَّة وشدة الحياء والكرم والتبذل في المأكل والملبس والمركب، ومن اتخاذ التواضع خُلقًا، وحدثت الحوادثُ وكثُرت الخوارج والمتغلبون على العباسيين الذين يُدلون بنسبهم إليه صلى الله عليه وسلم، ونزول سيادتهم بشريعته المستلزمة للعلوم كما تقدم، فخرجت حصة من مملكة الشرق من أيدي العباسيين في دولة بني بويه (160) على يد ...... (161) وغيره، ثم زالت أيديهم عن العراق كله وخرج الحكمُ عنهم فيه أصلًا سنة وشهورًا في أيام أرسلان البساسيري في حدود الخمسين والأربعمائة، ثم عاد إلى أن أخرجه عنهم مطلقًا واستأصلهم هلاكو بن طولي خان بن جنكيز خان. وكان الصدرُ الأول يدبرون أفعالهم على محض الشريعة ثم جاء مَنْ بعدهم فأدخلوا فيها بالاستدلال والتمحل جملةً من السياسة، ثم فعلوا أمورًا سياسية وهوَّنوها على الناس بالاعتذار، ثم اتسع نطاق السياسة وأدار الملوك أحوالهم على عقولهم. وأحدث جنكيز خان الياساق (162) الذي وضعه وجعل الناس يتحاكمون إليه ويطلع إلى جبل ويزعم أنه يُوحَى إليه به وأكثره مخالف لشرائع الله وكتبه، وإنما هو شيء اقترحه من عند نفسه بعد الستمائة وأوحاه إلى شيطانه، وكان يكتب أيساقه في مجلدين بخط غليظ ويُحمل على بعير ويبالغ في تعظيمه. وكثرت الحوادث السياسية والأمور العقلية المخالفة للشريعة واستغناء الحكام بعقولهم مما يقتضي طي بساط العلم ويُفضي إلى عدم الاحتياج إليه؛ فإن النفوس حكويّة من شأنها المحاكاة في الشر، ومهما صدر شيء وزال بقي منه أثر في النفوس، وزواله الظاهر لا يستلزم زواله من النفوس وزوال الاستدلال به وروايته على سبيل الاستحلاء والاستحسان، وهذا كله يستلزم طي بساط العلم وعدم الحاجة إليه لما أن العلوم

من لوازم الشريعة وتوابعها كما قررناه وأعدناه غير مرة. وإذا ضعف العمل بالملزوم وتُسوهل فيه فأَوْلى أن يضعف العمل باللازم ويُتساهَل فيه؛ ولذلك لم يبق من العلم سوى رسومه ومعاهده كالمدارس القديمة، وسوى ما يوجبه ناموس الإسلام من الاعتراف بحقه ظاهرًا. فقد اتضح عندك خروج العلوم عن كونها مظنة الاستحقاق ومطية الاسترزاق، وكيف لا وقد صارت الوظائف الدينية تُباع كما يُباع الفرسُ والحمارُ وهو الذي يسمونه نزولًا وإعراضًا، ويُوصى بها كما يُوصى بالقوس والدار وهو الذي يسمونه نزولًا أيضًا، وتورّث كما تورّث الأموال يأخذها الصغار والأطفال. وأنت إذا رجعت [تجد](163) أن كثرة الحوادث الخارجة عن الشريعة تحدث في النفوس محاكاة وأثرًا واستدلالًا، وأن الناس على دين مليكهم، وهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأن الملوك أسواق يُحمل إليها ما يَنفق فيها، وأن الصنائع تدور مع النَّفاق وجودًا وعدمًا، وأن وثوق المحترف من الباعة والحاكة والخاطة بإفضاء حرفهم إلى ثمرتها أكثر من وثوق العلماء بإفضاء علمهم إلى ثمرته الدنيوية، وأن إهمال الصنعة والاستغناء عنها بغيرها يُوجب اضمحلالها وزوالها، وما نسب لذلك مما تجده وتشاهده من إهمال المنطق والحكمة بالشام واستعماله بالروم والعجم، تحقّقْتَ أنّ العلوم خرجت عن كونها صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف، اللهم إلا أن يحييها الله تعالى وينشرها ويبثها في أيام الملك المؤيد وينشرها، فهو الذي عمر المدارس بمصر والشام بمعروفه وبره وبآرائه الموفقة وساطع أمره وقهره وإحياء معالم العلم شرعه وشعره. أبقى الله دولته بقاء الفرقدين، ومَلَّكَه ما بين المشرِقين.

(155) زيادة في (ط).

(156) اشتهر بهذا اللفظ (خير القرون قرني) في عدد من الكتب وهو ما رواه ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق بسنده إلى أكثم بن أبي الجون رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرني». وقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يتخلّف من بعدهم خَلْف تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه ويمينه شهادته».

(157) جمهان كعثمان محدّث من التابعين اهـ قاموس.

(158) رواه الترمذي: (436/4) وأبو داود في سننه (36/5).

(159) روى الطبراني في معجمه الكبير عن ابن عباس رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول هذا الأمر نبوة ورحمة ثم تكون خلافة ورحمة ثم يكون ملكًا ورحمة ثم يكون إمارة ورحمة ثم يتكادمون عليه تكادم الحُمُر، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان» (قال الهيثمي: ورجاله ثقات. وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة).

(160) عندما تولى الخليفة العباسي المستكفي الخلافة سنة ٣٣٣ هـ وكان كسابقه ألعوبة في أيدي القادة الأتراك، ومن سوء تصرفه أن قام بمعالجة المشكلة التي وضع الخلفاء العباسيون أنفسهم فيها بمشكلة أكبر وأخطرمن سابقتها جرت الويلات على البلاد وذلك باستنجاده ببني بويه لوضع حد للمشكلات التي واجهت الدولة فدخل بنو بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ وبدخولهم بغداد يبدأ عصر جديد في الدولة العباسية، وهو ما يسمى بعصر نفوذ الدولة البويهيه الذي يمتد إلى قرابة منتصف القرن

الخامس الهجري فمع وصولهم إلى بغداد أصبح لهم مطلق الحرية في التصرف في الدولة ولم يعد للخليفة العباسي سوى السلطة الدينية حيث سيطروا على الخلافة بشكل كامل، وتفردوا بالإدارة والجيش وسيطروا على النواحي المالية والأمنية.
فمع وصول أحمد بن بويه بغداد لقبه الخليفة المستكفي بمعز الدولة فما كان منه إلا أن كافأ الخليفة المستكفي على استنجاده بهم بأ خلعه وسمل عينه وأجلس مكانه الخليفة المطيع بالله الذي بقي في السلطة حتى عزله بختيار بن معز الدولة وذلك لمرضه، وولى بدلًا منه الطائع وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي البويهيين يولونهم ويعزلونهم متى شاءوا.
وقد وصف محمود شاكر الحال في ذلك الوقت فقال: «وكان فيهم تعسف شديد ومغالاة في التشيع حتى كان عهدهم عصر صراع بين السنة والشيعة بشكلٍ واسع» (التاريخ الإسلامي 6/157).

(161) مكان النقط كلمة مضطربة تُقرأ (يحكم) وليس لها معنى هنا.

(162) الياساق: اسم كتاب وضعه جنكيز خان الزعيم المغولي يتضمّن عددًا من القوانين التي وضعها لتنظيم أمور رعاياه. جاء في (صبح الأعشى) في سياق الكلام عن عقيدة جنكيز خان وأتباعه في الديانة «ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين، وجرى عليه أعقابُه بعده الجري على منهاج (ياسة) التي قررها، وهي قوانين خمّنها من عقله وقرّرها من ذهنه، رتّب فيها أحكامًا وحدّد فيها حدودًا ربّما وافق القليلُ منها الشريعةَ المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك، سمّاها (الياسة الكبرى)، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزانته تُتوارث عنه في أعقابه، وأن يتعلمها صغار أهل بيته». [صبح الأعشى 4/310، 311].

(163) زيادة ضرورية.

وأما الأمر الثالث وهو كون العلوم كمالات وطاعات فهو أن الإنسان إنما ينفصل عن الحيوان بالنطق، وليس المراد به الصوت المنضغط في المجرى على مقاطع الحروف وإلا لكان الأخرس غير إنسان، ولا الكلمات المنتظمة وإلا لكانت الببغاء والغراب إنسانًا. وإنما المراد به النفس الناطقة وهي التي لها الفكر والرويَّة ومحبة العلم والمعرفة، وهي التي تملك الطبائع القياسية وغير القياسية، وتكون فلسفية وحكمية، وتبحث عن العلوم النظرية، ولها الاستدلال بظواهر الأمور على بواطنها ومعرفة ترتيب الموجودات في الوجود. وهذه القوة كمالها وحياتها بالعلم والبيان، فتميز الإنسان بما هو إنسان بالعلم والبيان، وإلا فغير الإنسان من الدواب والسباع أكثر أكلًا منه وأقوى بطشًا وأكثر جِماعًا وأولادًا وأطول عمرًا، وإنما يتميز عن الدواب والحيوان بعلمه وبيانه. فإذا عَدِمَ العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرًّا منهم كما قال تعالى: ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ [الأنفال: 22] فهؤلاء هم الجهال ﴿ ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهُم ﴾ [الأنفال: 23] وقال تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ﴾ [البقرة: 171] سواءٌ كان المعنى: مثَل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب، أو مثل الذين كفروا حين ينادَوْن كمثل دوابّ الذي ينعق، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان. وأيضًا فالجهل من أعظم الأدواء والأمراض، وقد سمَّاه الله مرضًا في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا ﴾ [البقرة: 10] وقوله ﴿ وليقول الذين في

قلوبهم مرض والكافرون ﴾ [المدثر: 31] وفي قوله ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ [الحج: 53] فإن المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة. وكذلك أمراض القلب جميعها من الشهوة، وغيرها كالرياء والعجب والحسد والفخر، كلها ناشئة عن الجهل فإنها مركبة من الشهوة والشبهة، فإن الكبر مثلًا مركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومَحْمَدتهم إياه، ودواء هذه الأمراض كلها العلم؛ ولذلك أكثر الغزالي رحمة الله في ربع المهلكات من ذكر دواء العلم في كل مرض من أمراض القلوب؛ ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاءً لما في الصدور، ولذلك أيضًا ترى داء الجهل مُتلفًا للأموال غالبًا، فرُبَّ شخص يتحيل عليه بحيلة شرعية يجعلها طريقًا إلى أخذ ماله، ولولا جهله بالشريعة لما تمت عليه. وأيضًا ما رُوي عن ابن عمر يرفعه: «أفضلُ العبادة الفقهُ» وقال عمر رضي الله: «موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلالِ الله وحرامه» وما رواه الخطيب في كتاب (الفقيه والمتفقه) عن ابن عمر يرفعه: «مجلسُ فقه خير من عبادة ستين سنة» وما رواه أيضًا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه: «يَسيرُ الفقهِ خَيْرٌ من كثيرِ العبادة» قال ابن قيم الجوزّية في (مفتاح دار السعادة) وفي رفعها نظر، وما رواه أيضًا من حديث أنس يرفعه: «فقيهٌ عند الله أفضلُ من ألف عابدٍ» وهو في الترمذي من حديث روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا، قال ابن القيم: وفي ثبوتهما مرفوعين نظر. والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم، وما رواه المخلص عن ابن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن مربع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: «بابٌ من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعًا، وبابٌ من العلم نعلمه عُمِل به أو لم يُعْمَل أحبُّ إلينا من مائةِ ركعة تطوعًا» وما رواه الخطيب أيضًا عن أبي الدرداء أنه قال: «مُذاكَرَةُ العلمِ ساعة خيرٌ من قيام ليلة»(164) وما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إنَّ العلماءُ ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورّثوا درهمًا ولا دينارًا إنما ورّثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظّ وافرٍ»(165). أما وضع الملائكة أجنحتها فتواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لما تحمله من ميراث النبوة لأنه طالب لما فيه حياة العالم ونجاته، ففيه شَبَهٌ من الملائكة

وبينه وبينهم مناسبةٌ لأن الملائكة يحرصون على منافع البشر: يعينونهم على أعدائهم الشياطين، ويستغفرون لمسيئهم. قال الطبراني: سمعت أبا يحيي زكريا بن يحيي الساجي قال: كنا نمشي في بعض الأزقة إلى باب بعض المحدّثين بالبصرة فأسرعنا المشي وكان معنا رجل تاجر متهم في دينه فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى حفيت رجلاه وسقط. وأما استغفار مَن في السموات ومَن في الأرض له فإنه لما كان ساعيًا في نجاة العباد جُوزي من جنس عمله وجُعل ما في السموات والأرض ساعيًا في نجاته، وقيل: سبب هذا الاستغفار أن العالِم يعلّمُ الخلقَ مراعاةَ هذه الحيوانات ويعرِّفهم كيفية تناولها واستخدامها وذبحها فاستحق أن يستغفر له البهائم. وقوله: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» مطابق لحال القمر والكواكب، فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره في أقطار العالم، وهذا حال العالِم ، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه وما قَرُبَ منه وهذا حال العابد. ووجه اختيار القمر على الشمس وإن كان الشمس أكثر نورًا وإضاءَة أن القمر لما كان نوره مستفادًا من الشمس كان تشبيه العالِم الذي نوره مستفادٌ من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس، وأيضًا فنور القمر يتفاوت بتفاوت الليالي نقصانًا وتمامًا والشمس نورها في كل الأيام على السواء والعلماء يتفاوتون في العلم تفاوتًا كثيرًا، فتشبههم بالقمر أنسب لحالهم. وأما تشبيه العلماء بالنجوم في قوله صلى الله عليه وسلم «أصحابي كالنجوم»(166) فمن وجه آخر وله حكمة أخرى، فإن النجوم يُقتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتكون رجومًا للشياطين، والعلماء كذلك يُقتدى بهم في ظلمات الجهل والكفر ويُرجَم بهم الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم زخرف القول غرورًا.

(164) لم يرد بهذا اللفظ، وورد عن أبي الدرداء فيما يرويه الإمام أحمد في مسنده في باب الزهد: « تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

(165) رواه الشيخان.

(166) ضعيف، السلسلة الضعيفة للألباني (1/145).

الفصل السابع

في السبب في غَلَبةِ الفلاكة والإهمال والإملاق (على نوعِ الإنسان وبيان ذلك

اعلم أن المفلوكية والإهمال والإملاق غالب على جنس البشر، والسبب في أن غالب البشر يرمّقون العيش ترميقًا(167)، ويدافعون إخفاقَ المساعي مدافعةً، و[يتسكعون](168) في طرق الإملاق أو فوقه بقليل [تسكعًا](169). إنّ السيادة والمجد والثروة والغِنى وأشباهها إما مكتسبة وإما موروثة، فأما المكتسبة فما سوى الإمارة من المعاش الطبيعي: إما تجارة أو فلاحة أو صناعة. فالتجارة مفتقِرة إلى مادة متسعة ورأس مال كبير يُدار في وجوه الأرباح والتثمير ويوزّع على أنواع المتاجر، لينجبر كسادُ بعضها بنَفاق الآخر، وليُستعان بالنافق على ادّخار الكاسد، ارتقابًا لحَوَالة الأسواق، واستدرارًا للنَّفاق، ولكيلا يُباع الكاسدُ في حال كساده وذهاب ربح وفساده، وأيدي الناس خالية عن الأموال المقنِعة القابلة لمثل ذلك غالبًا. وأيضًا فهي محتاجة إلى بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة ليُؤمَنَ بها غِشُّ الباعةِ وخِلابتهم وترويج السماسرة كواسِدَهم، ومفتقرة أيضًا إلى فِراسة صادقة وحَدْس صحيح ليضع كل سلعة في حاقّ موضعها: زبونًا وسَومًا، وترخيصًا وإغلاء، وحلولًا وتأجيلًا، وادخارًا وتعجيلًا. ونفوس الناس غالبًا ظلمانيَّة، لخلوِّها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية، فهي بعيدة عن البصيرة. وأيضًا فالأيدي الغاصبة الخاطفة مستولية على التجار لمقهوريتهم مع الدولة وحامية الملك وخاصته المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون غير المملوكة والالتجاء إلى الإعسارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء، وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فعاقه وأقعده عن أمثاله حتى أتى على رأس ماله .

167). يُرمّقون العيش ترميقًا: يقولون: رمَّق فلانًا بشيء، أي: أمسك به رمَقَه، أو: أعطاه ما يمسك به رمقَه، ورمَّقَ في الشيء: لم يبالغ في عمله ولم يحسنْه، ورمَّق الكلامَ: لفّقه شيئًا فشيئًا. ويشير السياق إلى أن ترميق العيش هنا يعني ممارسة الحياة بأدنى مستوى لها، أو معاناة العيش في عُسْر وضيق.

168). في (خ): (يتلكعون). وتلكع: تباطأ في مَشْيه متعمِّدًا ذلك. ويتسكعون: أي يذهبون متحيرين لا يدرون أين يأخذون.

169). في (خ) : (تلكعًا).

وأما الفلاحة فعوارضها السماوية أكثر من أن تُعد، من البرد والهواء المفرطين، وانقطاع المطر وكثرته في غير وقته، ونزول كِبار الحصى والبَرَد وثقيل الثلج وشدة المطر، ومجيء الجراد المنتشر،

وكذلك العوارض الأرضية من سوء النبت وسباخة الأرض وخبث طينها ووضع الأشياء متأخرة عن أوانها وعدم استكمالها بحِراثها وشروطها ونبات الأشياء المُضِرّة خلال الأشياء المطلوبة، ومن الجُرذ والفأر واليَرْبُوع، ومن رخص البقول والخضراوات وما في معناها مما لا يقبل الادخار مع غلاء، ومن عدم نصيحة المعاونين فيها وخباثتهم واختلاسهم، وتفويت الأعمال الكمالية المصلحية، وتسليط الظَّلمة عليهم واستعبادهم، وتوسيع شروط مقاسمتهم، وفرض الفرائض والتفنن في وجوه الجبايات وأنواع الظلامات، وإلجائهم إلى بيع زراعاتهم في حال كسادها وعدم رواجها، مع ما يختص به أهل البدو من رداءَة العيش وخشونته والبعد عن أحوال الحضارة من الرفاهية والترف وموجودية المطالب والتحلي بالعلوم، ثم مع ذلك كله ما هم عليه من دخول المهانة في قلوبهم وظهورها في أحوالهم وعلى شمائلهم، وناهيك قولُه صلى الله عليه وسلم: «ما دخلت السِّكّة(170) دار قوم إلا دخلها الذل»(171).

(170) السِّكَّةُ: من معانيها: السّطْر المصطفُّ من النخيل والشجر، والطريق المستوي وحديدة مقوسة تضرب عليها النقود. وحديدة المحراث التي يُحرث بها. ويبدو أنّ المعنى الأخير هو الذي قصد إليه صاحب الكتاب.

(171) روى البخاري في باب الحرث والمزارعة (3/66): «لا يدخل هذا، أي المحراث، بيت قوم إلا دخله الذل». وقال القاري في شرح المشكاة: ظاهر هذا الحديث أن الزراعة تورث المذلة، وليس كذلك؛ لأن الزراعة مستحبة، لأن فيها نفعًا للناس ولخبر «اطلبوا الخير من خباياها» بل إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لئلا يشتغل الصحابة بالعمارات وترك الجهاد فيغلب عليهم العدو، وأي ذلك أشد من ذلك؟ وقيل: هذا في حق من يقرب العدو، ولأنه لو اشتغل بالحرث وترك الجهاد لأدى إلى الذل بغلبة العدو عليه. أ.هـ.

وأما الصناعات فلقِلّة الماهر الحاذق فيها، وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدّعة والراحة والرفاهية، ويطرقها الكساد كثيرًا، ونَفَاقها لا جدوى له، ولا يحظى صاحبه بطائل. وأصحاب الصنائع باذلون رقهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغني والمسلم والذمي، فهم بمراحلَ عن الشهامة وعلوّ الهمة والأنفة.

ثم جهات المعاش الثلاثة مفترقة إلى التعاون والتناصح، وقد انقطعا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت لكثرة مقتضيات التحاسد ولحيلولة كلّ واحد الآخرَ عن مراده من الكِبْر والعُجْب والعداوة وخوف الازدحام على مطلوب واحد. وفوات بعض المقاصد بكثرة الشركاء [وحب](172) المباهاة والانفراد بالمجد وخُبْث النفس وفساد جوهرها ونقص إنسانيتها.

(172) زيادة في (ط).

وأيضًا يقال على وجوه المعاش الثلاث إنه كلما تجدد للإنسان دخل جدّد له صرفًا، إما للمباهاة والترفع على أمثاله، أو إفراطًا في الشهوات وانهماكًا في اللذات، أو خوفًا من سوء القالة والأحدوثة بتنقيص ما يقتضيه حاله أو بإكراه مبغض لتلك النعمة عليه أو لأن الحالات المتجددة في دخله يلزمها تجدد أمور في صرفه، فلا يزال الشخص مفلوكًا مهملًا غير قادر على المكارم. وأيضًا فوجوه المجد والسيادة الكسبية لا تصير دفعة وإنما تكون بالتدريج والترقي ومكابدة تميتها ومعالجة زوال موانعها مع كثرة الصادّين عنها، والعوارض العائقة لها أمر عسير بطيء السير، فيقضي الإنسان شطر عمره أو معظمه في فلاكة وإدبار.

هذا حكم وجوه المعاش الطبيعي، وأما غير الطبيعي كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم والدلالة وقلم الشهادة لغير المعروف وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية الصدفية فهي أرسخ قدمًا في الفلاكة والإدبار لأنها بمنزلة اللقطة والعثور على دفائن الأرض لعدم انتظامها ووفاء محصولها لخمولها، فأصحابه لا سيما غير المشهور منهم أئمة الفلاكة وهيولاها(173) وينابيعها ومأواها، أعاذنا الله من ذلك ومن الاختلاط بأهله آمين.

(173) أئمّة الفلاكة وهَيُولّاها: الهَيُولَي كلمة يونانية، وتعني الأصلَ الماديَّ للمحسوسات قبل أن تلحقها أي صورة، ويقصد المؤلّفُ أن أصحاب المعاش غير الطبيعيّ هم أصل الفلاكة وجوْهرُها، على سبيل المبالغة.

وأما الإمارة فلا يُنكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار، وبيانه أن الإمرة لا تتم إلا بالعصبية والتغلب والشوكة وفي قمع المعانِد والجاحِد وتأليفِ القلوب المتفرِّقة وتمهيد المسالك والقيام بحقوق لا تحصى كثرة معاناةِ شدائدَ ومكابدةِ مكائد ومشاق وتعريض النفس للهلاك. وكبراء الجند مستعبَدون مع مليكهم مشغولون به عن أنفسهم مقدّمون لمراده على مرادهم. ولو سُلِّم أن السلطنة خالية من الفلاكة فهي من القسم النادر. والدعوى أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان لا إنها لازمة لكل نوع الإنسان، هذا كله من المكتسب. أما الموروث فيطرقه أنواع من الفلاكة: منها امتداد أيدي الولاة والحكام إليه، ومنها مذلة اليتيم وخضوعه وفقده نصيحة أبيه، ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم تحمله مشاق جمعه وتجشُّمه نِصْب الحبائل في تحصيله، فيسرع فيه بالسَّرَف والتبذير والسفه لعدم حنكته وبصره بعواقب الأمور ويعود يتكفَّف الناسَ، ومنها عجزه لعدم مهارته ودُربته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تمنيته وتثميره فيذوب قليلًا قليلًا إلى أن يضمحل ويتلاشى ولا يحصل منه إلا على الملامة والتعيير والندم، ومنها إنكار المنكرين كونه في رتبة مورِّثه ومستحقًّا لما كان يعاون به مورِّثه ويساعد عليه، فلا يؤمِّنون على

دعائه ولا يساعفونه على قصده ولا يسيرون معه سيرة مورّثه فيقع من ذلك في العناء العظيم والداء العقيم. وبهذا التقرير يُعلم أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان وارثًا كان أو كاسبًا.. والله أعلم.

الفصل الثامن

(في أن الفلاكة المالية تستلزم الفلاكة الحالية)

هذا الذي قدمناه في الفصل قبله لمَّا كان لا ينتهض دليلًا إلا على غلبة الفلاكة المالية على نوع الإنسان احتجنا أن نذكر في هذا الفصل أن ذلك مستلزم للفلاكة الحالية، وأعني بالفلاكة الحالية تعذُّر المقاصد وانعدامها بحيث تصير الفلاكة حالًا ووصفًا ذاتيًّا للشخص في أفعاله وأقواله دفعًا وتحصيلًا، حكمًا وتعليلًا. والدليل على ذلك أن نقول: هذا مفلوك مالًا، وكل مفلوك مالًا فهو مفلوك حالًا ينتج هذا مفلوك حالًا وكلية الكبرى بديهي أو حسي والصغرى مسلمة بالفرض أو محسوسة، أو نقول دارت الفلاكة الحالية مع الفلاكة المالية وجودًا وعدمًا، والدوران آيةُ كون المدار عِلة في الدائر والمعلول لا يفارق علته، فهو إما مقارن أو متعقب على اختلاف المذهبين، وهذا وإن كان بديعًا وهو الاستدلال بالدوران على العلية وبالعلية على مقارنة المعلول إياها، فليس بعيدًا من القواعد أو يستدل بالدوران على الملازمة. وبالجملة فالدعوى تكاد تكون بديهية والحس والاستقراء يصدق ذلك. ويوضح ذلك أن المال عبارة عن مِلك الأعيان والمنافع، والجاه عبارة عن ملك القلوب واستسخار أصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها لذي الجاه من اعتقاد الكمال والالتفات إليه، والمفلوك لا جاه له ولا مال، وكل من لا جاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة؛ لما أن الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة أو هما أسباب القدرة، ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول إلى مطلوباته؛ لما أن مقدورًا بلا قدرة مُحال، ولذلك لا يحصل مقصودٌ لمفلوك نادرًا إلا بقدرة غيره من ذوي المال والجاه. ولذلك أيضًا لو فُرض شخص لا مال له ولا حرفة لم يكن إلا شحاذًا مُكديًا لأن ما في أيدي الناس إنما هو ثمرة أموالهم ومنافعهم. وأيضًا من لا قدرة له لا يتعلق الرجاء والخوف به. ومشايعة الناسِ الشخصَ ومساعدتهم إيَّاه على مُراده دفعًا وتحصيلًا، وتسليمهم له حكمًا وتعليلًا لا بد لها من داعيةٍ وغرضٍ ليترجَّحَ أحدُ الجائزين من الفعل والتَّرْك على الآخر بمرجِّح. وأعظم الأغراض والدواعي تعلُّقُ الرجاء والخوف بالشخص؛ لما أن الإنسان يقدر هجوم الحاجات وطروق الآفات، وسوء الظن بالعواقب كامِن في النفوس لا سيما في البلد الذي لا يكمل عدلُه ولا يتراحم أهلُه؛ ولذلك لا تمل الاستزادة من الدنيا. قال صلى الله عليه وسلم: «لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من ذَهَبٍ لابْتَغى لهما ثالثًا»[174]. وقال صلى الله عليه وسلم:

«منهومان لا يشبعان: منهوم العلم ومنهوم المال»(175). وذلك لأن هذه المخاوف لا موقف لها ولا لها قدر مخصوص، فمن تعلق رجاؤه أو خوفه بشخص كانت مساعدته له لأمر يتعلق بنفسه بالآخرة، وكان دافعًا لألم خوفه وساعيًا في تحقيق رجائه. والشخصُ أنصحُ ما يكون لنفسه؛ لأن نصحه لها طبيعي، فلذلك تُساعف الناسُ الأغنياءَ بمراداتهم وتتزلف الخلقُ إليهم بمطالبهم ويُسعفونهم بمنافعهم تسليفًا وادخارًا لخوف مترقَّب أو رجاء متوهَّم، وإن لم ينالوا من مالهم ذرة ولا من جاههم مثقال خردلة. وإذن كانت المفاليك عن الرجاء والخوف بمعزل.

(174) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(175) رواه الحاكم بلفظ: «منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع» وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأيضًا فالدنيا محل الازدحام والتوارد على محل واحد بخلاف الآخرة؛ ولذلك لا حسد في الآخرة لاتساعها ووفائها بالكل بلا ازدحام، فما مِن مقصدٍ يرومُه المفلوكُ إلا وله فيه مُزاحِم ومدافِع يمانعه عنه، وتقديمه على غيره ترجيح للمرجوح على الراجح، وهو خلاف صريح العقل؛ ويلزم من ذلك تعذر المقاصد على المفاليك وإخفاق مساعيهم فيها. وأيضًا فالأغنياء وذوو الجاه يتقارضون المقاصدَ تقارضًا ويقترضونها اقتراضًا، والتقارض يستدعي القدرة على الوفاء بالنوبة بحكم المقارضة لأنه أمر على التعاقب والنوبة، والقرض لا يوضع عند المعسرين، والمفاليك ليسوا من أهل المقارضة ولا الاقتراض. على أن استلزام الفلاكة المالية للفلاكة الحالية كفلق الصبح عند المنصفين، ولعل جحدَه مكابرةٌ، والقاعدة أن المكابرة لا يُطلب لها دليل.. والله أعلم.

الفصل التاسع

في أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة في الاعتذار إليهم وإظهار حبِّهم) ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها إلى مقاصدهم (وبيان الدليل على ذلك

اعلم أن الناس لا يبذلون منافعَهم وأموالهم سُدًى بغير غرض ولا علة؛ لأن المتعالي عن وجوب تعليل أفعاله بالأغراض والمصالح إنما هو الله تعالى، وإن خالفت المعتزلة في ذلك، فلا بُدَّ للإحسان أعم من أن يكون نفعًا أو مالًا، قولًا أو فعلًا، من غرض وحظ هو عند الباذل أوْفَى بما بذله، وتحصيله عنده أحب إليه من ذلك المبذول. فكما أن الشخص لا يُلقي ماله في البحر إذْ لا غرض له فيه كذلك لا يضع ماله في يد إنسان ولا غرض له فيه؛ وذلك الغرض إما آجل، وهو جزيل الثواب في الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم « أيُّما امرئٍ اشتَهى شَهوةً، فردَّ شَهوتَه وآثَرَ على نفسه غُفِرَ لَه»(176) وإما عاجل في الدنيا، وهو إما ترقُّب المكافأة بإحسانٍ مثله نوعًا أو جنسًا، أو المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب القلوب إلى طاعته ومحبته واستسخارهم، أو إزالة مذمَّة البُخل وخُبثه والنَّفرة الحاصلة للبخلاء واستقباحهم عنه، أو إزاحة حُب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة عن قلبه، أو إزاحة رقة الجنسية ورحمة النوعية عن قلبه ودفع الألم الحاصل له من الرقة بسبب سوء حال من يحسن إليه، أو دفع ألم خوف حاضر أو مترقب. والاستقراء يدل على الحصر. ثم إن بعض هذه الأغراض أقوى من بعض، وبعضها أدوم وأشد بيانًا من بعض، فالإحسان بالوارد الأخروي قليل الثبوت والاستمرار إلا من وفَّقه الله تعالى، وأيضًا فأعمال الخير تتقارض وينوب بعضها عن بعض، والأعمال البدنية أسهل على النفوس في تحصيل مطلوب الآخرة من الأعمال المالية، وبتقدير ثبوتها فإنما يثبت جنسها، وأما انحصارها في مفلوك بعينه فأقل ثبوتًا، بل لو قيل بعدم ثبوتها في مفلوك بعينه البتة لم يكن بعيدًا، فلا يفيد المفلوك التعويل عليها. وأما حب المنة والترفع فليس شاملًا لعامّة الخلق ولا لمعظمهم؛ لأن النفوس المستشرفة للمكارم والمعالي تأباه وتنفر عنه، وإنما ذلك غالبًا ممن يصدر عنه الإحسان تكرمًا وتطبعًا وتكلفًا لا طبعًا، فهو من فساد جوهر الإنسانية. وقولنا لا يكون غالبًا لأن الكلام فيمَن يصدر منه الإحسان لا في مطلق الإنسان، فلا يجمل بالمفلوك جعلُه رأسَ ماله؛ لأنه حينئذ

يكون قد رَضِي بأقل الناس عددًا وأفسدهم جوهرًا. وأما حب الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم فذلك يقتضي وضع المكارم في الناس على البدل والنوبة وتعميم العطاء للنظير والأعلى والأدنى ويكتفى من الواحد بالشخص بالمرة والمرتين والثلاثة، لأن الغرض إقامة الحجة وبسط المعذرة، فلا يحسن أيضًا بمفلوك التعلق بمُحسن هذا غرضه؛ لأن ماذا عسى أن يحصل من المرة والمرتين، ولأن العطاء العام قد لا يصادفه؛ لأن الاستدلال بالأعم على الأخص ممتنع. وأما جذب القلوب إلى الطاعة والمحبة والاستسخار فهو أيضًا مما لا يُوصِل مفلوكًا إلى غاية ولا إلى مطلب يؤبَه له، وقصاراه أن يوصله إلى مبادئ الخير لأن الغرض إقامة الحجة عليه واستبعاده، وذلك يحصل بأدنى مرتبة يمكن استبعاد مثله بها. وأما إزالة مذمة البخل ووضره ونفرته فلا يختص بإفاضة الإحسان على المفاليك، بل قد يحصل بتنعيم النفس وإظهار بزتها وزينتها، وبالبسط على العيال، وضيافة النظير أو المساوي في المنزلة. وأما إزاحة رقة الجنسية فتستدعي حالًا غير مُرضية تُستنزَل بها الرحمة زيادة على الفلاكة، إذ الفلاكة الدائمة تُعتاد وتُؤلف فيضعف كونها طريقًا للرحمة، وتلك الحال الزائدة تربو على الإحسان مرارها أضعافًا مضاعفة. ثم إن رقة الجنسية من أمور الآخرة، وفيه من البحث ما تقدم؛ ولذلك كانت إزالة حب الدنيا عن القلب من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم.

176. رواه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (31/142) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وقال: قال الدارقطني: غريب من حديث حبيب عن نافع تفرد به عمر. وقال ابن الجوزي في الموضوعات(3/374): موضوع. وضعف إسناده العراقي في تخريج الإحياء (3/317).

وإذا تقرَّر أنَّ الناسَ لا يبذلون منافعَهم وأموالَهم بغير غرض، بل لا بد لهم من غرض إما عاجل أو آجل، والمفلوك تمنعه الفلاكة عن المكافأة على الإحسان بإحسان مثله، وتمنعه أيضًا من الإخافة. والأمور التي مرجعها الآخرة لا تبقى ويكتفى ببعض أعمال الخير البدنية عنها وغيرها لا يخص مفلوكًا بعينه ولا يوصله إلى غاية يؤبه لها، ثم إن ما سوى رقة الجنسية أمور راجعة إلى الباذل وحده، فلا بد في المفلوك من تحريك بواعث الناس بأمر يرجع نفعه إليهم ويكون وصفًا للمفلوك نفسه ويدخل تحت قدرته دائمًا لتبقي داعيةُ الإنسان متحركة دائمًا لا تسكن لقدرة المفلوك على تحريكها كل وقت. فبخضوعه وتملقه تظهر سيادتهم وعزهم ويُؤمَن كِبْر المفلوك عليهم وتِيهُه وصلَفه بإسعافه بمراده، وبِبَسْط أعذارهم يأمنون حقده فيعاودون الإحسان إليه وإن سَلَفُوه[177] إساءةً وأذًى؛ لأن الإساءة طبيعية للبشر للقوة الغضبية، ولما أن في القلب ميلًا

للأخلاق السبعية، ولأن في النفوس محاكاة في الشر، ولأن دخول الشر تحت القدرة أكثر من دخول الخير كالصداقة والعداوة والبناء والهدم، والمفلوك مظنة للإساءة إليه لوجود المقتضى وانتفاء المانع، فلا بد أن تعمل الطبيعة فيه عملها، ولا دواء لهذا الداء إلا بسط الأعذار. قال أبو الجوائز الواسطي[(178)]:

[(177)] في ط: (سلقوه). وسلفوه: سَبَقَتْ وتقدمت إساءتُهم إليه.

[(178)] أبو الجوائز الحسن بن علي بن محمد بن باري الكاتب الواسطي؛ كان من الفضلاء، سكن بغداد دهرًا طويلًا، وذكره الخطيب في تاريخه فقال: وعلقت عنه أخبارًا وحكايات وأناشيد وأمالي عن ابن سكرة وغيره، ولك يكن ثقة، فإنه ذكر لي أنه سمع من ابن سكرة وكان يصغر عن ذلك. وكان أديبًا شاعرًا حسن الشعر في المديح والأوصاف وغير ذلك. وكانت وفاته سنة ستين وأربعمائة. انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان (2/111- 113) ترجمة (173). والوافي بالوفيات للصفدي (12/120- 121).

دَعِ الناسَ طرًّا واصرف الودَّ عنهـمُ
إذا كنتَ في أخلاقهـم لا تسـامحُ
فشيئان معدومان في الأرض: درهمٌ
حَلالٌ، وخِلّ في الحقيقـة ناصـحُ

وقال بشار بن برد[(179)]:

[(179)] أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء، الضرير، الشاعر المشهور. نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى، جمع بعضه في ديوان. اتهم بالزندقة فمات ضربًا بالسياط، ودفن بالبصرة سنة سبع، وقيل ثمان وستين ومائة. (ابن خلكان: وفيات الأعيان).

إذا أنتَ لم تشربْ مِرارًا على القَذَى
ظمِئْتَ وأي الناس تصفـو مشارِبُـهْ

وبالمبالغة في الاعتذار إليهم يُتجاوز عن تقصيره وقصوره وعجزه اللوازم للفلاكة؛ لأن للأغنياء شوافع من غناهم عن ذنوبهم قد تغنيهم عن الاعتذار بخلاف المفاليك، وبإظهار حبهم ومناصحتهم يجدون فيه روحًا ونفعًا راجعًا إليهم، فيكون إسعافهم له بمراده من لوازم سيادتهم وراجع بالآخرة إليهم، ولكون هذه الأمور أكثر إفضاءً بالمفاليك إلى مقاصدهم تجد الأسافل ترتفع على الأعالي كثيرًا لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالي، وقلما تخلو دولة من ذلك؛ والسبب فيه أن الدولة إذا انقرضت وجاءت دولة أخرى، فأصحاب الدولة الأولى يكونون في نهاية سعادتهم، ففيهم شَمَمٌ وأنَفة ومطالبة لصاحب الدولة الجديدة بحقوق لم

يعطوه عليها ثمنًا، بل هي مما أوجبها خدمتهم في الدولة الأولى، والوقت سيف والحكم للوقت، ولصاحب الدولة الجديدة نُصحاء ومتملِّقون وإن سفُلت بهم المرتبة، وسياسة الملك تقتضي تقديم من في تقديمه نظامه وأبهته لا جرم ترتفع الأسافل على الأعالي كثيرًا.

اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طَيْرَ إلا طيرُك، يا خالق الأسباب والمُسبِّبات والدواعي والبواعث والعزمات، لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ عِلمِنا، وأشهِدْنا عظيمَ رحمتك حتى لا نرجو أحدًا سواك، وتجلَّ علينا ببالغ قدرتك حتى لا نخاف أَحدًا غيرك. اللهم إنك تعلم أن الخضوع لغيرك والتملق لسواك فوق صبري وقاطعٌ لظهري لا يبلغه وُسْعِي ويضيق عنه ذرعي، فأغنني بك عمَّا سواك يا رب العالمين.

الفصل العاشر

(في تراجم العلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل)

وأقدِّم قبل الشروعِ في ذلك مقدمة:

قال القاضي عياض[180] في أخرويات (الشفاء) ما ملخصه: إن من استشهد بأحوال الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- في الدنيا على طريق ضَرْبِ المثل والحُجة لنفسه، أو على التشبه بهم عند هَضْمة نالته أو غضاضةٍ لحِقَته، ليس على طريق التأسِّي والتحقيق، بل على مقصد الترفيع لنفسه أو الهزل أو إعلاء في وصف، كقول القائل (إن كَذَبْتُ فقد كذب الأنبياء)، أو (صَبرتُ فقد صَبَرَ أولو العزم)، وكقول القائل:

[180] هو الإمام الحافظ عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ، ثم السبتي المالكي . عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وُلد في سنة ست وسبعين وأربعمائة. قال القاضي شمس الدين في «وفيات الأعيان» هو إمام الحديث في وقته ، وأعرف الناس بعلومه ، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم.

من تصانيفه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ط» و «الغنية - خ» في ذكر مشيخته، و«ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك - ط» و«شرح صحيح مسلم - خ» [ثم طُبع] و «مشارق الأنوار - ط» مجلدان، في الحديث، و«الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع - ط» في مصطلح الحديث وكتاب في «التاريخ». توفي عام 544هـ مقتولًا.

فرّ من الخلد فاستجارَ بنـــا

فصبَّر اللهُ قلبَ رضــــوان

فحقه إن دُرِئَ عنه القتل الأدبُ[181] والسِّجن وقوة تعزيره بحسب شنعة مقاله ومألوف عادته وقرينة كلامه أو خلاف ذلك، لأن كلامه وإن لم يتضمن سبًّا ولا غضًّا فما وَقَّرَ النبوة ولا أعطاها حقها.

[181] أَدَبَ (بالتخفيف) الوَلَدَ : وَجَّهَهُ إلى مَحَاسِنِ الأَخْلاَقِ والعاداتِ الحميدةِ. وأَدَّبَهُ (بتشديد الدال) المُعَلِّمُ لِتَصَرُّفِه السَّيِّئ: عاقَبَهُ على تَصَرُّفِهِ.

وقال أيضًا في إيراده حكاية ما ملخصه: إن حكاية الأقوال غير السديدة تدور بين الوجوب والاستحباب والمنع، فقد أجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهها عليهم، وحكى الله مقالات المفترين في كتابه على وجه الإنكار والوعيد عليها، وكذلك الحكاية على وجه الشهادة والتعريف بقائله والإنكار والإعلام بقوله والتنفير عنه والتجريح له فهذا دائر بين الوجوب والندب، وأما حكايةُ

سَبِّه صلى الله عليه وسلم والإزراءُ بمنصبه على وجه الحكايات والأسمار ومضاحك المجّان ونوادرِ السُّخَفاء، فكل ذلك ممنوع وبعضه أشد في المنع، فما كان عن غير قصد أو غير عادة، ولم يكن من البشاعة حيث هو، ولم يظهر استحسانه زجر ونهي عن العود إليه، وإن قوّم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن اتهم أنه اختلقه أو كانت تلك عادة له أو أظهر استحسانه لذلك أو كان مولعًا بالتحفظ لمثله .

ثم قال: وقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسِّير ما هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء يسيرة ذكروها غير مستبشعة ليروا نقمة الله من قائلها وأخذه المفتري عليه بذنبه.(182)- انتهى ملخصًا.

(182) في (خ): (بدَينه).

نخرج من كلامه أن ذكر الأحوال المدخولة حكايةً كان أو استشهادًا والإنكار والتعريف والرد وتبيين ما لله في ذلك الفعل من الحكمة في الحكاية.

وإنما قدمت هذه المقدمة لأنا سنذكر تراجم العلماء الذين زوى الله عنهم الدنيا في مساق الفلاكة، فقد يقول من شم طرفًا من الفقه: إن ذكر العلماء في مساق الفلاكة غَضٌّ من قدر العلم وتهاون بحرمته. والجواب عن هذا التوهم: أما أولًا فما قاله القاضي على ما قررناه في كلامه، على أن ما قاله القاضي عياض رحمه الله من التفصيل إنما هو في الله تعالى وملائكته وأنبيائه. وأما ثانيًا فلا نسلم مجيء مثل هذا التفصيل في الحكاية عن العلماء ولو سلم مجيئه في العلماء فلا نسلم مجيئه في التراجم؛ لأن أوصاف الكمال وأوصاف غير الكمال كل واحد منهما يشعر وصفه ونسبته إلى الشخص بانتقال الآخر عنه ورفعه، فلو اقتصر في التراجم على أحدهما لكان تلبيسًا وتدليسًا وإغراءً وحملًا على الجهل، وهذا إن لم يعيّنْ أو يرجّح ذكر الترجمة بطرفيها فلا أقل من أن يقتضي عدم المنع من ذكرها بطرفيها.

وقد يقال لا حاجة بنا إلى هذا البحث؛ لأن لفظ الفلاكة والمفلوك مجتنب في هذا الفصل إلا نادرًا، وإنما نذكر فيه تراجم العلماء ناقلين لها من المصنفات المعتمدة من غير إطلاق لفلاكة أو مفلوك على أحد، والعهدة في المنقول على المؤرخين، والعذر في اتِّباعهم في نقْلِه أنه لم تزل العلماء والمؤرخون يذكرون ذلك إملاء وتصنيفًا شائعًا ذائعًا من غير نكير، فكان إجماعًا من السلف على جوازه. وقد تقدم كلام القاضي في جواز الحكاية على جهة التعريف أو التنفير، وتقدم أيضًا ما قلناه على سبيل البحث من أن في ذكره أمنًا من التدليس والتجهيل. وأما الاعتذار عن إيراد

الفلاكة والمفلوك على الندور فهو أنّا نقول الفلاكة وإن أشعرت بتنقيص إلا أنا نذكرها في هذا الفصل معراة عن معنى التنقيص، والكلمات كثيرًا ما تكون حاملة لمعنيين فتعرى في هذا الفصل معراة عن معنى التنقيص، والكلمات كثيرًا ما تكون حاملة لمعنيين فتعرى من أحدهما مجازًا، وهذا في الكشاف في مواضع، فمنه ما ذكر في سورة الأعراف أن واو الحال هي واو العطف استعيرت لمجرد الوصل، وعلى الجملة فاستعمال الكل في الجزء مجاز شائع، أو نقول: المراد بالفلاكة المذكورة في هذا الفصل وقوع ما الأولى خلافه. واللغة اصطلاحية على قول. والألفاظ التي يدور عليها معنى في تصنيف كالخبن والطي في العروض اصطلاحية اتفاقًا، فقد سقط بهذا التقرير اعتراض من يدلع لسانه كالكلب مجادلًا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

اللهم عياذًا بك ممن قصَّر في العلم والدين باعُه، وطال في الجهل وأذى عبادك ذراعُه، فقد اتخذ بطر الحق وغمض الناس سُلمًا إلى ما يحبه ويرضاه، ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما يشتهيه ويأباه. ولياذًا بك ممن جعل الملامة بضاعته، والعذل نصيحته، يجعل عداوته وأذاه حذارًا وإشفاقًا، وتنفيره وتخذيله إسعافًا وإرفاقًا. متى برّز على الجهال بأصغريه ظن أنه قد زاحم العلماء بركبتيه.

إذا تقرر ذلك فاعلم أن الفلاكة على ضربين: أحدهما فلاكة مالية، ونعني بها كون الشخص غير محظوظ في أمور الدنيا المالية على ما قررناه في الفصل الأول، أو وقوع ما الأولى خلافه في الأمور المالية على ما قررناه في هذا الفصل. والثاني فلاكة معنوية، ونعني بها الأوصاف المخالِفة لمحاسن الطبيعة أو لمحاسن الشريعة من الأفعال المحرمة أو الأفعال المكروهة والأخلاق القبيحة المذمومة. وإذا عرفت انقسام الفلاكة إلى هذين القسمين: مالية ومعنوية، اتضح لك مناسبة التراجم الآتية في هذا الفصل لمقصود الفصل- وهذا حين الشروع. وأنا أنقل فيها ألفاظ المترجمين بحروفها من غير تصرف فيها؛ لتكون العهدة عليهم في ذلك.. والله المستعان.

«القاضي عبد الوهاب»

ابن علي بن نصر المالكي، كان بقية الناس،ولسان أصحاب القياس. ونَبَتْ به بغداد على عادة البلاد بذوي فضلها، وعلى حكم الأيام في مُحَبَّا فعلها، فخرج وخلع أهلها وودع ماءها وظلها. فلما

فصل عنها شيّعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملةٌ موفورةٌ وطائفةٌ كثيرةٌ فقال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية. وفي ذلك يقول:

سلامٌ على بغدادَ في كـل موطِن
وحُقٌّ لها مني سلامٌ مضاعــــفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلًى لهــا
وإني بشَطي جانبيهــا لعـارفُ
ولكنها ضاقَتْ عليَّ بأسْـــرها
ولم تكــنِ الأرزاقُ فيها تُساعــفُ
وكانتْ نخِلِّ كنتُ أهوى دُنوّه
وأخلاقه تنـــأَي بـه وتُخالِــفُ

ثم توجه إلى مصر لحمل لواءها وملأ أرضها وسماءها، وتناهت إليه الغرائبُ وانثالت عليه الرغائبُ، فمات في أول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها. زعموا إنه قال وهو يتقلب ونفسه تتصعد: لا إله إلا الله لما عِشنا متنا. تُوفي سنة 422هـ.

«ابن مالك»

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي الجياني، الملقب جمال الدين، صاحب التصانيف المبسوطة والمختصرة والنظم والنثر، شيخ النحاة في عصره، والإمام في اللغة. كان كثير الأشغال والاشتغال حتى إنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد. قال شارح التنبيه الشيخ أبو جعفر رفيق الأعمى نزيل حلب في ترجمته أول الشرح: خرج من الدنيا ولم يتعلق بأعراضها ولا قرطس سهمه في أغراضها.

قلت: لقد أحسن الشيخ أبو جعفر- رحمه الله- العبارة عن الفلاكة؛ فإن قوله (خرج من الدنيا.. إلى آخره) هو والفلاكة عبارتان عن معنى واحد. توفي رحمه الله سنة 672هـ.

«النضر بن شميل»

الشاعر التميمي المازني النحوي البصري، عالم بفنونٍ من العلم، صاحب غريب الحديث والشعر، وهو من أصحاب الخليل. خرج النضر يريد خراسان لما ضاقت عليه البصرة بالمعيشة فتبعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدِّث أو لغويّ أو عروضيّ أو إخباريّ، فقال: يا أهل البصرة، يعز عليّ فراقكم، ولو وجدت كيلجة باقلي ما فارقتكم. فلم يكن فيهم أحد يتكلف ذلك. ودخل على المأمون في ثوب مرقوع فقال له: يا نضر، ما هذا التقشف؟ فقال: شيخ ضعيف وحر شديد، فأتبرد بهذه الخلقان. قال: لا، ولكنك قَشِفٌ.(183)

(183) يروي هذه القصة ابن خلكان في وفيات الأعيان (5/398) نقلًا عن أخبار النحويين فيقول: «حدثني النضر بن شميل قال: كنت أدخل على المأمون في سَمَره، فدخلت ذات ليلة وعليَّ ثوب مرقوع، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخُلقان؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ ضعيف وحرُّ مَرْو شديد، فأتبرد بهذه الخُلقان. قال: لا، ولكنك قَشِف» أ.هـ.

ثم تجاذبا الأحاديث إلى أن أدى بهما الحديث إلى السِّداد بمعنى البلغة وسَدِّ الثلمة، فأورده المأمون بفتح السين، فرده النضر عليه وبين له أن المفتوح إنما هو القصد لا البلغة، فأمر له عند انصرافه بخمسين ألف درهم يقبضها من الفضل بن سهل، فصرفها له ثمانين ألف درهم عند وقوفه على سبب الصرف. وتوفي بمرو سنة 204هـ(184).

(184) وفي رواية (203) وقد ورد في (خ): (402) وهو خطأ من الناسخ، والصواب ما أثبتنا، انظر ترجمته في (نزه الألباء في طبقات الأدباء) لابن الأنباري (73-75) و(معجم المؤلفين(4/30).

«الأخفش الصغير»

هو علي بن سليمان النحوي. كان إمامًا في اللغة والأدب. وهو غير الأخفش الكبير؛ لأنه أبو الخطاب عبد الحميد، والأخفش الأوسط؛ لأنه سعيد بن مسعدة أبو سعيد. كان الأخفش الصغير يلازم المُقام عند أبي علي بن مقلة، وأبو علي يراعيه ويبرُّه، فشكا إليه في بعض الأيام ما هو فيه من شدة الفاقة وزيادة الإضاقة، وسأله أن يُعلم الوزير أبا الحسن علي بن عيسى ويسأله له إقرار رزق من جملة من يرتزق من أمثاله، ففعل فانتهره الوزير انتهارًا شديدًا وكان ذلك في مجلس حافل، فشق علي ابن مقلة ذلك ثم وقف الأخفش على صورة الحال فاغتم لها. وانتهت به الحال إلى أن أكل السلجم النَّيْء، فقيل إنه قبض على فؤاده فمات منه فجأة سنة 315هـ.

«التَّلَّعَفَرْي»

محمد بن يوسف بن مسعود، الأديب البارع، شهاب الدين أبو عبد الله التلعفري الشاعر المشهور. اشتهر ذكره وشاع شعره وكان خليعًا معاشِرًا وامتُحن بالقمار، وكلما أعطاه الملكُ الأشرفُ شيئًا يقامر به، فطرده إلى حلب، فمدح بها صاحبها العزيز فأحسن إليه وقرر له رسومًا فسلَك معه مسلكَ الملكِ الأشرف؛ فنادي في حلب أنَّ من قامَرَ مع الشهاب قطعنا يده. فامتنع الناس من اللعب معه، فضاقت عليه الأرض، وترك الخدمة وجاء إلى دمشق، ولم يزل يستجدي بها ويقامر حتى بقي في أتُّون(185) من الفقر، ثم نادم في الآخر صاحِبَ حماة وبها مات سنة خمس وسبعين وستمائة.

185) الأتُّون (بفتح الهمزة وتشديد التاء المضمومة وقد تخفف): موقد كبير ، موقد نار الحمّام، وأتُون المعركة وأتُون الحرب: شِدَّتها وضراوتها.

«الترمذي»

محمد بن أحمد بن نصر أبو جعفر الترمذي الشافعي(186). لم يكن للشافعية في وقته أرأس منه ولا أورع، وكان من التقلل على حال عظيم. أُخبر أنه تقوَّت في سبعة عشر يومًا بخمس حبات أو قال ثلاث حبات، قيل له: كيف عملت؟ قال: لم يكن عندي غيرها، فاشتريت بها لفتًا، فكنت آكل منه كل يوم واحدة. تُوفي سنة خمس وتسعين ومائتين. وقد اختلط في آخر عمره.

186) هو غير الإمام الترمذي صاحب الجامع للسنن، والعلل الصغرى، وكتاب الشمائل المحمدية، واسمه: محمد بن عيسى ابن سورة بن الضحاك، المولود في قرية من قرى مدينة ترمذ.

«يحيى بن علي»

ابن محمد بن الحسن بن بسطام أبو زكريا الخطيب، التبريزي، الشيباني، إمام اللغة والنحو، تخرج عليه خلقٌ كثيرٌ، شرح الحماسة والمتنبي والمعلقات وغير ذلك، وكانت حصلت له نسخةٌ من التهذيب في اللغة للأزهري في عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيقَ ما فيها وأخْذَها عن عالِمٍ باللغة فدُل على أبي العلاء المعرّي، فجعل الكتابَ في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ولم يكنْ له ما يستأجرُ به مركوبًا فنَفَذَ العرَقُ من ظهْره إليها فأثَّر فيها البللُ وهي ببعض الوقوف ببغداد، وإذا رآها من لا يعرفُ صورةَ الحال فيها ظنَّ إنها غريقةٌ وليس بها سوى عرقِ الخطيب. ومن شعره:

فمن يسأم من الأسفار يومًا

فإني قد سئمتَ من المَقـــامِ
أقمنا بالعراقِ على رجـال
لِئامٍ ينتمون إلى لئـــــــامِ
.توفي فجأة في جمادي الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة

«الأبيوردي»

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الأبيوردي، اشتغل في الفقه على أبي حامد وبرع فيه. قال الخطيب في تاريخه: كان شاعرًا فصيحًا حسن الاعتقاد متجمّلًا في فاقة. يُقال إنه مكث سنتين لا يقدر على جبة يلبسها في الشتاء ويقول لأصحابه: بي عِلَّةٌ تمنعُني لبسَ المحشو. تُوفي في جمادي .الآخرة سنة خمس وعشرين وأربعمائة

قلت: ما أحسنَ قولَه:(بي علة تمنعني لبس المحشو) فإنه من الإيهام والتورية، والعِلة هي عِلة .الفلاكة. شفانا الله منها

«الشنتريني»

عبد الله بن صارة أو سارة(187)، الشاعر المشهور. كان شاعرًا ناثرًا ناظمًا ماهراً إلا إنه [كان قليل الحظ، ومن الحرمان لم يسعه مكان ولا اشتمل على سلطان](188). كان يبيع المحقَّرات، وبعد جهد ارتقى إلى كتّابة بعض الولاة، فلما كان من خَلْع الملوكِ ما كان أتى إلى إشبيلية أسودَ حالًا من الليل وأكثر انفرادًا من سُهيل، وتبلَّغ من الوِراقة فانتحلها في كساد سوقها وخلوّ طريقها، :وفيها يقول

(187) .جاء في وفيات الأعيان أن اسمه: أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الأندلسي الشنتريني

(188) وردت هذه العبارة في وفيات الأعيان : (إلا أنه كان قليل الحظ إلا من الحرمان، لم يسعه مكان، ولا اشتمل عليه .سلطان)

أما الوِرَاقةُ فهي أنكـــرُ حِرفة
أوراقُها وثمارُها الحِرمـــانُ
شبَّهتُ صاحبَها [بحالةِ](189) إبرةٍ

(189) .في وفيات الأعيان: (بصاحب)

تكسو العُراةَ وجسمُها عُرْيـانُ

.توفي سنة 517هـ(190)

190) ورد في خ (417) والصواب ما أثبتنا (انظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان 3/93، 94 ، حاجي خليفة: كشف الظنون 795، ابن العماد: شذرات الذهب 4/55، 56).

«العز»

حسين بن محمد الشاعر الضرير الأربلي(191)، تلميذ أفضل الدين الخلنجي، كان الشاعر المذكور بصيرًا بالعربية رأسًا في العقليات كلها إلا أنه كان فيلسوفًا رافضيًّا، تاركًا للصلاة، رث الهيئة، زريّ الشكل، قبيح المنظر، يصدر منه ما يُشعر بفساد العقيدة والانحلال، وابتُلي مع العمى بطلوعات وقروح، وكان قذرًا لا يتوقّى النجاسات، يهين الأكابر إذا حضر مجلسهم ولا يعتني بهم، ومع ذلك كان له هَيبةٌ وحُرمة. توفي سنة 660هـ.

191) ورد اسمه في الوافي بالوفيات للصفدي وفي ذيل مرآة الزمان لليونيني هكذا: الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الغنوي أبو محمد الضرير الأربلي المنشأ والملقب بالعز.

يحيى أو محمد أو عمر»(192)»

192) اشتُهر بلقب السهروردي ثلاثة أولهم: ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي (490- 563هـ) وهو وهو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي، أبو النجيب السهروردي. ولد بسهرورد ، وسكن بغداد وبها وفاته. من آثاره «آداب المريدين» و«شرح الأسماء الحسنى» و«غريب المصابيح».

الثاني: شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن السابع الهجري، ومؤسس الطريقة السهروردية الصوفية، صاحب كتاب (عوارف المعارف).[انظر ترجمة الدلجي له ص من هذا الكتاب].

الثالث (وهو المقصود هنا): أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي ويلقب بشهاب الدين، واشتُهر باسم السهروردي المقتول تمييزًا له الآخرين الملقبين بنفس لقبه.

ابن حبش الملقب شهاب الدين السهروردي، أبو الفتوح المعروف بالشهاب المقتول. كان أوحد زمانه في الفلسفة والحكمة، مفرط الذكاء حسن العبارة، وله تصانيف منها (الهياكل والتلويحات) و(الرقم القدسي في تفسير القرآن على رأي الأوائل) و(اللمحات في المنطق). ورد إلى حلب واجتمع بالملك الظاهر غازي فأعجبه كلامه فمال إليه، فكتب أهلُ حلب إلى السلطان صلاح الدين: أدْرِكْ ولَدَك وإلا تلف، فكتب السلطانُ إلى الظاهر بإبعاده عنه ثم كتب إليه بقتله. كان دنيء الهمة زَرِيَّ الخِلقة دَنِسَ الثياب وَسِخَ البدن، لا يغسل له ثوبًا ولا جسمًا ولا يدًا من

زُهُومة، ولا يقص ظفراً ولا شعراً، وكان القملُ يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه. تُوفي سنة ست وثمانين وخمسمائة.

«الحافظ عبد الغني»

ابن عبد الواحد أبو محمد المقدسي(193)، أنزله الشيخ عبد القادر هو ورفيقه الشيخ موفق الدين بمدرسته، وما كان يُمكِّن أحدًا من النزول فيها لما تفرس فيهما من الخير والصلاح. كان إمام وقته في الحديث روايةً ودرايةً، وصنَّف الكتب الحِسان منها (نهاية المراد في كلام خير العباد) نحوًا من مائتي جزء. ومحنه كثيرة، منها أنه لما دخل أصفهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعًا، فطلبوه من الجندي(194) ليقتلوه فاختفى وخرج من أصفهان في إزار. ومنها أنه لما عاد إلى أصفهان دخل الموصل فقرأ كتاب (الجرح والتعديل) للعقيلي وذكر فيه أبا حنيفة وجرحه فثار عليه أصحاب أبي حنيفة وحبسوه؛ ولولا البرهان بن البرقي الواعظ خَلَّصَه لقتلوه. ومنها لما قدم دمشق من الموصل كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة ويجتمع الناسُ إليه وحصل له قَبول فكان سريع الدمعة فحسده الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت النسر فشوَّش على الحافظ، فصار الحافظُ يقعد بعد العصر فذكر عقيدته على الكرسي، فاتفق محيي الدين بن زكي الدين والخطيب الدولعي وجماعة من الدماشقة وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين برغش فقالوا: هذا قد أضلَّ الناسَ ويقولُ بالتشبيه. فعقدوا له مجلسًا وأحضروه وناظرهم فأخذوا عليه مواضِعَ، وارتفعت الأصواتُ. فقال صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم. فأمر الأساري فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر الحافظ وما كان في حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة ففاتتهم صلاة الظهر.

(193) هو تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي المنشأ الصالحي الحنبلي. (انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، 21/444-446)

(194) لم أعثر له على ترجمة.

ثم سافر الحافظ إلى مصر ونزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديثَ، وكان الملك العزيز في الصيد، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وبعثوا بالفتوى إلى العزيز فقال: إذا رجعنا أخرجناه. فاتفق أنه وقع عن فرسه واشتغل بنفسه ومات، وجاء الأفضل إلى مصر، ولما دخل العادلُ مصرَ ومعه

وزيرَه ابنَ شكر نُقِل إليه ما نُقِل إلى العزيز، فعَرف بزُهده وفضله فأكرمه عند الدخول إليه. وأقام الحافظُ في مسجد المصنع يذكر الحديثَ، فكتب أهلُ مصر إلى ابن شكر يقولون: قد أفسدَ عقائدَ الناسِ، ويذكرُ التجسيمَ على رؤوس الأشهاد. فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب، فحدَّثَ الشيخُ تاجُ الدِّين الكنديُّ أن الوزير طلبَه ليكتبَ بنفيه، وكان الحافظُ قد تُوفي فقال للكاتبِ: اكتب بنفيه إلى المغرب. ولم يكن عَلِم بموته، فقلت: ما تحتاجون تنفونه، هو قد نفاكم. فقال ابن شكر: وكيف؟ قلت: الساعة أخبرني شخص بموته. فوجم ابن شكر ساعةً كأنه ندم. وكانت وفاته في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ستمائة.

«محمد بن عبد الرزاق»

ابن رزق بن أبي بكر العدل العالم شمس الدين بن محمد المحدث الرسعني الحنبلي، كان من أعيان الشهود تحت الساعات. ومن شعره:

ولو أن إنسانًا يبلغ لوعتــي
ووجدي وأشجاني إلى ذلك الرَّشا
لأسكنتُه عَيني ولم أرضَها له
ولولا لهيبُ القلبِ أسكنتُه الحَشَا

سافر إلى مصر في شهادة ثم عاد على حمار فسُرق حمارُه وما عليه في الطريق فرجع إلى القاهرة شاكيًا فلم يحصل له مقصود فخرج متوجِّهًا إلى دمشقَ فأتى ليسقِي فرسَه بالشريعة(195) فغرق ولم يظهر له خبر. توفي سنة 689هـ.

(195) الشَّرِيعةُ: مورد الماءِ الذي يُسْتَقَى منه بلا رِشاء.

«الخليل»

ابن أحمد بن عمرو الفراهيدي الأزدي، كان إمامًا في علم النحو، وهو الذي استنبط العَروض وعنه أخذ سيبويه وغيره. كان متقللًا من الدنيا صبورًا على العيش الخشن الضيق، وكان يقول: لا يجاوزُ همِّي ما وراء بابي. كان له راتب على سليمان بن حبيب ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان والي فارس والأهواز، فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أَبلِـغ سُلَيمانَ أَنّي عَنهُ في سَعَـــةٍ

وفي غِنًى غير أنّي لستُ ذا مـــال
سَخّى بِنَفسي أَنّي لا أَرى أَحَـــدًا
يموتُ هَزَلًا ولا يبقَى على حـــال
الرِّزقُ عَن قَدَرٍ لا الضَّعفُ يَنقُصُـهُ
وَلا يَزيدُكَ فيهِ حَولُ مُحتـــــــالِ
وَالفَقرُ في النَّفسِ لا في المالِ نَعرِفُهُ
وَمِثلُ ذاكَ الغِنى في النَفسِ لا المـالِ

فقطع عنه سليمان الراتب فأنشد بيتين في ذلك، فأعاد راتبه. قال تلميذه النضر بن شميل: أقام الخليل في خُصٍّ من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابُه يكتسبون بعلمه الأموال. كان إذا قدم عليه سيبويه يقول: مرحباً بزائر لا يُمَلُّ. تُوفي سنة 170هـ.

«أبو الطيب الطبري»

طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر، أبو الطيب الطبري، شيخ الشافعية، أخذ عن أبي حامد الإسفراييني.(196) وأبي الحسن الماسرجسي، وصنَّف في الأصول والجدل وغير ذلك. كان له ولأخيه عمامة وقميص إذا لبسهما هذا جلس الآخر في البيت. وقد قال في ذلك القاضي أبو الطيب:

(196) أبو حامد ، أحمد بن أبي طاهر: محمد بن أحمد الإسفراييني ، شيخ الشافعية ببغداد . ولد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وتوفي سنة ست وأربعمائة. قال الشيخ أبو إسحاق في «الطبقات»: انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا ببغداد ، وعلق عنه تعاليق في شرح المزني ، وطبق الأرض بالأصحاب ، وجمع مجلسه ثلاثمائة متفقه .

قومٌ إذا غَسَلوا ثِيابَ جَمالِهِم
لبسوا البيوتَ إلى فَراغِ الغاسِلِ

بلغ مائة وستين سنة صحيح العقل والفهم والأعضاء يُفتي ويَقضي ويَشتغل. تُوفي سنة 450هـ.

«أبو عثمان»

ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، أخذ عنه مالكُ بن أنس رضي الله عنه. قال بكر بن عبد الله الصنعاني: أتينا مالك بن أنس فجعل يحدِّثنا عن ربيعة الرأي.(197) فكُنَّا نستزيدُه في حديثِ ربيعة،

فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة؟ ها هو نائمٌ في ذلك الطاق. فأتينا ربيعة فأنبهناه وقلنا له: أنت ربيعة؟ قال: نعم. قلنا: أنت الذي يحدِّث عنك مالكُ ابن أنس؟ قال: نعم. فقلنا: كيف حَظِيَ بكَ وأنتَ لم تحظَ بنفسِك؟ قال: أما علمتم أن مثقالًا من دولة خير من حِمْلِ عِلْمٍ؟! تُوفي سنة 136هـ.

(197) ربيعة الرأي(ت: 136هـ):هو أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فرّوخ، مولى آل المنكدر التيميين- تيم قريش. التابعي الجليل، فقيه أهل المدينة. عرف بربيعة الرأي، لاشتهاره باستعمال الرأي والقياس، لكن هذا لا يعني أنه هجر السنة، قال عبد العزيز ابن أبي سلمة: لما جئت العراق جاءني أهل العراق فقالوا: حدثنا عن ربيعة الرأي، فقلت: يا أهل العراق تقولون ربيعة الرأي، والله ما رأيت أحدًا أحفظ لسنة منه. وكان يحيى بن سعيد - وهو من كبار المحدثين - يحدث فإذا حضر ربيعة كف عن التحديث إجلالًا له مع أنه من أقرانه.

«المازني»

أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني البصري، كان إمام عصره في النحو والأدب، وكان في غاية الورع. ومما رواه المبرِّدُ أن بعض أهل الذمة قصده ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وبذل له مائة دينار في تدريسه، فامتنع أبو عثمان من ذلك. فقال له المبرِّد: أَتَرُدُّ هذهِ المنفعةَ مع فاقَتك وشِدَّة إضاقتك؟ فقال: إنَّ هذا الكتاب يشتملُ على ثلاثمائة وكذا كذا آية من كتاب الله، ولستَ أرى أنْ أمكِّن ذِمياًّ منها غَيْرَةً على كتابِ الله تعالى. فاتَّفَقَ أنْ غَنَّتْ جاريةٌ بحضور الواثق بقول العرجي:

أَظلومُ إنَّ مُصَابَكُم رَجُلًا* (198)*

(198) البيت بتمامه:
أَظلومُ إنَّ مُصَابَكُم رَجُلًا
أهدى السَّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ

واختلف من بالحَضْرة في رفْع (رجل) ونصْبه فأشخصه الواثقُ لإعرابِ البيت، فلما أعربه أمر له بألف دينار.

تُوفي سنة 649هـ. وموضع الاستشهاد قول المبرد: أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ ولا يُقال: كان زاهدًا. بدليل قول المترجمين له إنه كان شديدَ الورَع لأنَّ الورَع لا يستلزم الزهدَ بدليل قبوله الألف الموهوب له؛ لأن الفاقة الدائمة يلزمها حوائج مجتمعة ومصارف مؤخرة لا تفي بها الألف ولا ما فوقها، والدنانير إنما هي دنانيرُ بغداد وهي دراهمُ في الحقيقة.

«السيرافي»

أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي، شرح كتاب سيبويه وصنّف عدة تصانيف. كان نزهًا عفيفًا حسن الأخلاق، وكان معتزليًّا ولم يظهر منه شيء، وكان لا يأكل إلا من كَسْبِ يدِه: ينسخ ويأكل. تُوفي سنة 368 هـ.

«نجم الدين»

ابن أخي قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان. كان فقيهًا فاضلًا، وولي القضاء ببعض البلاد الشامية، وكان مهوسًا بالحكمة، ويقول عن نفسه: أنا حكيم الزمان. فانقطع رزقُه بهذا السبب ومُقِتَ ونَسبوه إلى انحلال العقيدة فسافر إلى الديار المصرية وقعد مع الشهود حتى مات سنة 762هـ.

«الأنماطي»

إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الحافظ البارع، تقي الدين أبو الطاهر ابن الأنماطي المصري الشافعي، كان إمامًا ثقة حافظًا فصيحًا واسع الرواية ناظمًا ناثرًا بعيد الشبيه معدوم النظير، إلا إنه كان كثير الدعابة مع المُرْد. مات سنة 619هـ.

«بدر الدين بن مالك»

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، كان نحويًّا عارفًا بعِلم البيان والعروض والأصول والمنطق، ذكيًّا، إلا أنه يُنسب إلى لَعِبٍ ومُعاشَرة من لا تليق معاشرتُه. تُوفي سنة 686هـ.

«العفيف التلمساني»

سليمان بن علي بن عبد الله، الأديب البارِع، كان حسن العشرة كريم الأخلاق ذا وجاهة، وخدم في عدة جهات من المكس، كان يُتهم بالخمر والفِسق والقيادة كما قاله في الجزء السابع من (دول الإسلام مختصر تاريخ الإسلام) لعلي بن خلف بن كامل الغزي الشافعي. قال الشيخ قطب الدين: رأيت جماعة ينسبونه إلى رقة الدين والميل إلى مذهب النصيرية(199). وحكى تلميذه البرهان بن الفاشوشة قال: رأيت ابنه في مكان بين ركبدارية(200) وذا يكبس رجليه وذا يبوسه،

فتألمت لذلك وانقبضت، ودخلت إلى الشيخ وأنا كذلك، فقال: ما لك؟ فأخبرته بالحال الذي وجدت عليه ابنه محمدًا، فقال: أفرأيته في تلك الحالة منقبضًا حزينًا؟ فقلت: سبحان الله! كيف يكون ذلك؟ بل كان أَسَرَّ ما يكونُ. فهوّن الشيخُ عليّ وقال: لا تحزن أنت إذا كان هو مسرورًا. فعرفت قدر الشيخ وسعيه. قال الذهبي: هذا هو الشيخ الذي لا يستحي الله من عذابه. تُوفي سنة 690هـ.

199) النصيرية هي طائفة من الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، تميز عن بقية الإثني عشرية بغيمانهم بالدعوة الباطنية، وهي سرية تعليم وممارسة العبادة وظهرت في القرن الثالث للهجرة.

200) الركبدارية: لفظ فارسي معناه الفرسان.

«الحريري»

علي بن أبي الحسن بن منصور، أبو الحسن ، وأبو محمد، مُقدَّمُ الطائفةِ الحريريَّة(22) صاحب الزاوية، كان له مُكاشَفات وكَرَامات، وكان عنده من القيام بواجب الشريعة، كما قاله الشيخ شهاب الدين أبو شامة، ما لم يقم به أحد من المتشرعين ظاهراً وباطنًا، ومن إقامة شرائع الحقيقة ما لم يكن عند أحد في عصره من المحافظة على محبة الله وذكره والدعاء إليه والمعرفة به. وأكثر الناس يغلطون في أمره الظاهر وفي أمره الباطن.

صَحِبَ الشيخَ أبا عليّ المغربل خادِمِ الشيخ رَسْلان، كان يلبس الطويل والقصير والمدور والمفرج والأبيض والأسودً والعمامة والمئزر والقلنسوة وثوب المرأة والمطرز والملون، ولما حُبس سأله أصحابه أن يسأل ويتشفع، فلم يفعل، فلما أقام في الحبس أربع سنين زاد سؤالهم فأمرهم أن يكتبوا قصة فيها من الخلق الضعيف إلى الرأي الشريف ممن هو ذنب كله إلى من هو عفو كله. سبب هذه المكاتبة الضعف عن المعاتبة «أصغر خدم الفقراء على الحريري».

فقيرٌ ولكن من صَلاحٍ ومن تُقى
وشَيْخٌ ولكنْ في الفُسوق إمامُ

فسعوا في القصة وأرادوا أن تصل إلى السلطان، فما قرأ أحدٌ من الدولة القصةَ إلا ورمى بها، فبلغه ذلك فاحتد وقال: ما قلت لكم؟ ألم أنهكم عن السعي؟ وأقام بالحبس ست سنين وسبعة أشهر. كان يعاشر الأحداثَ ويصحبهم ويقيمون عنده، ولم يكن عنده مراقبة ولا مبالاة، بل يدخل مع الصبيان الأحداث ويعتمد معهم ما يسمونه تخريباً، وكان له قَبول عظيم لا سيما عند

الأحداث، فإنه كان إذا وقع نظره على أحد من الأحداث مال إليه بحيث لا ينتفع أهله به. تُوفي سنة 645هـ.

«القطب الشيرازي»

قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي، كان إمام عصره في المعقولات وفي غاية الذكاء وله التلاميذ الكثيرة والتصانيف المشهورة، منها شرح المختصر لابن الحاجب. كان كريمًا متطوحًا إلا أنه كان متهاونًا بالدين مُحبًّا للخمر، ويجلس في حِلَق المساخر، كما قاله الإسنوي في طبقاته. ومع ذلك كان معظَّمًا عند ملوك التتار فمن دونهم، وهو تلميذ النصير الطوسي. توفي سنة 710هـ.

«ابن دريد»

محمد بن الحسن بن دُريد بن عتاهية، الأزدي اللغوي البصري، إمام عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق. كان يشرب الخمر إلى أن جاوز تسعين سنة. قال ابن شاهين: كنا ندخل على ابن دريد فنستحي مما نرى من العيدان المعلَّقة والشراب مصفًى موضوعًا. توفي سنة 321هـ.

«يحيى بن أكثم»

ابن محمد التميمي المروزي، أحد أعلام الدنيا، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل وغيره، وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعًا. وكانت كتب يحيى في الفقه أجَلَّ كتبٍ، وتركها الناس لطولها. وكان له كتب في الأصول أيضًا. وكان من أدهى الناس وأخبرَهم بالأمور. كان إذا رأى فقيهًا سأله عن الحديث، أو محدِّثًا سأله عن النحو، أو نحويًّا سأله عن الكلام فيُخجله ويقطعه. كان ابن زيدان الكاتب يكتب بين يدي يحيى بن أكثم وكان غلامًا متناهي الجمال فقرص القاضي خدَّه فخجل الغلامُ واستحيا وطرح القلم من يده فقال له: خذ القلم واكتب فأملاه:

أيا قمرًا خمشتُه فتغضَّبـــــــا
وأصبـح لي مـــن تِيهِه متجنِّبَـــا
إذا كنت للتخميش والعضِّ كارهًا

فكُنْ أبدًا يا سـيدي متنقِّبَـا
ولا تُظهرِ الأصداغَ للناس فتنـةً
وتجعل منها فوق خديك عَقْرَبَـا
فتقتلَ مسكينًا وتفتنَ ناسكًـا
وتترك قاضي المسلمين مُعَذَّبَـا

ولما تواتر النقلُ عن يحيى إلى المأمون في هذا المعنى أراد امتحانه فأغرى به مملوكًا في غاية الجمال وذهب إلى الخلاء ثم تجسس عليه فسمعه يقول له: لولا أنتم لكنا مؤمنين. فدخل المأمون وهو ينشد بيتي ابن حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهرًا
فأعقبنا بعد الرجـاء قنـوطُ
متى تصلُح الدُّنيا ويصلحُ أهلُها
وقاضي قضـاة المسلمين يلوطُ

ذكر ذلك كله ابن خلكان في تاريخه، وذكره الحصريُّ في كتابه الذي سماه: (زهر الآداب) وتحامل عليه في هذا المعنى بما لا يليق ذكره، وذكر ولوع الشعراء به. ومما أنشده فيه قول الشاعر:

يا ليت يحيى لم تلِدْه أكثمه
ولا تطأ أرضَ العـراق قدمُه
ألْوَطُ قاضٍ في الآنام نعلمه
أيّ دواةٍ لم يلِقْها قلمُـه
وأيّ جُحْرٍ لم يَلِجْه أرقُه

توفي سنة 242هـ.

«محمد»

ابن علي بن يوسف بن هود، الشيخ الزاهد الكبير بدر الدين أبو علي بن هود المرسي، أحد الأجلاء في التصوف، ترك الحشمة وتغرَّب، وصحب ابن سبعين واشتغل بالفلسفة والطب

وتُرَّهَات الاتحادية وزَهَدِيّات التصوّف وخلط هذا بهذا. كان ذا هيبة وسكون وتلامذة، [على رأسه قبعة وعلى جسده دَلَقٌ(201)](202)، وكان غارقًا في الفكرة، قليل الصلاة والذكر، متواصل الأحزان. حُمِل مرةً إلى والي البلد وهو سكران أخذوه من حارة اليهود، وكان له مشاركات في علوم شتى. توفي سنة 699 هـ بدمشق.

(201) الدَّلَق: فرو يؤخذ من دويبة مثل الهرة.

(202) عبارة (خ): «على رأسه قمع دلك وعلى جسده دلو» ولا يخفى ما بها من اضطراب والصواب ما أثبتنا نقلا عن ط.

«القاضي الرفيع»

عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل قاضي قضاة دمشق، رفيع الدين أبو حامد الشافعي، كان فقيهًا فاضلًا متكلّمًا مناظِرًا متفلسفًا رديء العقيدة مغترًّا، ثم ولى قضاء دمشق في أيام صاحبها الملك الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة السامري فاتفق هو وأمين الدولة في الباطن على المسلمين، فكانت عنده شهود زور ومدعون زور تدَّعي وتشهد على شخص بألف دينار فيأمره بالصلح. قال أبو المظفر ابن الجوزي: حدثني جماعة من الأعيان أنه كان فاسد العقيدة دهريًّا مستهزئًا بأمور الشريعة، يجيء إلى صلاة الجمعة سكران، وإن داره كانت مثل الحانة. ثم أوقعت الدنيا بينه وبين الوزير فعذره السامري وسعى به عند السلطان فاعتقل ببعلبك واستأصل ماله ثم نُقل إلى جبل لبنان وخُنق هناك أو دُفع من شاهقٍ فوقع فمات سنة 643هـ.

«البدر التستري»

بدر الدين محمد بن أسعد التستري، إمام وقته في الأصلين والمنطق والحكمة. وضع تعاليق على البيضاوي والطوالع والمطالع متضمنة لنكت غريبة وإن كانت عباراتها قلقة ركيكة، وشرح كتب ابن سينا. كان مداومًا على لعب الشطرنج، رافضيًّا، كثير الترك للصلاة. قال الإسنوي: ولهذا لم يكن عليه أنوارُ أهل العلم ولا حُسن هيئتهم مع ثروته الزائدة وحسن شكله. توفي بهمذان في نيف وثلاثين وسبعمائة.

«أبو عبيدة»

اللغوي النحوي مَعْمَر بن المثنى، لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم منه، وكان الغريب يغلب عليه وأخبار العرب وأيامها، وكان يكسر الشعر ولا يقيم وزنه، وإذا قرأ أو

حَدّثَ لَحَنَ اعتمادًا منه، وكان وَسِخًا ألثغ مدخولَ النّسَب هَجّاءً، يميل إلى مذهب الخوارج، لا تُقبل له شهادة عند أحدٍ من الحكام؛ لأنه كان يُتَّهم بالميل إلى الغلمان. قال الأصمعي: دخلت أنا وأبو عبيدة يومًا المسجدَ فإذا على الأسطوانة التي يجلس إليها أبو عبيدة:

صَلّى الإلهُ على لوط وشِيعتــه
أبا عبيدة قُلْ بالله آمينـــــــا

فقال لي: يا أصمعيُّ، امحُ هذا. فركبت ظهره ومحوته بعد أن أثقلته، فقال: أثقلتني وقطعت ظهري. فقلتُ: لقد بقيت الطاء. فقال: هي شرُّ حروف البيت. وكان الكاتب لها أبو نواس وبعد البيت:

فأنتَ عندي بلا شكّ بقيتُهم
منذ احتلمْتَ وقد جاوزتً تسعينَا

توفي سنة 209هـ.

«ابن هانئ»

أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي الشاعرالمشهور، كان متهمًا بمذهب الفلاسفة، مشتهرًا بحب الخمر. أضافه شخص ببرقة فأقام عنده في مجلس الأنس أيامًا، فيقال إنهم عربدوا عليه فقتلوه سنة 362هـ.

«صاعد»

الربعي اللغوي البغدادي، أبو العلاء، صاحب كتّاب الفصوص، كان محسنًا في السؤال، حاذقًا في استخراج الأموال، غير إنه كان يُتهم بالكذب في نقله؛ فلهذا رفض الناس كتّابه، ولما ظهر للمنصور كذبُه في النقل وعدم تثبته رمى كتّاب الفصوص في النهر فقال فيه بعض شعراء عصره:

قد غاص في البحر كتّابُ الفصوص
وهكذا كلُّ ثقيــــلٍ يغـــوص

فلما سمعه صاعد أنشد:

عاد إلى عنصره إنمــــــا

تخرج من قعر البحور الفصوص

توفي سنة 417هـ بصقلية.

«ابن النحاس»

بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد، الإمام العلامة، كان من أذكياء بني آدم وله خبرة بالمنطق وإقليدس، مشهور بالدين والصدق مع إطراء التكلف والتجمل وصغر العمامة، فيه ظُرف النحاة وانبساطهم، وكان يتحدث في تعليمه وخطابه بلغة عامة الحلسيين، ولا يتقعر في عبارته وأظنه لم يتزوج. تُوفي سنة 618هـ.

«أبو الحسن»

علي بن صاعد الصدفي المنجم المعروف بابن يونس المصري، المشهور صاحب الزيج الحاكمي المعروف بزيج ابن يونس في أربع مجلدات كبار. كان ابن يونس المذكور أبله مغفلًا يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة، وكان طويلًا وإذا ركب ضحك الناس منه لشهرته وسوء حاله ورثاثة لباسه، وكان له مع هذا الهيئة إصابة بليغة غريبة في النجامة لا يشاركه فيها غيره، وكان أحد الشهود ومتفنناً في علوم كثيرة. دخل مرة على الحاكم العبيدي صاحب مصر ومداسه في يده فقبل الأرض وجلس والمداس إلى جانبه والحاكم يراها وهو بالقرب منه ولما انصرف قَبَّلَ الأرضَ ولبسها وانصرف. تُوفي سنة 399هـ.

«التاج المراكشي»

تاج الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف المراكشي، حصَّل علومًا عديدة أكثرها بالسماع لأنه كان ضعيف البصر مقاربًا للعمى، كان ذكيًّا عجولًا محتقِرًا للناس كثيرَ الوقيعة فيهم؛ ولهذا عمل عليه قاضي القضاة جلال الدين القزويني حتى أخرجه من مصر إلى دمشق مرسمًا عليه. توفي فجأة سنة 752هـ.

«العلم الأصفوني»

علم الدين أحمد بن محمد بن عبد العليم المعروف بالأصفوني، كان رجلًا فاضلًا مشارِكًا في علوم متعددة مشاركة جيدة، لكنه كان شرس الأخلاق مائلًا إلى الحسد لا تدوم له صحبة مع أحد لا سيما من يرى إقبال الناس عليه من أهل العلم. توفي سنة 749هـ.

«الفخر الفارسي»

الفيروزآبادي، نزيل مصر، الشافعي الصوفي المحقق المحدث، له مصنفات كثيرة منها كتاب (مطية النقل وعطية العقل) و(الأصول والكلام) وغير ذلك. كان فاضلًا بارعًا فصيحًا بليغًا متكلمًا ذا معاملات ورياضات ومقامات، إلا أنه كان بذيء اللسان كثير الوقيعة في الناس لمن عرف ومن لم يعرف، كثير الجراءَة لا يفكر فيما يقول، وعنده دعابة في غالب الوقت، كذا قاله عمر بن الحاجب وابن نقطة فيما نقله عنهما عماد الدين بن كثير في طبقاته. تُوفي سنة 622هـ.

«الشيخ خضر الكردي»

شيخ الملك الظاهر، كاشَفَ السلطانَ في أشياءَ كثيرةٍ أصاب فيها، وكان حظيًّا عنده وله المكانة الرفيعة لديه، ينزل السلطان إليه في كل أسبوع مرة أو مرتين، وبنى له جامعًا. شُهِد عليه عند السلطان بالزنا واللواط وشرب الخمر، وكان السلطان قد قُدِّمت له هدية من صاحب اليمن من جملتها كَرٌّ(203) نفيس فأعطاه السلطان للشيخ خضر فدفعه لامرأة وزنى بها وأحضروها وأحضروا الكر بين يدي السلطان. توفي سنة 671هـ.

(203) كر: و الجمع: أكرار: كساء، ثوب.

«ابن الخشاب»

أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب، البغدادي، العالم، المشهور في الأدب والنحو والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب، له في العلوم اليد الطولى. كان فيه بذاذة(204) وقلة اكتراث بالمأكل والملبس. زاد الحافظ الذهبي ناقلًا له عن ابن النجار وجمال الدين القفطي: إنه كان بخيلًا وسخًا قذرًا، تبقى عِمامته على رأسه حتى تتقطع مما يلي رأسه من الوسخ ويرمي عليها العصافير ذَرْقَها فيتركه على حاله، ولم يتزوج قط ولا تَسَرَّى، وكان يستقي بجرة مكسورة ويلعب بالشطرنج حيثما وجده ويقف على المشعبذ وأصحاب القرود ويستعير الكتاب فلا يعيده متعللًا

بضياعه بين كتبه، وكان مزاحًا. وساق ابن النجار عنه من ذلك حكايات، فمنها أنه قرأ عليه بعض المعلمين قول العجاج(205):

(204) البذاذة : رثاثة الهيئة، وحال بَذَّة أي سيئة.

(205) هو عبد الله بن رؤبة بن صخر ، من قبيلة تميم، ويكنى أبا الشعثاء، وهي ابنته. والعجاج لقب له، سُمي به، كما قال الأصمعي، لشطر قاله في أرجوزة له، يفخر فيها بقومه ويذكر أيامهم، حيث يقول:

حتى يَعِجَّ ثَخَنًا من عجعجا

وقد نبغ ابنه رؤبة بن العجاج حتى بلغ مبلغ أبيه في الرجز. وقد ولد العجاج في الجاهلية ونشا فيها نشأته الأولى، وفي الإسلام أدرك الصحابة الأولين، ولقي الصحابي الجليل أبا هريرة وروى عنه أحاديث.

أطَرَبًا وَأَنْـتَ قِنَّسْـرِيٌّ

وَإِنَّمَا يَأْتِي الصِّبا الصَّبيُّ(206)

(206) ورد هذا الرجز في ديوان العجاج، رواية الأصمعي (ص: 293) برواية أخرى:

أطـربًا وأنتَ قِنَّسْرِيُّ

والدهرُ بالإنسانِ دَوَّاريُّ

والقِنَّسْرِيّ: الكبيرُ المُسِنُّ الكبير القديمُ. ودوَّاري: دائر. يقول: إن الدهر يتصرَّف بالإنسان، ويدور به. يقول: كيف تطرب وأنت كبير، يوبِّخه بذلك. وإنما يصبو فيُعْذَرُ الصَّبيُّ ومن لا سنَّ له، ولا تجربة عنده. أ.هـ. الذي أَتى عليه الدهر. وعلى ذلك فالشطر الثاني (وَإِنَّمَا يَأْتِي الصِّبا الصَّبيُّ) ليس من كلام العجاج.

فجعله الصِّبا بالياء فيهما فقال له: هذا عندك في المكتب، فاستحى. ومنها أنه سأله بعض تلامذته فقال: القفا يُمد أو يُقصر؟ فقال يمد ثم يقصر. ومنها أنه سأل بعض تلامذته: ما بك؟ فقال: فؤادي يوجعني. فقال: لو لم تهمزه ما وجعك. توفي سنة 567هـ.

«ابن بري»

أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن بري المقدسي، الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية، كان علَّامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره، وله على كتاب (الصِّحاح) للجوهري حواشٍ فائقة استدرك فيها عليه مواضع، كان عارفًا بكتاب سيبويه، وكانت فيه غفلة، ولا يتكلف في كلامه ولا يتقيد بالإعراب بل يسترسل في حديثه كيفما اتفق. قال يومًا لبعض تلاميذه: اشتر لي هندبًا بعروقو. فقال له التلميذ: هندبًا بعروقه. فعزَّ عليه كلامُه وقال: لا تأخذه إلا بعروقو وإن لم يكن بعروقو فلا آكله. ومن غفلته أنه كان يدخل الحطب والبيض جميعًا في كمه وعليه الثياب الفاخرة، وربما جاء إلى البيت فلم يجده مفتوحًا فيرمي بالبيض من الطاق إلى داخل ويضع العنب بين الحطب فيتفجر وينقط على رجليه فيقول: مَطَرٌ والسماءُ صاحية؟!. وقريب من حكاية رمي

البيض ما نَقل عن أبي على الشلوبين.(207) أنه وقع من يده كراس في الماء وبقي معه آخر لجره به من الماء فتلفا جميعًا. تُوفي سنة 582هـ.

(207). هو عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأَزْدي، أبو علي، الشلوبيني أو الشلوبين، والشلوبين في لغة الأندلسيين : هو الأبيض الأشقر . مولده في سنة اثنتين وستين وخمسمائة بإشبلية وتوفي بها سنة 645هـ . من كبار العلماء بالنحو واللغة، من كتبه «القوانين» في علم العربية، ومختصره «التوطئة» و «شرح المقدمة الجزولية» في النحو، كبير وصغير، وغيرها.

«الباجي»

علاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالباجي، الإمام في الأصلين والمنطق، الفاضل فيما عداها، من أذكياء الناس، قريحته لا تكاد تنقطع إلا إنه كان قليل المطالعة جدًّا ولا يكاد أحد يراه ناظرًا في كتاب، وكذلك.(208) نُقل عن محمد بن زياد أبي عبد الله بن الأعرابي صاحب اللغة أنه كان يحضر مجلسه زهاء مائة نفس كل يسأله أو يقرأ عليه وهو يجيب من غير كتاب. قال أبو العباس: لزمته بضع عشرة سنة ما رأيتُ بيده كتابًا قط. تُوفي ابن الأعرابي سنة 221 هـ.(209).

(208). أي وكذلك الانقطاع عن المطالعة كان يفعله ابن الأعرابي.

(209). انظر ترجمة ابن الأعرابي في سير أعلام النبلاء (12/687) وطبقات الزبيدي (135-137) ومعجم الأدباء (196-18/189).

وكان الباجي المذكور يجلس في حوانيت الشهود وناب في الحكم بالشارع، ثم ترك ذلك كله وأعرض عن التكلف في حله كله. تُوفي سنة 714هـ.

«الحافظ المِزي»

بكسر الميم، أبو الحجاج جمال الدين يوسف الحلبي المعروف بالمِزي. انتهت إليه الرحلة من أقطار الأرض. كان إمامًا في اللغة والتصريف، صنف (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) وكتاب (الأطراف) ودرس بدار الحديث. كان منقبضًا عن الناس طارحًا للتكلف فقيرًا. تُوفي سنة 742هـ.

«أبو جعفر»

أحمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس المصري النحوي، كان من الفضلاء وله التصانيف المفيدة منها: إعراب القرآن، والناسخ والمنسوخ، وتفسير أبيات سيبويه بما لم يسبق إلى مثله، وفسر عشرة دواوين وأملاها، وله كتاب طبقات الشعراء، وله شرح الحماسة، وله غير ذلك، وكان فيه

خَساسةٌ وتقتيرٌ على نفسه، وإذا وُهِب عمامةً قطعها ثلاثَ عمائم بَخَلًا وشُحًّا، وكان يلي شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته ومع هذا كان للناس رغبة كثيرة في الأخذ عنه. تُوفي بمصر سنة 338هـ، وكان سبب موته أنه جلس على دَرَج المقياس على شاطئ النيل وأخذ يقطع العروض من الشعر، فقال بعض العوام: هذا يسحَرُ النيلَ حتى لا يزيد فتغلو الأسعارُ، فدفعه برجله في النيل فلم يوقف له على خبر. والنحاس نسبة إلى الصُّفر.

«مروان بن أبي حفصة»

الشاعر المشهور المشكور، كان يمدح الخلفاء والبرامكة ومَعْنَ بنَ زائدة، وكان يحصل له من الأمول شيء كثير جدًّا، وكان مع ذلك من أبخل الناس لا يكاد يأكل من اللحم من بُخله ولا يشعل في بيته سراجًا ولا يلبس من الثياب إلا الكرابيس[210] والفرو الغليظ. خرج يومًا إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئًا فاجعل لي منه شيئًا. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانيق. تُوفي سنة 182هـ.

210) الكرباس: ثوب غليظ خشن، والجمع كرابيس.

«محمد بن داود»

ابن علي، أبو بكر الفقيه، ابن الفقيه الظاهري ابن الظاهري[211]، كان عالمًا بارعًا أديبًا شاعرًا فقيهًا ماهرًا. قال ابن كثير: قال ابن الجوزي في المنتظم: وقد ابتُلي بحب صبي اسمه محمد بن جامع ويقال محمد بن زخرف ويعشقه، ولم يزل ذلك دأبه فيه مع العفاف حتى كان سبب وفاته. وقيل عنه إنه كان يبيح العشق بشرط العفاف. وحكى هو عن نفسه أنه لم يزل يتعشق مذ كان في الكُتَّاب وأنه صنف كتاب (الزهرة) في ذلك، وكان يتناظر هو وأبو العباس بن سريج[212] فقال له ابن سريج يومًا: أنت بكتاب الزهرة أمهر منك بهذا. فقال له: أتعيرني بكتاب الزهرة وأنت لا تحسن تتم قراءته؟ وهو كتاب جمعناه هزلًا فاجمع أنت مثله جَدًّا. توفي سنة 297هـ.

211) هو أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصفهاني المعروف بالظاهري. كان أبو عالمًا أيضًا ومعروفًا بالظاهري.
212) في (ط) و(خ): (شريح) والتصويب من وفيات الأعيان (4/260) والوافي بالوفيات (3/50).

«الحسن بن سفيان»

ابن عامر أبو العباس الشيباني النسوي، محدث خراسان، والذي كانت تضرب آباط الإبل إليه في معرفة الحديث والفقه. رحل إلى الآفاق وتفقه على أبي ثور وأخذ الأدب من أصحاب النضر بن شميل. اتفق له أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم لطلب الحديث فضاقت عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئًا ولا يجدون ما يبيعونه للقوت واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال، وأنفت نفوسهم من ذلك والحاجة تضطرهم، فاقترعوا فيما بينهم أيّهم يقوم بهذا الأمر، فوقعت القرعة على الحسن بن سفيان فقام عنهم واختلى في زاوية المسجد وصلى ودعا فما انصرف من الصلاة حتى دخل شاب حسنِ الهيئة فقال: الأمير ابن طولون يعتذر إليكم وهذه مائة دينار لكل واحد منكم. فقلنا: وما الحامِلُ؟ فقال: إنه أحب أن يختلي فجاءه فارس بيده رمح في الهواء، وقال: قم فأدْرِكِ الحسنَ وأصحابَه فإنهم في المسجد الفلاني جِياعًا. تُوفي سنة 303هـ.

«بشر بن غياث»

أبو عبد الرحمن المرسي، المتكلم شيخ المعتزلة وإليه تنسب الطائفة المرسية، راجَ عند المأمون وحظي عنده. كان لا يحسن النحو وكان يلحن لحنًا فاحشًا كما قاله ابن كثير. تُوفي في ذي الحجة سنة 218 هـ وصلى عليه عبيد الشوبيري المحدث فلِيم في ذلك فقال: ألا تسمعون كيف دعوتُ له في صلاتي؟ قلت: اللهم، إن عبدك هذا كان ينكر عذابَ القبر، اللهم، فأذقه عذاب القبر. وكان ينكر شفاعة نبيك فلا تجعله من أهلها، وكان ينكر رؤيتك في الدار الآخرة فاحجب وجهك الكريم عنه. وهذا معنى ما قاله بعض السلف: من كَذَّبَ بكرامة لم ينلها. قاله ابن كثير.

«واصل بن عطاء المعتزلي»

أبو حذيفة المعروف بالغزَّال لملازمته الغزَّالين، أحد الأئمة البلغاء المتكلمين، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينًا؛ ولكونه قبيح اللثغة في الراء كان يخلص كلامه منها ولا يفطن لذلك أحد لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه، وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

وجعلت وصلي الراء لم تنطق به
وقطعتني حتى كأنك واصلُ

كان طويل العنق فنظر إليه عمر بن عبيد فقال من قبل أن يكلمه: لا يصلح هذا ما دامت عليه هذه العنق. توفي سنة 131هـ.

«أبو حاتم الرازي»

محمد بن إدريس بن المنذر، أبو حاتم الحنظلي الرازي، أحد الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل، وهو قرين أبي زرعة الرازي، تغمَّدهما الله برحمته. سمع الكثير وطاف الأقطار والأمصار وروى عن خلق من الكبار، وحدَّث عنه الربيع بن سليمان ويونس بن عبد الأعلى وهما أكبر منه. قال لابنه عبد الرحمن: يا بني، مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ. وذُكر أنه لم يكن له شيء ينفق منه في بعض الأحيان، وأنه مكث ثلاثًا لا يأكل شيئًا حتى استقرض من بعض أصحابه نصف دينار. تُوفي سنة 277هـ.

«سيبويه»

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، الحُجَّة في النحو والعلم فيه، إمام النحاة. شرح النحاة كتابه فانغمروا في لُجج بحره واستخرجوا من جواهره حاصله ولم يبلغوا إلى قعره. وزعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه وقد ساعده جماعة في تصنيفه كانوا نحوًا من أربعين نفسًا هو أحدهم، وهو أصول الخليل بن أحمد ونكته فادَّعاه سيبويه لنفسه. هكذا نقله ابن كثير عن ثعلب ونقله في (مرآة الزمان) عن أبي عبد الله المرزباني وتعقبه وقال: هذا وهم من المرزباني لإجماعهم على أن سيبويه هو الذي جمع أوزان العرب وحصرها وقرر أصول الكتاب وفصوله ورتب أبوابه. وقال ابن كثير بعد نقله ذلك عن ثعلب: وقد استبعده السيرافي في طبقات النحاة. ولما قدم سيبويه بغداد وناظرَ الكسائي وأصحابَه، فلم يظهر عليهم سأل عمن يرغب من الملوك في النحو، فقيل: طلحة بن طاهر، فشخصَ إلى خراسان، فلما انتهى إلى ساوة مَرِضَ مَرَضَ الموت، فتمثَّل:

يُؤَمِّل دُنيا لتبقــــى له
فماتَ المؤَمِّلُ قبلَ الأمَـــل
حثيثًا يروِّي أصول الفسيل
فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرَّجُــل

تُوفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة 180هـ. والفسيل والفسيلة الوديّ، وهو صغار النخل والجمع الفُسْلان، قاله الجوهري.

«شَرِيك »

ابن عبد الله بن أبي شَرِيك أبو عبد الله القاضي النَّخَعي الكوفي، سمع أبا إسحاق السبيعي وغير واحد، أكرهه المنصورُ على القضاء، كان مشكورًا في حكمه وإمضائه إيَّاه على الأكابر. ذكر الخطيب بسنده أن عمر بن الهياج قال: كنت صاحب شَريك فأتيته يومًا نخرج إليّ في فرو ليس تحته قميص وعليه كساء، فقلت له: لقد أصبحتَ(213) عن مجلس الحكم. فقال: غسلتُ أمس ثيابي فلم تجف، وأنا منتظر جفافها، اجلس. قال: فجلست فجعلنا نتذاكر باب العبد يتزوج بغير إذن مولاه. وكانت الخيزران قد وجهت رجلًا نصرانيًّا وكتبت إلى موسى بن عيسى لا يعصي له أمرًا، فظلم رجلًا فتعلق ذلك الرجلُ بشَريك فاقتصَّ له منه بيده، ثم عاد يذاكر عمر في العبد تزوج كأن لم يفعل شيئًا. وقد ساق الحكاية بطولها في مرآة الزمان ناقلًا لها عن الخطيب. قال في مرآة الزمان: وقد رُوي عن ابن عون أن شَريكًا كان يشرب النبيذ المثلث على رأي أهل العراق وبذلك عابوه. تُوفي سنة 177هـ.

(213) أصبح القوم: دخلوا في الصباح. قال الأزهري: صبَحْتُ فلانًا: أتيته صباحًا، والتصبح النوم بالغداة، وفلان ينام الصُّبحة والصَّبْحَةَ أي ينام حتى يصبح، وهو المعني المقصود هنا.

«ابن يونس»

موسى بن محمد بن منعة، المعروف بابن يونس الموصلي الشافعي، أحد المتبحرين في العلوم المتنوعة، قيل إنه كان يتقن أربعة عشر عِلمًا. كان يقرأ عليه الحنفيون كتبهم وكان يقرأ عليه أهل الكتاب التوراة والإنجيل فيقرون إنهم لم يسمعوا بمثل تفسيره لها. وكان الشيخ تقي الدين بن الصلاح يبالغ في الثناء عليه فقيل له يومًا: مَنْ شيخه؟ فقال: هذا الرجل خلقه الله عالمًا، لا يقال على من اشتغل فإنه أكبر من هذا. قال ابن خلكان: وكان يُتهم في دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه. تُوفي سنة 639هـ.

وأنشد العماد المعري في ابن يونس:

أجدك إن قد جاد بعد التعبُّس
غزال بوصل لي وأصبح مؤنســـي
وعاطيته صهباء من فِيه مزجُها

كرقة شِعري أو كدين ابن يونـــس

قال الموفق عبد اللطيف: وكان مستغرق الوقت والعقل في حب الكيمياء حتى صار يستخف بكل ما عداها.

«أبو بكر النيسابوري»

عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الحافظ الفقيه الشافعي العلامة المعروف بأبي بكر بن زياد، قال يوسف القواس: سمعت أبا بكر النيسابوري يقول: أتعرف من أقام أربعين سنة لم ينم الليل ويتقوّت كل يوم بخمس حبات، ثم قال: أنا هو. تُوفي سنة 322هـ.

«محمد».(214)

(214). هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني، نسبة إلى موطن أبيه في تلمسان من مدن الجزائر، لقب بالشاعر الظريف، ويقال له أيضًا ابن العفيف، نسبة إلى أبيه عفيف الدين التلمساني، شاعر ظريف من شعراء العصر المملوكي، ارتحل أبوه من الجزائر إلى القاهرة، وفيها ولد الشاب الظريف، ثم انتقلت أسرته إلى دمشق، وبقي فيها حتى توفاه الله. تتلمذ لعدد من علماء عصره وفي مقدمتهم ابوه الذي كان متصوفاً وأديبًا وشاعرًا، ثم ابن الأثيرالحلبي إسماعيل بن أحمد ومحيي الدين النووي وغيرهم. كان حسن الخط أديبًا، فارس الكتّابة، وولي عمالة الخزانة في دمشق واتصل بعدد من أعيان عصره ومدحهم. توفي الشاعر العفيف وهو غض الشباب لم يتخط السابعة والعشرين من عمره. وقد رثاه والده بقصيدة يتطاير شرر الأسى والحرقة من خلال كلماتها انظرها في ديوانه ص 14، تحقيق شاكر هادي شكر.

شمس الدين، أبو عبد الله ابن الإمام العلامة عفيف الدين التلمساني، الشاعر ابن الشاعر، تعاطى الكتّابة وولي عمالة الخزانة، كان فيه عِشرة ولَعِبٌ وخَلاعة، كما قاله العزي في مختصر تاريخ الإسلام. قال في الذيل: وكان شمس الدين محمد المذكور قد أضافه أولاد المشطوب وطلبوا منه أن يبيت عندهم فقال لهم: أعلموا والدي بمبيتي عندكم حتى لا يتشوش خاطره هو والوالدة. فبعثوا إلى والده الشيخ عفيف الدين ولدهم العماد إسماعيل وهو يومئذ من أحسن الفتيان صورة لإعلام الشيخ عفيف الدين بمبيت ولده عندهم، فتكلَّف عفيفُ الدين بديهًا هذين البيتين وبعث بهما صحبة العماد إسماعيل:

بعثتموا لي رسولًا في رسالتـــه

حلو المراشِف والأعطافِ والهيـف

وقدتما ويسير ذاك إنكمـــــا

أوْقَدْتُما النار في بادي الضنـى دنِف

فرد عليه ولده شمس الدين بديهاً وكتب على ظهر الرقعة:

مولاي كيف انثنى عنك الرسول ولم

تكن لوردة خدَّيه بمقتطِـــــف.(215)

(215) .وردت في الديوان (بمرتشِف).

جائتكَ من بحر ذاك الحسن لؤلـؤة

فكيف رُدّت بلا ثّقب إلى الصّــدف

لما قدم الشجاعي دمشق خاف منه شمس الدين لكونه كاتب الخزانة خوفًا عظيمًا انقطع منه قلبه فمات شابًّا سنة 688هـ.

«ابن حزم»

أبو محمد علي الظاهري، الإمام العلامة الحافظ المجتهد ، كان كثير الوقوع في العلماء فنفرت عنه القلوب وتألَّب عليه الفقهاء واتفقوا على بغضه وتضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامَّهم عن الدنوِّ منه فأقصته الملوك وشرَّدته عن بلادها حتى انتهى إلى بادية فلاة فتوُفي بها سنة 456هـ.

«أبو الحسن»

علي بن بوعت.(216)، كان شاعرًا مجيدًا إلا إنه كان قليل الحظ من الدنيا، لم يزل رقيق الحال ضعيف القدرة إلى أن توفي وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة بمصر سنة 416هـ.

(216) .لم أعثر له على ترجمة.

«أبو حاتم السجستاني»

قال التيفاشي.(217) وغيره: كان أفضل أهل زمانه علمًا وورعًا وبلغ من فضله أنه كان يتصدق كل يوم بدينار ويختم القرآن في كل أسبوع، وكان من أظرف أهل زمانه وأطيبهم خلوة وأحسنهم مفاكهة إلا إنه كان مولعًا بالغلمان، يذهب فيهم مذهب الاستمتاع بالنظر لإفضاء الوطر. وذُكر أن المبرِّد أبا العباس كان يحضر حلقته يقرأ عليه، وكان المبرد من أجمل أهل زمانه فقال فيه أبو حاتم:

(217) هو أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر ابن حمدون، شرف الدين القيسي التيفاشي (580- - 651هـ) - ، من أهل تيفاش (من قرى قفصة، بأفريقية) ولد بها، وتعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. من كتبه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار - ط) ومنه نسخ مخطوطة فيها زيادات على المطبوع، و (الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء - ط) و (خواص الأحجار ومنافعها - خ) و (فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) موسوعة كبيرة، اختصرها ابن منظور - صاحب لسان العرب - وسمى الجزء الأول منها (نثار الأزهار، في الليل والنهار - ط) .و(نزهة الألباب، فيما لا يوجد في كتاب - خ) مبتور الآخر، أدب ومجون. (الأعلام للزركلي)

وقف الجمالُ بخـده
فسما به حــذو الإمـــام
حَرَكـاتُه وسُكونُـه
تحيا بها مُهـجُ الأنـــام
فإذا خلـوتُ بمثلـه
وعزمت فيه على اغتــــرام
لم أعْدُ أفعالَ العَفـا
ف وذاك أوْكدُ للغـــــرام
نفسي فداؤك يا الـ
ـعباس حل بك اعتصـــام
فارحمْ أخاك فإنــه
نَزْرُ الكَرى بادي السقـــام
وأنلْه ما دون الحَـرا
م فليسَ يطمعُ في الحَـــرام

وقرأت من خط الشيخ شهاب الدين السجستاني: «أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ثم البصري النحوي المقري صاحب المصنفات أخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي وغيرهم وحمل الناس القرآن والحديث والعربية، وكان جماعًا للكسب وله اليد الطولى في اللغة والشعر والعروض والمعمي، ولم يكن حاذقًا في النحو، وله إعراب القرآن، وكتاب ما يلحن فيه العامة والمقصور والممدود، وكتاب القسي والنبال والسهام، وكتاب الهجاء،

وكتاب الشتاء والصيف، وكتاب النحل والعسل. وكان أبو العباس المبرد يلازم حلقته وهو غلام وسيم في نهاية من الجمال فعمل فيه أبو حاتم...» وذكر الأبيات المذكورة. تُوفي سنة 250هـ.

«ابن الجبَّان»

الأصفهاني، محمد بن علي بن عمر بن الجبَّان الأصفهاني أبو منصور، أحدُ حُسَّاب الرَّي وعلمائها الأعيان، جيد المعرفة باللغة، ومن تصانيفه: كتاب أبنية الأفعال، وكتاب الشامل في اللغة وهو كتاب كبير، وشرح الفصيح، وهو حسن. قال ياقوت: وجدت خطه على كتاب الشامل له وقد كتبه في سنة 416هـ، وذكره يحيى بن منده فقال: بينه وبين الصاحب بن عباد مكاتبات، وعَلِق غلامًا من الديلم يقال له البركاني[218] فاتفق للغلام أنه عزم على الحج فلم يجد ابن الجبان بدًّا من موافقته ومرافقته فلما بلغا الميقات وأحرما وأخذا في التلبية قال ابن الجبان: لبيك اللهم لبيك والبركاني ساقني إليك، وكان هِجِّيراه[219]:

[218] في (ط): (التركاني)، والتصويب من معجم الأدباء لياقوت الحموي (6/1087).
[219] الهِجِّيرَى: الدَّأْبُ والعادةُ. يقال: ما زال هذا هِجِّيراه : ما يُولَعُ بذِكره.(ولا تكاد تستعمل إلاَّ في العادة الذَّميمة).

يا نسيم الروض في السحر
وشبيه الشمس والقمـــــر
إن من أسهرتَ ليلتَـــــه
لقريرُ العيـــن بالسَّهـــر

ثم ابتلى بفراقه فكتب إليه:

يا وحشتـــي لفراقكـم
أترى يـــدوم عليَّ هـــذا
الموتُ والأجل المتـــا
حُ وكل معضلــــة ولا ذا

نقلت هذه الترجمة من خط الشيخ نور الدين الأبياري.

«السهيلي»

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد أبو القاسم، وأبو زيد وأبو الحسن الخثعمي، السهيلي الأندلسي المالقي النحوي الحافظ. ناظر عليَّ بن الحسن بن الطراوة في كتاب سيبويه وسمع منه كثيرًا من كتب اللغة. ذُكر أنه استخرج (الروض الأنف) من نيّفٍ وعشرين ومائة ديوان، وله كتاب (التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن) وكتاب شرح آية الوصاية وشرح الجمل ولم يتمه واستُدعي إلى مراكش ليسمع بها وبها تُوفي. قال ابن خلكان: وكان يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمى خبرُه إلى صاحب مراكش فطلبه وأحسن إليه وأقام بها نحو ثلاثة أعوام ثم تُوفي سنة 581هـ.

«ابن دحية الكلبي»

العلامة، أبو الخطاب، عمر بن حسن بن علي بن محمد بن الجميل المعروف بابن دحية الكلبي، كان يكتب لنفسه: ذو النسبتين بين دحية والحسين، وأنه سِبط أبي البسام الحسيني الفاطمي. كان له التصانيف الفائقة والرحلة الواسعة والدراية الحسنة بالنحو واللغة والحديث متنًا وإسنادًا، وروى عن جماعة وروى عنه جماعة. طَوَّل الحافظُ الذهبي روايته ومن روى هو عنه وأطال ترجمته إلى أن قال: قال ابن واصل: وكان أبو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث متهمًا بالمجازفة في النقل، وبلغ ذلك الملك الكامل وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة فأمره أن يعلق شيئًا على أحاديث الشهاب فعلق كتابًا تكلم فيه على أحاديثه وإسناده، فلما وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد حين: قد ضاع مني فعلِّق لي مثله. ففعل، فجاء في الثاني بمناقضة الأول، فعلم السلطان صحة ما نُقل عنه وعزله من دار الحديث.

قال ابن نقطة: كان يدعي أشياءَ لا حقيقة لها. ذكر لي أبو القاسم بن عبد السلام وهو ثقة قال: نزل عندنا ابن دحية فكان يقول: أنا أحفظ صحيح مسلم والترمذي فخلطنا له أحاديث من الترمذي بأحاديث موضوعة وامتحناه بها فلم يعرف منها شيئًا. قال ابن خلكان: وصنع للمظفر صاحب أربل قصيدة ادَّعى أنها له فظهرت في ديوان الأسعد ابن مماتي. قال الذهبي: وكذلك نسبه شيء لا حقيقة له، قرأت بخط ابن مسدي[220]: كان أبوه تاجرًا يُعرف بالكلبي - بين الفاء والباء- وهو اسم موضع بدانية[221]، وكان أبو الخطاب يكتب أولًا «الكلبي معًا» إشارة إلى النسب والبلد. تُوفي سنة 633هـ.

(220. هو محمد بن يوسف بن موسى بن يوسف الأزدي، المهلبي، الغرناطي، المعروف بابن مسدي (أبو بكر، جمال الدين، أبو المكارم) (598- 663هـ) محدث، حافظ، فقيه، مقرئ، أديب، ناظم، ناثر. أصله من غرناطة، ورحل منها إلى المشرق، فقرأ على علماء تلمسان وتونس وحلب ودمشق وسكن مصر، وجاور بمكة، وقتل بها في شوال.
من تصانيفه: إعلام الناسك بأعلام المناسك، معجم الشيوخ في ثلاثة مجلدات، المسند الغريب جمع فيه مذاهب علماء الحديث المسلسلات في الحديث، والأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة.[الوافي بالوفيات ولسان الميزان]
(221. دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقًا. [معجم البلدان

«المسعودي»

شارح المقامات، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود، أبو سعيد وأبو عبد الله بن أبي السعادات المسعودي الخراساني، روى عن جماعة وروى عنه جماعة، وكان المحدِّثون يليِّنُونه(222)، كما قال الذهبي، وقال ابن خليل الأدمي: لم يكن في نقله بثقة ولا مأمون. تُوفي سنة 584هـ.

(222. اللين ضد الخشونة. والمراد باللين عند المحدثين : هو ما ضعُف ضعفًا يسيرًا. وهو مصطلح اللين مصطلح قديم الاستعمال بين النقاد الأوائل في وصف رجال الحديث، ، ويفهم من استعمالاتهم أنه وصف للراوي الضعيف ضعفًا خفيفًا إما لسوء حفظه، أو لسبب انفراده بالروايات، لا لانحرافه عن صفة العدالة.

«الشاطبي»

القاسم بن فِيرُّة بن خلف الرُّعيني الأندلسي الشاطبي المقرئ أحد الأعلام، كان إمامًا علامة نبيلًا واسع المحفوظ كثير الفنون بارعًا في القراءات وعِلَلِها حافظًا للحديث أستاذًا في العربية، وقصيدتاه في القراءات والرسم مما يدل على تبحره. قال الذهبي: وصبر على فقر شديد ثم قدم القاهرة فطلبه القاضي الفاضل للإقراء بمدرسته فأجاب بعد شروط اشترطها. قال السخاوي: أقطع بأنه كان مكاشَفًا وأنه سأل الله تعالى كفاف حاله: ما كان أحد يعلم أي شيء هو. توفي سنة 595هـ(223).

(223. جاء في سير أعلام النبلاء أن تاريخ وفاته الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة.

«ابن طارق»

أحمد بن طارق بن سنان أبو الرضا الكركي الأصل البغدادي المولد، التاجر المحدث، سمع من أبي نصر موهوب بن الجواليقي وأبي الفضل بن الأرموي وأحمد بن طاهر المهسي وجماعة غيرهم، طول روايته وذكر من روى عنه الذهبي ثم قال: قال ابن النجار: إلا إنه كان غاليًا في التشيع شحيحًا مقترًا على نفسه، يشتري من لقم المكدين(224). ويتبع المحدثين ليأكل معهم ولا يشعل في بيته ضوءًا

وخلف تجارة تساوي ثلاثة آلاف دينار، مات في سنة 592 هـ وبقي في بيته أيامًا لا يُدْرَى به، وأكلت الفأرةُ أذنيه وأنفه.

224) يشتري من لقم المكدين: أي يأكل مما يأكل منه الفقراء مع قدرته وغناه. والمكدي: هو من افتقر بعد غِنى.

«القاضي الفاضل»

أبو علي القاضي الأشرف أبي الحسين اللخمي العسقلاني البيساني، مسودّات رسائله لا تقصر عن مائة مجلد. قال الموفق عبد اللطيف: كان قليل النحو لكن له دُربة قوية تعرض له قلة اللحن، وكان متقللًا في مطعمه ومنكحه وملبسه، لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين وكان فيه سوء خلق يكتمه ولا يظهره. تُوفي سنة 596هـ.

«ابن بيان»

ذو الرياستين محمد بن محمد ذي الرياستين بن أبي الطاهر الأبياري المصري أبو الفضل، سمع من خلق، وكتب الكثير بخطه، وتولى ديوان النظر في الدولة المصرية، وتقلَّب في الخدم في الأيام الصلاحية، وكان القاضي الفاضل ممن يغشى بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول إليه، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل: هذا رجل كبير القدر يصلح أن يُجرى عليه ما يكفيه ويجلس في بيته. ففعل به ذلك، ثم إنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الإسلام ثم عاد وعليه ديون ثقيلة وأدى أمره إلى أن جلس في الجامع الأزهر، وكان ينتقص القاضي الفاضل [ويراه](225) بالعين الأولى، والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناسُ معه مراعاة له. وكان بعض من له عليه دين أعجميًّا جاهلًا فصعد إلى سطح الجامع وسفَّه عليه وقبض على لحيته ففر وألقى نفسه من سطح الجامع فتهشَّم وحُمل إلى داره فبقي أيامًا ثم مات سنة 596هـ.

225) في (ط): (لا يراه) والصواب ما أثبتنا نقلا عن (خ) والمعنى أنه ينظر إليه في حالته عندما كان يأتي بابه يرجو الوصول إليه ولا يراعي أنه أصبح في مكانة عالية وذو حظوة عند السلطان.

«ابن بصيلة»

عبد الله بن خلف بن رافع، الحافظ أبو محمد بن بصيلة، المكي الأصل القاهري، كان حافظًا محصِّلًا عالمًا بالتواريخ والوفَيات، وجمع مجاميع مفيدة، وشرع في تاريخ مصر وعجز عن إكماله لضيق ذات يده. تُوفي سنة 598هـ.

«شميم»

علي بن الحسن بن عنبر، الأديب أبو الحسن النحوي المعروف بشميم الشاعر الحلي، قدم بغداد وتأدَّب بها على أبي محمد بن الخشاب وغيره، وحفظ كثيرًا من أشعار العرب وأحكم اللغة العربية وقال الشعر الجيد إلا أن حمقه أخَّره. قال الذهبي:قرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموماني: قال بعض العلماء: وردت إلى آمد سنة 594هـ فرأيت أهلها مُطبقين على وصف هذا الشيخ، فقصدته ودخلت عليه فوجدته شيخًا كبيرًا نحيف الجسم وبين يديه حمدان مملوء كتبًا من تصانيفه، فسلمت عليه ثم قلت: إنما جئت لأقتبس من علومك شيئًا. فقال: أي علم تحب؟ قلت: الأدب. قال: إن تصانيفي في الأدب كثيرة؛ وذلك أن الأوائل جمعوا أقوال غيرهم وبَوَّبُوها وأما أنا فكل ما عندي من نتائج فكري ،فإنني قد عملت كتاب الحماسة وأبو تمام جمع أشعار العرب في حماسته وأنا فعلت حماسة من شعري، ثم سبَّ أبا تمام وقال: رأيتُ الناس مجمعين على استحسان خمريات أبي نواس فعملت كتاب الخمريات من شعري، ورأيتهم مجمعين على خطب ابن نباتة فعملت خطبًا، وجعل يُزري بالمتقدمين ويصف نفسه ويجهِّل الأوائل ويقول: ذاك الكلب قال كذا! قلتُ: فأنشدني شيئًا من شعرك. فأنشدني من الخمريات له، فاستحسنت ذلك فغضِب وقال: ويلك، ما عندك غير الاستحسان؟! فقلت: فما أصنع؟ قال: تصنع هكذا، ثم قام يرقص ويصفق إلى أن تعب ثم جلس يقول: ما أصنع ببهائم؟ ثم شَطَح في الكلام وقال: ليس في الوجود إلا خالقان واحد في السماء وواحد في الأرض، فالذي في السماء هو الله تعالى والذي في الأرض أنا، ثم التفت إليّ وقال: هذا لا يحتمله العامة لكونهم لا يفهمونه، أنا لا أقدِر على خَلْق شيءٍ إلا خلق الكلام. فقلت: يا مولانا، أنا مُحدِّث وإن لم يكن في المحدِّث جرأة مات بغيظه، وأحب أن أسألك عن شيء. فتبسم وقال: ما أراك تسأل إلا عن مُعضلة، هات. فقلت: لم سُميت شميمًا؟ فشمني وقال: اعلم أنني بقيت مدة لا أتغوط ثم يجيء كالبندقة من الطين فكنت آخذه وأقول لمن أنبسط إليه: شِمَّه، فإنه لا رائحة له؛ فلُقبت بذلك. أرضيت يا ابن الفاعلة؟

قال ابن النجار: كان أديبًا مبرزًا في علم اللغة والنحو، لكنه كان أحمق قليل الدين رقيعًا يستهزئ بالناس ولا يعتقد أن في الدنيا مثله ولا يكون أبدًا. وحكى ابن العديم بسنده أنه كان لا يأكل إلا التراب فكان رجيعه يجيء يابسًا لا ريح له فيجعله في جنبه، فمن دخل عليه أشمه إياه، ويقول قد تجوهرت. تُوفي سنة 601 هـ ، وله عدة كتب كثيرة يطول ذكرها.

«الجزولي»

عيسى بن عبد العزيز بن يَلَّلْبَخْت بن عيسى، العلامة أبو موسى الجزولي اليزدكتني المراكشي النحوي، حج ولزم العلامة عبد الله بن بري وأخذ العربية عنه جماعةٌ، وكان علَّامة لا يُشق غباره في النحو مع جودة التفهيم وحسن العبارة، وأتى في مقدمته بالعجائب حتى أن الشخص يعرف المسألة من النحو معرفة جيدة وإذا رآها في الجزولية يدور رأسه فيها، واسم هذه المقدمة القانون، وكان ينكر أنها له تورعًا لأنها نتائجُ بحوثه على ابن بري وبحوث رفقائه. ويللبخت جدُّه رجلٌ بربري وجزولة بطن من البربر.

قال الذهبي: وقرأت بخط محمد بن عبد الجليل الموقاني أن الجزولي قاسى بمدة مقامه بمصر كثيرًا من الفقر ولم يدخل مدرسة وكان يخرج إلى الضياع يؤم بقوم فيحصل ما ينفقه في غاية الصبر ورجع إلى المغرب فقيرًا مدقعًا، فلما وصل إلى المرية أو نحوها رهن كتاب ابن السراج الذي قرأه على ابن بري وعليه خطه، فأنهى المرتهن أمره إلى الشيخ أبي العباس المغربي أحد الزهاد بالمغرب، وكان يصاحب بني عبد المؤمن، فأنهى أبو العباس ذلك إلى السلطان فأمر بإحضاره وقدَّمه وأحسن إليه.. انتهى.

وصنف كتابًا في شرح أصول ابن السراج وأخذ عنه النحو أبو على الشلوبين ويحيى ابن معطي.

توفي سنة 607هـ.

«التاج الكندي»

زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن، العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندي البغدادي المقرئ النحوي اللغوي، أعلى أهل الأرض إسنادًا في القراءات. قال ابن النجار: كان أعلم أهل زمانه بالنحو، أظنه يحفظ كتاب سيبويه، ما دخلت عليه قط إلا وهو في يده يطالع فيه، وهو في مجلد واحد بخط رفيع والشيخ يقرأه بلا كلفة وقد بلغ التسعين. قال القفطي: كان بحلب يبتاع الخليع من الملبوس ويتجرد(226) به إلى بلد الروم ثم ترقت به الحال، وكان لينًا في الرواية معجبًا بنفسه فيما يذكره ويرويه، إذا نوظر جُبه بالقبيح، ولم يكن موفق العلم، رأيت له أشياء باردة. قال: واشتهر عنه أنه لم يكن صحيح العقيدة. قال الموفق عبد اللطيف: كان معجبًا بنفسه مؤذيًا لجليسه.

تُوفي سنة 612هـ.

226) جاء في لسان العرب مادة (جرد): وانجرَدَ به السيرَ: امتَدّ وطال، وإذا جَدّ الرجل في سيره فمضى يقال: انجرَدَ فذهب،أهـ. والمعنى: أنه كان يسافر به إلى بلد الروم. وقد جاء في ط: (يتجر به) وهو تصحيف.

«ياقوت»

ابن عبد الله شهاب الدين الرومي الحموي البغدادي الإمام النحوي اللغوي الإخباري، صنف كتاب (معجم البلدان) وكتاب (معجم الأدباء وإرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء) في أربع مجلدات، وأخبار الشعراء المتأخرين، ومعجم الشعراء، وكتاب المشترك وضعًا المختلف صقعًا، وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب المقتضب في النسب. اتفق له مرة أنه تنقص عليًّا رضي الله عنه فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه فهرب إلى حلب ثم إلى الموصل وأربل ودخل خراسان واستوطن مرو يتجر، ثم دخل خوارزم فصادفه خروج التتار فانهزم بنفسه وقاسى شدائد وتوصل إلى الموصل وهو فقير داثر. قال الذهبي: قال جمال الدين القفطي(227) في تاريخ النحاة له: إنه كتب إليه رسالة من الموصل شرحًا لما تم على خراسان ومنها: كان المملوك لما فارق مولاه أراد استعتاب الدهر الجامع واستدرارَ خُلْبِ(228) الزمان الجامح، اغترارًا بأن الحركة بركة والاغتراب داعية الاكتساب، فامتطى غارِب(229) الأمل إلى الغُربة، وركب ركوب التطواف مع كل صُحبة، فلم يَرْثِ له دهره الخؤون ولا رَقَّ له زمانه المفتون.

227) هو جمال الدين أبو الحسين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي المصري صاحب « تاريخ النحاة» وله «أخبار المصنفين وما صنفوه» «أخبار السلجوقية» ، و«تاريخ مصر» وكان عالمًا متفننًا، جمع من الكتب شيئًا كثيرًا يتجاوز الوصف. ووزر بحلب. مات في رمضان سنة ست وأربعين وستمائة.

228) الخلْبُ: السَّحاب يومض برْقُه حتى يُرْجَى مطَرُه ، ثم يُخْلِف ويتقشّع.

229) الغَارِبُ من البعير: ما بين السَّنام والعُنق، وهو الذي يُلْقَى عليه خِطامُ البعير إذا أُرسل ليرعى حيث شاءَ. وأَعلى كلِ شيء. والغَارِبُ: الكاهِل ، ما بين الظهر والعنُق.

إنَ الليالِيَ والأيامَ لو سُئلت
عن عَيْبِ أنفسِها لم تكتمِ الخبَرَا

وهيهات مع حرفة الأدب بلوغ وَطَر أو إدراك أَرَب، ومع عبوس الحظ ابتسام الدهر الكظِّ(230)، ولم أزل مع الدهر في تفنيد وعتاب حتى رضيت من الغنيمة بالإياب... وهي طويلة. تُوفي سنة 626هـ.

230) (فظ): وفيات الأعيان(6/133)، ووردت في يقال: رجلٌ كَظٌّ: تَبْهَظُهُ الأُمورُ ويضِيق بها.

«ابن معطي»

يحيى بن عبد النور، الشيخ زين الدين أبو الحسين الزواوي المغربي النحوي الحنفي، صنف في الأدب والنحو والعروض وحمل الناسُ عنه، وكان إمامًا مبرَّزًا في علم اللسان شاعرًا محسنًا، وكان أحد الشهود بدمشق، وليس له من طرق الكسب ما يقوم بكفايته، كما قال الحافظ الذهبي، فحضر مع العلماء عند الملك الكامل، وكان له طرف من النحو فسألهم فقال: زيد ذهب به، هل يجوز في زيد النصب؟ قالوا: لا. فقال ابن معطي: يجوز النصب على أن يكون المرتفع بذهب المصدر الذي دل عليه ذهب وهو الذهاب وعلى هذا فموضع الجار والمجرور الذي هو (به) النصب فيجيء من باب زيد مررت به؛ إذ يجوز في زيد النصب فكذلك ههنا. فاستحسن السلطان جوابه وأمره بالسفر معه إلى مصر فسافر وقرر له معلومًا. قال الذهبي: فلم تطل مدة حياته فتُوفي سنة 628هـ.

«أبو حامد»

الإسفراييني، أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني الشيخ أبو حامد بن أبي طاهر، شيخ طريقة العراق بل إمام المذهب على الإطلاق، شيخ الإسلام والمسلمين قاطبة ورحلة الطلاب، طبق الشيخ أبو حامد الأرض بالأصحاب وجمع مجلسه ثلاثمائة متفقه، واتفق الموافِق والمخالِف على تفضيله حتى قال أبو الحسين القدوري: هو عندي أفقهُ أو أنْظَرُ من الشافعي. وأفتى وهو ابن سبع عشرة سنة وقام يفتي إلى ثمانين سنة انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا حتى إنه قال للخليفة: إنك لست بقادر على عزلي من ولايتي التي أولاني الله تعالى إياها وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاثة أعزلك عن خلافتك. وأرسل إلى مصر فاشترى أمالي الشافعي بمائة دينار.

قال السبكي في الطبقات عن سليم الرازي: إن الشيخ أبا حامد كان يحرس في درب وكان يطالع في زيت الحرس ويأكل من أجرة الحرس. تُوفي في شوال سنة 456.

«ابن عُنَيْن»

محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسين بن عنين، الأديب الرئيس شرف الدين أبو المحاسن الأنصاري الكوفي الدمشقي، الشاعر المشهور، سمع من الحافظ أبي القاسم بن عساكر، كان غزير المادة مُطّلِعًا على أشعار العرب، واشتغل على القطب النيسابوري والفخر الرازي وجال في البلاد ومدح الملوك والوزراء وهجا الصدور والكبراء. أقامه الملك المعظم مقام نفسه في ديوانه فأحسن

السياسة إلا أنه في الأخير ظهر منه سوء اعتقاد وطَعْنٌ في السلف واستهتارٌ بالشريعة وكثُر عسفُه وظلمُه وتَرَكَ الصلاةَ وسبَّ الأنبياء صلوات الله عليهم ولم يزل [يستورد][231] الخمر إلى ما قبل وفاته بقليل. تُوفي سنة 630هـ.

[231] في خ كلمة مرسومة سين ثم رأس باء غير منقوطة ثم واو وراء (سبور) وكتب فوقها الناسخ (كذا) ويمكن أن نضع مكانها (يشرب) أو أي كلمة أخرى تؤدي المعنى. وما أثبتناه نقلًا عن (ط).

«ابن حمويه»

اليزدي، علي بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين حمويه[232] الإمام أبو الحسن اليزدي الشافعي المقرئ المحدث نزيل بغداد، حَدَّثَ عن خلق ذكرهم الحافظ الذهبي وذكر من روى عنه قال: وقرأت بخط أحمد بن شافع أن مصنفاته زادت على خمسين مصنفًا. قال أبو سعيد السمعاني: فقيه فاضل سخي النفس بما يملك، كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه إذا خرج ذلك قعد هذا ، وإذا خرج هذا قعد الآخر. هكذا ترجمه الذهبي وطوَّل في ترجمته فذكر مشيخته وكراماته إلا أنه قال: زاهد. تُوفي سنة 551هـ.

[232] في (سير أعلام النّبلاء) للذهبي -الذي ينقل عنه صاحب (الفلاكة)- جاء الاسمُ: ابن مَحْمُويه. وقد تكررت كتابة الاسم هناك على هذه الصورة.

«نفطويه»

إبراهيم بن عرفة أبو عبد الله النحوي المعروف، أخذ العربية عن المبرد وثعلب ومحمد بن الجهم، وخلط نحو الكوفة بنحو البصرة، وتفقه على مذهب داود بن علي الظاهري. ومن تصانيفه: كتاب التاريخ. غريب القرآن. المقنع في النحو. المصادر. الوزراء. وغير ذلك، وكان مع كونه من أعيان العلماء غير مكترث بإصلاح نفسه، وكان يفرط به الصُّنان[233] فلا يعرّه وحضر يومًا مجلس وزير المقتدر حامد بن العباس فتأذى هو وجلساؤه من صُنانه فطلب الوزير مرتكًا[234] فبدأ بنفسه وأداره على الجماعة فتمرتكوا وفطنوا مراده فقال نفطويه: لا حاجة لي به. فراجعه فأبى فاحتد حامدٌ وقال: عاضَّ كذا من أمه، إنما تمرتكنا من أجلك، فإنا تأذينا بصُنانك. قم لا أقام الله لك وزنًا، أخرجوه وأبعدوه ببغداد. توفي سنة 323 هـ ، ولقب نفطويه لرمامته وأذيته تشبيهًا بالنفط.[235]

[233] الصنان: النتن والرائحة الكريهة.

[234] المَرْتَك أو المُرْدَاسَنْج هو أحد المعادن الطبيعية لأكسيد الرصاص الثنائي.

(235) قال القفطي في إنباه الرواة في ترجمته لنفطويه (1/216): «وكان – رحمه الله- يخضب بالوَسمة (نبات يختضب بورقه)، وكان من طهارة الأخلاق، وحسن المجالسة والصدق فيما يرويه على حالٍ ما شاهدتُ عليها أحدًا ممن لقيناه».... «وكانت له مروءة وفتوَّة وظَرف». أما عن سبب تلقيبه بنفطويه فقال ابن مكتوم الثعالبي في «لطائف المعارف»: «إنما لقب نفطويه لدمامته وسواده، تشبيهًا بالنفط».

«إمام الأئمة ابن خزيمة»

محمد بن إسحاق بن خزيمة، إمام الأئمة، أبو بكر السلمي النيسابوري المجتهد المطلق البحر العجاج، روى عن خلائق وروى عنه الأئمة البخاري ومسلم ويحيى بن محمد بن صاعد وغيرهم. قال الحاكم: سمعت أبا عمرو بن إسماعيل يقول: كنت في مجلس ابن خزيمة فاستمدَّ مِدَّةً(236) فناولته القلم بيساري إذ كانت يميني قد اسودَّت من الكتابة، فلم يأخذ القلم وأمسك، فقال بعض أصحابه: لو ناولت الشيخ بيمينك فقد امتنع أن يأخذ من يسارك. فأخذت بيميني وناولته إياه فأخذه مني. وقد أطال الحاكم في تاريخ نيسابور ترجمته بما لا مزيد على حسنه. قال السبكي في الطبقات: قال أبو أحمد الدارمي: كان له قميص يلبسه وقميص عند الخياط فإذا فرغ الذي يلبسه وهبه وغدوا إلى الخياط وجاءوا بالقميص الآخر. وقيل له يومًا: لو حلقت شعرك في الحمام. فقال: لم يثبت عندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حمامًا قط ولا حلق شعره، إنما تأخذ شعري جارية بالمقراض. تُوفي سنة 311هـ.

(236) مِدّة : حبر ، سائل يكتب به.

«أبو عمر»

محمد بن عبد الواحد الزاهد، المعروف بغلام ثعلب، أحد أئمة اللغة المشاهير المُكثرين، صحب أبا العباس ثعلبًا فعُرف به، وله تصانيف كثيرة، وكان لِسَعَةِ روايته وحفظه يكذبه أدباء زمانه في أكثر نقل اللغة ويقولون: لو طار طائر يقول أبو عمر: حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي، ويذكر في معنى ذلك شيئًا. وكان أغلب تصانيفه من حفظه حتى إنه أملى في اللغة ثلاثين ألف ورقة؛ فلهذا الإكثار نُسب إلى الكذب. قال الملك المؤيد صاحب حماة في تاريخه: وكان اشتغاله بالعلوم قد منعه من اكتساب الرزق فلم يزل مضيَّقًا عليه. توفي سنة 345هـ.

«أبو الوقت السِّجْزي»

عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق، أبو الوقت السجزي الأصل الهروي الصوفي مسند العصر ورحلة الدنيا، روى عن خلائق، وروى عنه أمم لا يُحصون. حكى عنه والده أنه أخذه ماشياً من هراة إلى بُوشَنْج(237) ليسمعه الحديث وكان أبوه أيضًا ماشيًا، فكان إذا أُعيي حمله على كتفه وعمر إذ ذاك دون عشر سنين. قال: وكنّا نلتقي على أفواه الطرق فلاحين فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نُركِبُه وإيَّاك. فيقول: معاذ الله أن يركب في طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فلحُسن نية الوالد صارت الوفود ترحل إليّ من الأمصار. توفي سنة 553هـ.

237) في (خ) و(ط): «بوشبخ» والتصويب من معجم البلدان (1/508) وجاء فيها: بُوشنج: بفتح الشين، وسكون النون، وجيم: بليدة نزهة خصيبة في واد مشجِر من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ.

«ابن نُباتة السَّعدي»

أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي، أديب فضله تام وروض علمه زاهر، أصفى عليه حرمانه ولم يسعفه زمانه. ورد على أبي الفضل بن العميد وامتدحه بقصيدته التي أولها:

بَرِحَ اشتياقٌ وادّكـــار
ولهيب أنفاس حِــرار
ومدامع عبراتهـــــا
تَرْفضُّ عن نوم مُطـار
لله قلبـــي ما يجِـنُّ
من الهمـوم وما يُوارِي
وكبرت عن وصل الصغا
ر وما سلوت عن الكبار

ومنها:

لم يبق لي عيش يلـــ
ـذ سوى معانقة العُقـار(238)

238) العُقار بضم العين: الخمر.

وإذا استهل فتى العميـ

ـد تضاحكت دِيَم القِطار(239).

239) القِطَارُ: جمع قَطْرٍ، وهو المطر.

حُرٌّ صفت أخلاقـــه

صفو السبيك من النضـــار

فتأخرت صِلتُه فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزدها ابن العميد غير الإهمال فتوصل إلى أن دخل عليه ومجلسه محتفل بالأعيان فأشار بيده إليه وقال: أيها الرئيس، إني لزمتك لزوم الطفل، وذَلَلْتُ لك ذُلَّ النعل، وأكلت النوى المحرَّق انتظارًا لصلتك، ووالله ما بي الحرمانُ ولكن شماتةُ قوم نصحوني فاغتششتهم وصدقوني فاتهمتهم، فبأيِّ وجهٍ ألقاهم؟ فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما هي؟ إن الذي تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وإن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحِمْ بمنكبيك أعظمهم سناءً وأنورهم شعاعًا. فحار ابن العميد وشُدِهَ(240) وأطرق ساعة ثم قال: هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة وعن الإطالة منا في المعذرة، وإذا ترامينا ما دُفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه. فقال ابن نباتة: هذه نفثة مصدور والغنيّ إذا مَطَل لئيم. فاستشاط ابنُ العميد وقال: والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله، ولست ولي نعمتي فأحتملك ولا صنيعتي فأغضي عنك، وإن بعض ما أقررته في مسامعي تنقضُّ منه مِرَّةُ الحليم ويبدد شمل الصبر. هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك ولا سألتك مدحي. فقال ابن نباتة: لما جلست في صدر إيوانك بأبهتك وقلت لا يخاطبني أحد إلا بالرياسة دعوتني بلسان الحال وإن لم تدعني بلسان المقال. فثار ابن العميد مغضبًا ودخل حجرته وتعوَّص(241) المجلس وسُمع ابن نباتة ذاهبًا وهو يقول: والله إنَّ سَفَّ التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدبَ إن كان بائعه مُهينًا له ومشتريه مماكسًا فيه. فلما سكن غيظ ابن العميد وثابَ إليه علمُه التمسه ليعتذر إليه فكأنما غاص بين سمع الأرض وبصرها فكان حسرةً في قلب ابن العميد إلى أن مات اهـ ملخصًا من ابن خلكان.

240) شُدِهَ: دهش بالأمر وتحيَّر.

241) العَوَصُ: ضِدُّ الإِمكان واليُسْرِ، شيءٌ أَعْوَصُ وعَوِيصٌ وكلامٌ عَوِيصٌ. وقد عاصَ يَعاصُ وعَوِصَ يَعْوَصُ واعْتاصَ عليَّ هذا الأَمرُ يَعْتاص، فهو مُعْتاصٌ إِذا الْتاثَ عليه أَمرُه فلم يَهْتَدِ لجهة الصواب فيه. وأَعْوَصَ فلان بخَصمه إِذا أَدخل عليه من الحُجَج ما عَسُرَ عليه المَخْرَجُ منه. (لسان العرب: مادة عوص)

«الزّبِيدِي»

محمد بن يحيى بن علي بن مسلم القرشي الزبيدي الواعظ أبو عبد الله، كان له معرفة بالنحو والأدب. قال الذهبي: قال أحمد بن صالح بن شافع: كان له في علم الأصول وعلم العربية حظٌّ وافرٌ وصنَّف كتباً في فنون العلم تزيد على مائة تصنيف. قال الحافظ الذهبي: وكان صبورًا على الفقر متعفِّفًا حنفيَّ المذهب. قال أبو الفرج بن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة قال: جلستُ مع الزبيدي من بكرة إلى قريب الظهر وهو يلوكُ شيئًا في فِيه، فسألته فقال: لم يكن لي شيء فأخذت نواة أتعلَّلُ بها. فقال ابن السمعاني: كان فينا عجيبًا، يخضب بالحناء ويركب حمارًا مخضوبًا ويعظ ويَجْبَهُ بالحق . تُوفي سنة 555هـ.

«أبو النّجيب السَّهْرَوَرْدِي»

عبد القاهر بن عبد الله بن محمد الشيخ أبو النجيب السهروردي الصوفي الواعظ الفقيه الشافعي. قال الذهبي: الزاهد، حفظ كتاب الوسيط في التفسير للواحدي، وسمع كتب الحديث المشهورة، وتفقَّه على أسعد الميمني، وتأدب على الفصيحي، وكتب عنه أبو سعد السمعاني. قال ابن النجار: أنبأنا يحيى بن القاسم التكريتي أنبأنا أبو النجيب قال: كنت أبقى اليوم واليومين لا أستطعم بزاد وكنت أنزل إلى دجلة وأتقلب في الماء حتى يسكن جوعي، حتى دعتني الحاجة إلى أن اتخذت قربة وكنت أستقي بها الماء لأقوام فلما تعذر ذلك في الشتاء خرجت إلى بعض الأسواق فوجدت رجلًا بين يديه طبرزين.(242) وعنده جماعة يدقون، فقلت: هل لك أن تستأجرني؟ فقال: أرني يديك. فأريته فقال: هذه يد لا تصلح إلا للقلم. ثم ناولني قرطاسًا فيه ذهب، فقلت: ما آخذ إلا أجرة عملي. وكان رجلًا يقِظًا فقال: اصعد. وقال لغلامه: ناوله تلك المدقة. فناولني فدققت معهم، فلما عملت ساعة قال: تعال. فجئت إليه فناولني الذهب وقال: هذه أجرتك. فأخذته وانصرفت ثم وقع في قلبي الاشتغال فاشتغلت.(243). ثم قال ابن النجار: ثم وعظ على أصحابه بخربة على دجلة يحضره الرجل والرجلان إلى أن اشتهر اسمه وصار له القبول عند الملوك وزارته السلاطين، فبنى تلك الخربة رباطًا وبنى إلى جانبها مدرسة ثم ولي التدريس بالنظامية وعُزل عنها بعد سنتين. تُوفي سنة 545هـ.

(242). الطبرزين : نوع من السلاح يشبه الفأس (فارسية معربة).
(243). يقصد الاشتغال بالتدريس.

«الميداني»

أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفضل الميداني، صاحب الأمثال، تلميذ أبي الحسن الواحدي، واشتمل كتابه في الأمثال على ستة آلاف مَثَلٍ، ولما وقف عليه الزمخشري حسده فزاد في لفظة الميداني نونًا قبل الميم فصار (النميداني) وهو بالفارسية: الذي لا يعرف شيئًا، فعمد إلى تصنيف الزمخشري وعمل الميم نونًا فصارت (الزنخشري) وهو بالفارسية بائع زوجته. قال محمد بن المعالي في كتابه (ضالة الأديب من الصحاح والتهذيب): سمعت أكابر أصحاب الميداني يقولون: لو كان للوفاء والشهامة والفضل صورة لكان الميداني صورتها. ومن نظمه رحمه الله تعالى:

شفةٌ لَمَاها زادَ في آلامـــــي
في رَشْفِ ريقَتِها شفاءُ سقامـــي
قد ضَمَّنا جُنْحُ الدُّجى ولِلَثْمِنَـا
صـوتٌ كقَطِّكَ[244] أرؤس الأقــلام

[244] قَطَّ الشَّيءَ: قطعه أو قطعه عَرْضًا، نحت وسوّى. ومن أمثال الخطاطين الطريفة: إذا قال القلم قط فأبشر بحسن الخط.

تُوفي سنة 539هـ.

«أبو العلاء الهمذاني»

الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الحافظ، أبو العلاء الهمذاني العطار المقرئ الحنبلي المحدث شيخ [مدينة][245] همذان، أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات وتحصيل الأصول وبرع على حُفَّاظ عصره في حفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير. قال الحافظ عبد القادر الرهاوي: شيخنا الإمام أبو العلاء أشهر من أن يُعرَّف، بل تعذَّر وجودُ مثله في أعصار كثيرة. سمعتُ أن من جملة محفوظاته كتاب الجمهرة[246]. رآني يومًا وعلى رأسي قلنسوة مكشوفة فقال: لا تلبسها مكشوفة؛ فإن أول من أظهر لبس القلانس مكشوفة أبو مسلم الخراساني، ثم شرع في ذكر أبي مسلم فذكر أحواله من أولها إلى آخرها. وجاءته مرة فتوى في أمر عثمان فأخذها وكتب فيها من حفظه ونحن جلوس دَرْجًا[247] طويلًا ذكر فيها وفاته وسنه ومولده وأولاده وما قيل فيه إلى غير ذلك. وكان من أبناء التجار وورث مالًا فأنفقه في طلب العلم حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشيًا وكان يحمل كتبه على ظهره. وسمعته يقول:

كنت أبيت ببغداد في المساجد وآكل خبزًا أدهن. وسمعت شيخنا أبا الفضل الأديب الهمذاني يقول: رأيت الحافظ أبا العلاء في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه لأن السراج كان عاليًا، ثم نشر الله ذكره في الآفاق وعظم شأنه عند الملوك والعوام حتى إنه كان يمر في همذان فلا يبقى أحد يراه إلا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود. توفي سنة 569هـ.

(245). زيادة في (خ).

(246). كتاب الجمهرة في اللغة، ألفه أبو بكر بن دريد المتوفى سنة 321 هجرية الذي كان عمدة اللغويين في عصره.

(247). الدَّرْجُ : الوَرَقُ الذي يُكتب فيه.

«ابن مكتوم»

صاحب الدر اللقيط، تلميذ أبي حيان، أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي تاج الدين، الإمام النحوي المحدث المؤرخ صاحب التصانيف المفيدة، فمنها: تاريخ النحويين، وكتاب الحيل، وكتاب الدر اللقيط، الذي انتقاه من البحر المحيط لأبي حيان، ومنها شرح تصريف ابن الحاجب، واختصار تاريخ القفطي، وشرح فصيح ثعلب، وله مجاميع حسنة بخطه، ورأيت بخط العلامة نور الدين الأبياري أشياء حسنة يذكر أنه نقلها من خطه. قال ابن مكتوم: ومن خطه نقلت: أذكر مرة وقد حمل الحسدُ على العلم بعضَ من ابتلاه الله بالجهل ممن كان يجالسني من الشهود على أن تألَّب عليّ وأعانه على ذلك نويس(248) من أشكاله فاجتمع عنده نحو الخمسة منهم وكتب هو بخطه رسمًا نسبني فيه إلى الوقوع فيما يعلم الله براءتي منه وقدمه إليهم ليشهدوا فيه عليّ زورًا بما تضمنه، فأراد كل منهم أن يتقدمه غيره إلى ذلك وجبنوا وألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة فتفرقوا من فورهم خاملين وصاروا عن قليل بعد الصحبة الأكيدة متعادين، يذكر كل منهم عن الآخر ما إذا سمعه أحزنه وغمَّه ولا يرقب في شتمه واغتيابه إلًّا ولا ذمةً. فالحمد لله الذي كفاني شرهم وجعل محلَ كيدهم نحرَهم، وحتى بلغني ذلك من بعضهم ومن آخرين سواهم فلم أعتب أحدًا منهم على ما فعله، إذ داء الحسد كما عُلم لا دواءَ له، فقال:

(248). نويس: تصغير ناس، أي جماعة صغيرة.

سوى وَجَعِ الحُسَّاد داوِ فإنه

إذا حَلَّ في قلبٍ فليسَ يَحولُ(249).

249) البيت للمتنبي (انظر ديوانه، ص 360). سوى: مفعول داو مقدم. يقول إن داء الحسد لا دواء له فإذا حل في قلب لا يطمع في نواله. وقد ورد في خ (داء) بدل (داو).

وقال محمد بن عيسى بن [عياض](250) القرطبي:

250) في (ط): (حمدان) والتصويب من (خ)، وهو شاعر أندلسي تنسب إليه المقامات العياضية.

كُنْ من أخ في فؤاده دَغَـلٌ

أخوفَ مِنْ كاشحٍ يجاهـده(251)

251) كَاشَحَ غَرِيمَهُ : خَاصَمَهُ بِعُنْفٍ، واسم الفاعل من كاشَح مكاشِح.

بُرْءُ السَّقام الخفيّ أعسرُ من

برء سقام بدت شواهـــده

اهـ ما أردت نقله من خطه، وجدت بخطه مجموعًا ومنه نقلت ما كتبت هنا وهو مكتوب في ظهور الحجج والوثائق التي تجتمع عند الشهود، بحيث إنه صار مقسومًا صفحتين صفحتين، بين كل ظاهرين باطنان فيهما الوثيقة، وهذا إما عن فقر عظيم أو عن شح عظيم وأيًّا ما كان فهو مستحق للذكر في هذا الفصل.

«ابن خالويه»

الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه الهمذاني اللغوي المقرئ النحوي، أبو عبد الله، أحد العلماء المشهورين والأدباء المصنفين، ومن تصانيفه: كتاب الاشتقاق، وكتاب الجُمل في النحو، وكتاب القراءات، وكتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن، وكتاب المقصور والممدود، وشرح شعر أبي فراس الحمداني، وغير ذلك. قرأت بخط العلامة ابن مكتوم: إنه كان يلقب بذي النونين؛ لأنه كان يطوِّلهما في خطه وهما نون الحسين ونون ابن. قال: وقد رأيتهما طويلتين في آخر كتاب الجمهرة بخطه، وقد طولهما جدًّا كما ذكر عنه، ووجد على نسخة من إصلاح المنطق بخط أبي الحسن علي بن عبد الله بن أحمد البزار ما مثاله: لما فرغت من هذا الجزء كان أبو سعيد العطاردي حاضرًا فقال على لساني(252):

252) جاءت الأبيات في ط كالتالي:

قرأتُ ما فيه على الحُسين

قراءة صدق لم تُشب بمَين

مستفهم الشكل مرتيــن

فجاء كالمسك على لجين

أو كعذار فوق عارضين
حتى إذا ما تم لي باون
شرفني الإسناد بالنونين

ووردت في خ بهذا الشكل:
قرأت ما فيه على الحسين
قراءة صدق لم تُشَب بمين
أتعبت فيه اللحظ واليدين
أو كعذار فوق عارضين
فجاء كالمسك على لجين
مستفهم الشكل مرتين
فجاء كالمسك على لجين
أو كعذار فوق عارضين
حتى إذا ما تم لي بأَوْن
شرفني الإسناد بالنونين

ويبدو ظاهراً ما فيها من تكرار واضطراب في البيتين الثاني والثالث.

قرأت ما فيه على الحسين
قراءة صدق لم تُشَب بميــــن
أتعبت فيه اللحظ واليدين
مستفهم الشكل مرتيـــــــن
فجاء كالمسك على لجين
أو كعذار فـــوق عارضيـــن
حتى إذا ما تم لـــي بأَوْن
شرفني الإسناد بالنونيـــــن
قرأتُ ما فيه على الحُسين
قراءة صدق لم تُشب بمَيـــن
مستفهم الشكل مرتيـــن
فجاء كالمسك على لجيـــن
أو كعذار فوق عارضيـــن
حتى إذا ما تم لي بـــــاون

شرفني الإسناد بالنونين

قال ابن مكتوم: كما نقلته من خطه. وكان ابن خالويه على إمامته في اللغة ضعيفًا في النحو وعلله، ضعيفًا في التصريف، وله في ذلك مع أبي علي الفارسي وتلميذه أبي الفتح بن جني حكايات معروفة، ويُحكى أن أبا الطيب المتنبي لما أنشد سيفَ الدولة ابن حمدان قوله:

وَفاؤُكُما كَالرَّبعِ أَشجاهُ طاسِمُه *(253) *

(253) شطر بيت تكملته: .... بِأَن تُسعِدا وَالدَمعُ أَشفاهُ ساجِمُه

والطاسم : الدارس. وأشجاه : أشدُّه إشجاء وإحزانًا. ولا يكون فعلا، لمقابلته إياه بقوله: أشفاه. وأشفى: اسم لا فعل. يقول: وفاؤكما أيها الخليلان بأن تسعداني على بكائي في هذا الربع الدارس، كهذا الربع الذي بكيته، وذلك في ترك المساعدة في الوقت به معي، ففي ذلك أشبه وفاؤكما للربع دروسًا وطُموسا. ثم قال : (والدمع أشفاه ساجمه): أي لا تلوماني على البكاء، فان أشفى الدمع ساجمُه.وسَجَم الدَّمعُ والمطرُ : سال قليلًا أو كثيرًا.

قال له ابن خالويه: إنما يقال شجاه لا أشجاه، توهمه فعلًا ماضيًا، فقال له المتنبي: اسكت فما وصل الأمر إليك. وجرى بينه وبين الفارسي كلام فقال ابن خالويه: نتكلم في كتاب سيبويه. فقال له الفارسي:لا بل نتكلم في الفصيح. ولأبي علي الفارسي في تغليطه كتابَ نقض الهاذور(254): قلت: وأنت إذا وقفت على ضعفه في العربية وقفت على سر الحكاية المشهورة عنه وإنها ليست من هضم النفس في شيء وهي أنه قال له رجل: أشتهي أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني. فقال(255): أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لساني . تُوفي سنة 370هـ.

(254) ألّف أبو علي الفارسي كتاب (الإغفال) رد به على كبير شيوخه أبي إسحاق الزجاج (ت 311هـ) ، فتعقّبه ابن خالويه، فصنف الفارسي كتابا آخر يُفنّد فيه تعقّبات ابن خالويه سماه «نقض الهاذور».

(255) أي ابن خالويه.

«ابن الجصّاص»

المتموّل، الصدر الرئيس، أبو عبد الله الحسين بن عبد الله الجصاص البغدادي الجوهري التاجر السفار. وقال ابن طولون: لا يباع لنا شيء إلا على يد ابن الجصاص. صادَره المقتدرُ في سنة 302 هـ، فأخذ له من الذهب والجوهر ما قُوِّمَ بأربعة آلاف دينار. وقال ابن الجوزي في المنتظم: أخذوا له ما مقداره ستة عشر ألف ألف دينار عينًا ووَرِقًا وخيلًا وقماشًا. ويحكي عنه بَلَهٌ وتغفل. مر به صديق له فقال: كيف أنت؟ فقال ابن الجصاص: الدنيا كلها محمومة، وكان قد حُمَّ. ونظر مرة في المرآة فقال لصاحبه: ترى لحيتي قد طالت؟ فقال: المرآة في يدك. قال: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. ودخل يومًا على الوزير ابن الفرات فقال: عندنا كلاب يحرموننا ننام. فقال الوزير:

لعلهم جراء. فقال: بل كل واحد قدي وقدك. وفرغ من الأكل فقال: الحمدُ لله الذي لا يُحلف بأعظمَ منه. وأراد أن يقبل يومًا رأس الوزير فقال: إن فيه دهنًا. فقال: أقبله ولو أن فيه خرأ. .ووصف يومًا مصحفًا قديمًا فقال: كسرويّ. تُوفي سنة 315هـ

«الأديب أبو بكر بن بقيّ»

ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال: نبيل النثر والنظام قليل الارتباط والانتظام، ضنأ عليه حرمانه وما صفا له زمانه، فصار قعيدَ صهوات وقاطِعَ فَلَوَات مع توهم لا يطفئه بأماني. ومن نظمه الرقيق المعاني:

عاطيته والليلُ يسحبُ ذيلَه
صهباءَ كالمِسكِ العَتيقِ لناشِقِ
حتى إذا مالت به سِنةُ الكرَى
زَحْزَحْتهُ شيئًا وكان مُعانقي
باعدتُه عن أضلُعٍ تشتاقُه
كي لا ينامَ على وسادٍ خافق

وله من قصيدة:

ولكنّ ما جدّى صبا غير لاقح
يسد طريق المزن عن أرضي الفل
أخلّاي والآدابُ تجمع بيننا
وبعض طباع لست أقضي على كل
ذوي أملي عند اهتزاز غصونه
وأرخصني الدهر الذي كان بي يُغْلي

ومنها:

وأمدحهم ما حسبي الله كاذبًا
فيجزونني بالمنع شكلًا على شكل

«أبو الحسن»

علي بن أحمد بن نوبخت، كان أديبًا مجيدًا إلا إنه كان قليل الحظ من الدنيا، لم يزل رقيق الحال ضعيف المقدرة حتى توفي بمصر في شعبان سنة 416 هـ وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة فكفنه أبو محمد بن حيران متولي كتب السجلات بمصر.

«الصولي»

أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بالصولي، أحد الأدباء الفضلاء المشهورين، روى عن أبي داود السجستاني والمبرد وغيرهم، وروى عنه الدارقطني والمرزباني، وله التآليف المشهورة، وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج وبه يضرب المثل فيه، خرج من بغداد لإضاقة لحقته فتُوفي سنة 335هـ.

«ابن ظَفَر»

أبو عبد الله محمد الصقلي، له التصانيف المتعددة، منها: سُلوان المطاع وخير البشر، وأنباء نجباء الأبناء، والينبوع في التفسير، وشرح مقامات الحريري، والحاشية على درة الغواص. ذكره العماد في الخريدة، ولم يزل يكابد الفقر حتى مات. قيل إنه زوّج ابنته بحماة من غير كفء للضرورة فرحل بها الزوج عن حماة وباعها في بعض البلاد. توفي سنة 575هـ.(256)

(256) في (إرشاد الأريب) لياقوت، و(سير أعلام النبلاء) للذهبي أنّ سنة وفاته في 565هـ.

«ابن السِّكّيت»

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، الإمام اللغوي النحوي، كان أول الأمر يؤدب أولاد العامة ببغداد بدرب القنطرة ثم أدب ولد ابن طاهر والمتوكل وجعفر. قال الحسين بن عبد المجيب: سمعت يعقوب بن السكيت في مجلس أبي بكر بن شبَّة يقول:

ومن الناس من يحبك حبًّا
ظاهر الحب ليس بالتقصير
فإذا ما سألته نصـفَ فلْسٍ
لحق الحبُّ باللطيف الخبير

قيل إن المتوكل قتله؛ وذلك أن المتوكل أمره بشتم رجل من قريش فلم يفعل فأمر القرشي أن ينال منه ففعل فأجابه يعقوب، فلما أجابه قال له المتوكل: أمرتك أن تفعل فلم تفعل فلما شتمكَ فعلتَ، فأمر بضربه فحُمل من عنده صريعًا مقتولًا، ووجه المتوكل إلى بني يعقوب من الغد عشرة آلاف درهم. قاله الأنباري في نزهة الألِبَّاء.(257)

(257) وروى ياقوت الحموي في معجم الأدباء(6/2841) رواية أخرى تقول: إن المتوكل دعاه إلى منادمته فنهاه عبد الله بن عبد العزيز عن ذلك فظن أن حسده وأجاب إلى ما دُعي إليه، فبينما هو مع المتوكل يومًا جاء المعتز والمؤيد فقال له المتوكل: يا يعقوبن أيما أحب إليك ابناي هذان أم الجسن والحسين؟ فذكر الحسنَ والحسين رضي الله عنهما بما هو أهله وسكت عن ابنيه، وقيل قال له: إن قنبر خادم علي أحبُّ إليَّ من ابنيك، وكان يعقوب يتشيع، فأمر المتوكل الأتراك فسلوا لسانه وداسوا بطنه وحُمل إلى بيته فعاش يومًا وبعض آخر، ومات ليوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

«الأديب أبو جعفر»

ابن المثنى، ترجم له صاحب قلائد العقيان فقال: رافع راية القريض وصاحب آية التصريح والتعريض، أقام شرائعه وأظهر روائعه وجعل عصيه طائعه، وكان أليف غِلمان وحليف كفر لا إيمان، ما نطق متشرعًا، ولا رتق متورعًا، ولا اعتقد حشرًا، ولا صدق بعثًا ولا نشرًا، وربما تنسك مجونًا وفتكًا، وتمسك باسم التقى وقد هتك هتكًا، لا يبالي كيف ذهب ولا بما تمذهب وقد أثبت له ما يرتشفه ريقًا ويلحو الأوان منه شروقًا فمن ذلك قوله:

كيف لا يزداد قلبـــــي
من جوى الشوق خبالًا
وإذا قلت علـــــــيّ
بهر الناس جمـــالًا
هو كالغصن وكالبـــد
ر قوامًا واعتـــدالًا
إن من رام سَلْـــــوِي
عنه قد رام مُحـــالًا
لست أسلو عن هـــواه
كان رشدًا أو ضـلالًا

ولما اشتهر عند ناصر الدولة ما تقرر وتردد على مسمعه انتهاكه وتكرر أخرجه ونفاه وطمس رسم فسوقه وعفاه.

«الإمام أبو سهل الصعلوكي»

محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون، الحنفي نسبًا من بني حنيفة العجلي، الإمام أبو سهل الصعلوكي شيخ عصره وإمام الدنيا في الفقه والتفسير والأدب واللغة والنحو والشعر والكلام والتصوف وغير ذلك من أصناف العلوم. وعن الصاحب أبي القاسم بن عباد: لم تر خراسان مثله ولا رأى هو مثل نفسه، لقي أبا بكر ابن خزيمة وأبا العباس الماسرخسي الثقفي وغيرهم، ومن الصوفية الرئيس الشبلي وأبا على الثقفي وغيرهم. وحُكي عنه أنه قال: ما مرت بي جمعة الأولى على الشبلي وقفة أو سؤال. وأنه قال دخل الشبلي على أبي إسحاق المروزي فرآني عنده فقال: هذا المجنون من أصحابك لا بل من أصحابنا. وعن الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: قلت للأستاذ أبي سهل في كلام جرى بيننا: لِمَ؟ فقال لي: أما علمت أنه من قال لأستاذه: لِمَ لَمْ يفلح أبدًا.قال السبكي في الطبقات: قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: وهب الأستاذ أبو سهل جبته من إنسان في الشتاء وكان يلبس جبة النساء حين يخرج إلى التدريس؛ إذ لم يكن له جبة أخرى، فيقدم الوفد المعروفون من فارس وفيهم من كل نوع إمام من الفقهاء والمتكلمين والنحويين فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن وأمره أن يركب لاستقبالهم فلبس دراعة فوق تلك الجبة التي للنساء وركب فقال صاحب الجيش: إنه مستخف بي أمام البلد، يركب في جبة النساء! ثم ناظرهم فغلبهم أجمعين في كل فن. تُوفي في ذي القعدة سنة 369 هـ وصلى عليه ابنه أبو الطيب ودُفن في المجلس الذي كان يدرس فيه.

«الغزي»

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبي الغزي الشاعر المشهور، ذكره الحافظ بن عساكر في تاريخه وقال: إنه دخل دمشق ثم بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى ثم رحل إلى خراسان وانتشر شعره هناك، وأثنى عليه اهـ. وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه وقال: إنه جاب البلاد وتغرب وأكثر التنقل والحركات وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ولقي ناصر الدين بن مكرم بن العلاء وزير كرمان ومدحه بقصيدته البائية التي يقول فيها:

حملنا من الأيام ما لا نطيقه
كما حمل العظمُ الكَسِيرُ العَصائبا

ومنها في قصر الليل:

وليل رجونا أن يدبَّ عذارُه
فما اختط حتى صار بالفجر شعائبا

ومن شعره:

قالوا هجرتَ الشِّعرَ قلتُ ضرورةً
بابُ الدواعي والبواعـــث مغلـقُ
خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يرتجـــى
منه النَّوال ولا مليحٌ يُعْشَــــــقُ
ومن العجائب أن نراه كاسِـــدًا
ويُخان فيه مع الكســـاد ويُســرقُ

ومن شعره:

وَخْزُ الأَسنَّةِ والخُضوع لناقِـــصٍ
أمران في ذَوق النُّهَــــــى مُرَّان
والرأيُ أن تختارَ فيما دونه الـــ
مرَّان وخز أسنة المـــــــران

ومن شعره:

من آلة الدست ما عند الوزير سوى
تحريك لِحيته في حال إيمـــــاءِ
فهو الوزيرُ ولا أزرٌ يشـــــدّ به
مثل العَروض له بحرٌ بلا مـــــاءِ

وله:

وجف الناس حتى لو بكينا تعذر ما تُبَلّ به الجفـــــونُ

فما تندَّى لممدوح بنـــانٌ ولا ينـــدي لمهجوّ جبيـــنُ

ولد بغزة وتوفي وقد جاوز التسعين ودفن ببلخ سنة 534هـ.

ومن نظم الغزي:

قالوا بعدتَ ولم تقربْ فقلتُ لهـم

بُعْدِي عن الناسِ في هذا الزمان حِجـا

إذا خروجك لم يخرجك عن كرب

حسدت من كان جليس البيت ما خرجَا

كم عالم لم يلج بالقرع باب غِنـى

وجاهل قبل قَرْع البابِ قد ولَجَـــا

قعدت في البيت إذا ضُيِّعْتُ منتظراً

من رحمة الله بعد الشدة الفَرَجـــا

قال المصنف رحمه الله (تنبيه) قال كاتبه ومصنفه أحمد بن على الدلجي عافاه الله من الفلاكة: مهما وجدت في ترجمة عالم أو شاعر أنه طاف البلاد وجال وتنقل فاحكم عليه ما لم يكن محدّثًا بأنه في غاية الفلاكة، وهذا أمر يصححه عندي الذوق والوجدان ولا أشك فيه، وأنا أقطع بأن التنقل من لوازم الفلاكة وما خرج أحد من بلد ويمكنه الإقامة فيها والله أعلم.

«الفارابي»

محمد ،أبو نصر، بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، من مدينة فاراب من بلاد الترك، كان إمامًا فاضلًا وفيلسوفًا كاملًا، برع في الفلسفة وأتقنها وأظهر محاسنها وتفنن في فن الموسيقى واخترع فيه ما لم يسبق إليه وشرح كتب الأوائل، كان في أول الأمر قاضياً ببلاده فأودع عنده رجل من التجار جملة من كتب أرسطاطاليس فنظر فيها فصادفت منه قبولًا فترك القضاء وأكبَّ عليها بجملته وتجرد وسافر إلى بغداد وأقام بها وقرأ بها المنطق على يوحنا بن حيلان وقرأ النحو على أبي بكر بن السراج ثم سافر إلى مصر ثم رجع إلى دمشق وأقام بها إلى أن مات.

قال أبو الحسن الآمدي: كان الفارابي متقنعًا باليسير من الرزق، وكان في أول أمره ناطورًا ببستان بدمشق وهو في مثل هذه الحالة ملازم للاشتغال ليله ونهاره، وكان في أكثر لياليه يستضيء على المطالعة بقنديل الحارس ولم يزل كذلك حتى ظهر فضله وكثرت تلامذته واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله الثعلبي فأكرمه وأوسع عليه فلم يقبل منه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يصرفها في الضروري من عيشه، ومن دعائه: اللهم ألبسني حِلل البهاء وكرامات الأنبياء وسعادة الأغنياء وعلوم الحكماء وخشوع الأتقياء.

ومن شعره:

بزجاجتين قطعت عمـــري
وعليهما عوَّلت أمــــري
فزجاجةٌ مُلِئت بحبـــــر
وزجاجة مُلئت بخمـــري
فبذي أدوّن حكمتـــــي
وبذي أزيل هموم صـــدري

وكان يرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها. تُوفي رحمه الله في شهور سنة 334 هـ. نقلت ذلك كله من «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» مما اختاره الحسن بن أحمد بن زفر الأربلي الشافعي من تاريخ ابن أبي أصيبعة.

«الهروي»

صاحب الغريبين، أبو عبيد أحمد بن محمد بن محمد بن عبيد العبدي الهروي القاشاني، من كبار العلماء، أخذ عن أبي منصور الأزهري اللغوي، وكتابه المذكور فسر فيه غريب القرآن وغريب الحديث وسار في الآفاق، قال ابن خلكان: وقيل إنه كان يحب البذلة[258]. ويتناول في الخلوة ويعاشر أهل الأدب في مجالس اللذة والطرب عفا الله عنه. وقد أشار الباخرزي في ترجمة بعض أدباء خراسان إلى شيء من ذلك اهـ . توفي سنة 401 وضبط القاشاني بالقاف والشين المنقوطة.

[258]. لعله يقصد الابتذال وهو تعريض النفس لعدم الحرمة والاحتشام.

«ابن فارس اللغوي»

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي، كان إمامًا في علوم شتى خصوصًا اللغة، فإنه أتقنها وألف كتابه (المجمل في اللغة) وهو على اختصاره جمع أشياء كثيرة، وله رسائل أنيقة ومسائل في اللغة يعايي بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري ذلك الأسلوب في مقامته التي وضع فيها مائة مسألة، وعنه أخذ البديع الهمذاني. ومن نظمه:

إذا كنت في حاجة مُرسِـلًا
وأنت بها كَلِفٌ مُغـــــرمُ
فأرسِل حكيمًا ولا تُوصِـه
وذاك الحكيمُ هو الدرهـــمُ

وله:

سقى همذانَ الغيثُ لستُ بسائل
سوى ذا وفي الأحشاء نارٌ تضـــرم
وما لي لا أصفي الدعاء لبلـدة
أفدت بها بستان ما كنت أعلـــم
نسيت الذي أحسنته غير أننـي
مدين وما في جوف بيتي درهـــم

وله:

وقالوا كيف حالك قلت خيـر
تقضي حاجة وتفـوت حـاج
إذا ازدحمت همومُ الصدر قلنا
عسى يومًا يكون لهـــا انفـراج
نديمي هرتي وأنيسُ نفســي
دفاتر لي ومعشق في الســـراج

توفي سنة 390هـ.

«جَحَظَة»

أبو الحسين أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكي، كان فاضلًا صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة وأشعار، ومن شعره:

فقلتُ لها بَخِلْتِ عليّ يقظى
فجُودي في المنام لمُسْتهام
فقالت لي وصرت تنام أيضًا
وتطمع أن أزورك في المنام

وله:

أصبحت بين معاشر هجروا الندى
وتقبلوا الأخلاق من أسلافهـــــم
قوم أحاول نيلهم فكأنمـــــــا
حاولتُ نتفَ الشعر من آنافهـــــم
هات اسقنيها بالكبير وغننـــــي
ذهب الذين يُعاش في أكنافهـــــم

وله:

وقائلة لي كيف حالك بعدنـــا
أفي ثوب يُسْرٍ أنت أم ثوب مُعْسِـــر
فقلت لها لا تسأليني فإننـــــي
أروح وأغدو في حِرِ أمّ مقتـــــــر

توفي سنة 326هـ.

«ابن الخياط»

الشاعر [المفطور].(259) صاحب الديوان المشهور، أبو عبد الله أحمد بن محمد الثعلبي المعروف بابن الخياط، طاف البلاد وامتدح الناس ودخل بلاد العجم. دخل مرة إلى حلب وهو رقيق

الحال لا يقدر على شيء فكتب إلى ابن حبوس الشاعر المشهور:

(259) في (خ):(المشهور).

لم يبق عندي ما يباع بحبـة

وكفاك مني منظري عن مخبـري

إلا بقية ماء وجه صنتهـا

من أن تباع وأين أين المشتـري

وقصيدته البائية كفاه بها تعريفًا بفضله وهي التي أولها: *خذا من صبا نجد أمانًا لقلبه*. تُوفي سنة 517هـ.

«الحافظ أبو الفضل»

محمد بن طاهر المقدسي، ذكره الإمام العلامة الحافظ عبد الكريم بن السمعاني في ذيله على تاريخ بغداد وقال في أثناء ترجمته: كان بحرًا في الحديث. وقال أيضًا في أثناء الترجمة ردًّا على الطاعنين فيه: وفضل محمد بن طاهر ومعرفته بعلم الحديث وتصانيفه وتبحره لا يُنكَر، ومن أنكر من مشايخنا عليه فإنما أنكر سيرته ولعله تاب. ونُقل عن أبي الحسن بن أبي طالب الكرخي الفقيه أنه قال عنه: ما كان على وجه الأرض له نظير. ثم نُقل عنه أنه صنف كتابًا في جواز النظر إلى المُرد، وأنه قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها. فقيل له: تصلي عليها؟ فقال: صلى الله عليها وعلى كل مليح. ونُقل أيضًا عنه حكاية خرج منها أنه كان في غاية الفقر، وملخصها أن الحال أعوزته وهو يكتب الحديث ولم يبق معه غير درهم وهو محتاج إلى كاغد(260) وإلى خبز فردده بين الأمرين يومًا وثانيه، فلما كان اليوم الثالث قال: لم يبق إلا الخبز فإني إن اشتريت به كاغدًا لا أقدر على النسخ لأجل الجوع فوضعه في فِيه وخرج ليشترى به فاتفق أنه ابتلعه فأخذه الضحك، فلقيه أبو طاهر الصانع فسأله عن سبب ضحكه فكتمه إياه فألح عليه فامتنع فحلف عليه بالطلاق ليخبرنه الخبر فأخبره بالحال، فحمله إلى البيت وتسبب له في دراهم كثيرة . اهـ ملخصًا.

(260) الكاغِدُ : القِرْطاس ، أَيِ الوَرَقُ الصَّالِحُ لِلْكِتَابَةِ أَوِ اللَّفِّ.

«أبو العلاء محمد بن محمد بن صالح بن الهبّارية»

كان إمامًا في علوم الأدب، بحرًا في النظم والنثر، سلس الشعر مع قوة المعنى وصحة المبنى. ومن نظمه يمدح أمين الدولة بن التلميذ.(261) وكان نصرانيًّا وكان محمد ابن الهبّارية شريفًا عباسيًّا:

(261) هو أمين الدولة، أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله بن إبراهيم أمين الدولة، أبو الحسن بن التلميذ النصراني البغدادي. ولد سنة 466 هجريَّة (1074 ميلاديَّة). كان متفننًا في علوم كثيرة، فكان حكيمًا، أديبًا، شاعرًا مجيدًا، طبيبًا حاذقًا. وكان عارفًا بالفارسيَّة، واليونانيَّة، والسريانيَّة، متبحرًا في اللغة العربيَّة. وكان ابن التلميذ وابن ملكا المتوفى 547 هجريَّة (1152 ميلاديَّة) في خدمة المستضيء بأمر الله، وكان بينهما شنآن وعداوة. توفي ببغداد سنة 560 هجريَّة (1165 ميلاديَّة) وقد خلَّف مالًا عظيمًا، ونعمًا كثيرة، وكتبًا كثيرة لا نظير لها. من أهم مؤلفاته: الرسالة الأمينية في الفصد، الأقراباذين، شرح مسائل حنين بن إسحاق على القانون لابن سينا، ديوان شعر.

يا بني التلميذ لو وافيتكـم
لم تكن نفسي بأهـــلي شغفَهْ
إنما طلقت كِرمان بكـــم
إنكم لي عـــــوض ما أشرفَهْ
برئيس الحكماء المرتجَى
إنـــه لـي جَنّة مُخْتَرَفــــهْ
شمس مجد لا تراها أبـدًا
عن ســـموات العُلى منكسِفَه
جَلَّ أن يدرك وصفُ مجدَه
إنه أكثــــر من كـــل صِفه
لو تمكنت لكانت جملتـــي
في زوايا داره معتكِفــــــه
فبه تفتخر الدنيا التــــــي
أصبحت من غيره مستنكِفـــه
إنما أحْبو بني التلميذ بالـــ
مدح إذ كلهم ذو معرفــــــه
فابن يحيي منهم محيي النـدا
زاد في الجود على من خلفـــه

حقق الكنية من والـــــده

كـــــــــرمًا فيه وطبعًا أَلِفه

وهم من صاعد عن ســـادة

بأبــــي مجدهم ما أنطفـــه

لا تقسهم بالورى كلهـــم

فتقس لب السري بالجعدفـــه

فابن إبراهيم لَاهُوتُ العلـى

من دعاه بشـــــرًا ما أنصفـه

يا رئيس الحكماء استجلهـا

من بنـــات الفكر بكرًا مترفـه

إنني أنفـدت نجلـي قاصدًا

أشتكـــي دهرًا قليل النَّصَفـه

قلت: وقوله فابن يحيى منهم يحيي الندا.. إلخ أراد به أبو الفرج يحيى بن التلميذ وهو يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ الملقب معتمد الملك وله فيه مدائح غيرها، فمنها قوله:

يحيى بن صاعد بن يحيى لم يزل

للمكرمات إلى حِيالــــــي جالبًا

ما زال يُغريني عُلاه ولـــم أزل

بعلاه ما بين البريـــــة خاطبًـا

ومنها:

لا تحوِجنّ أخاك لا بل عبـــــدك الـ

قِنَّ بن عبدك أن يروم أجانبـــا

فلأنت أولى بي لما عودتنــــــــي

عمن غدا لي في الأصول مناسبًا

ثقةَ الخلافة سيدَ الحكمـــــــاء معـ
ـتمدَ الملوك الفيلسوفَ الكاتبا
مازحْ وطايبْ ما استطعت فما الفتـــى
ممن يكون ممازحًا ومطايبـــا
وفداك من نُوَب الزمان وصَرْفِـــــه
قوم يزيدون الزمان معايبـــا

وسبب ذلك أنه أتاه إلى أصفهان فحصَّل له مالًا جزيلًا من كبارها.

«ابن المنير»

أبو الحسين أحمد بن المنير الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور، مَهَرَ في اللغة والأدب وقال الشعر فأجاد، قدم دمشق وسكنها، وكان كثير الهجاء بذيء اللسان، ولما كثر منه ذلك سجنه نوري بن أتابك صاحب دمشق وعزم على قطع لسانه فشُفع فيه ونُفي. وله من جملة قصيدة:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله
في منزل فالرأي أن يتحـــــولا
كالبدر لما أن تضاءل جد فـــي
طلب الكمال فحازه متنقـــــلًا

ومنها:

لله علمي بالزمان وأهلـــــه
ذنب الفضيلة عندهم أن تكمـــلا
طبعوا علي لؤم الطباع فخيرهـم
إن قلت قــــال وإن سكتَّ تقوَّلا

تُوفي في جمادي الآخرة سنة 548هـ.

«النفيس»

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم المنعوت بالنفيس، كان من العلماء والأدباء وله ديوان شعر جاد فيه. ذكره العماد في الخريدة فقال: فقيه مالكي المذهب، له يد في علوم الأوائل والأدب. ومن شعره:

يسر بالعيد أقوام لهـــــم سَعَةٌ

من الثراء وأما المقتـــــــرون فلا

هل سرني وثيابي فيه قوم سبـــا

أم راقني وعلى رأسي به ابن جـــلا

.توفي سنة 603 هـ بقوص(262). بعد أن جاب البلاد واستجدى الناس بشعره

.مدينة في صعيد مصر تتبع محافظة قنا وتقع على الساحل الشرقي للنيل .(262

«أبو الصلت»

أمية بن عبد العزيز الأندلسي، كان أديبًا ماهرًا في علوم الأوائل، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه ومن نظمه:

وقائلة ما بـــــالُ مثلِكَ خامــلًا

أأنتَ ضعيـــفُ الرَّأي أم أنتَ عاجِزُ

فقلتُ لها ذَنبي إلى القوم أنَّنـــي

لِما لم يحــوزوه من الفضـلِ حَائِزُ

.توفي سنة 538هـ

«مَبْرَمان»

النحوي شارح كتاب سيبويه وإن كان لم يتمه، هو أبو بكر بن محمد علي العسكري، أخذ عن المبرد وتصدر بالأهواز. قال الذهبي: كان وضيع النفس، يأخذ من الطلبة ويطلب حمال قفص فيحمله إلى داره من غير عجز وربما انبسط فبال على الحمال ويَتَنَقَّل(263). بالتمر فيحذف بنواه الناس. تُوفي سنة 327 هـ ، ولقَّبه المبردُ مبرمان لكثرة سؤاله. ومن مصنفاته: كتاب علل النحو، وكتاب

التلقين، وكتاب شرح شواهد سيبويه، وكتاب شرح سيبويه. وكان إذا ركب في طبلية الحمال وبال عليه اعتذر له بقوله: احسب أنك حملت رأس غنم.

(263) يتنقل: أكل النُّقْلَ، وهو ما يُتَنَقَّل به على الشراب من فواكه وكوامخ وغيرها وما يُتَفَكَّه به من جوز ولوز وبندق ونحوها.

«أبو الحسن الربعي»

علي بن عيسى بن الفرج بن صالح، أبو الحسن الربعي النحوي الزيدي، أحد أئمة النحو، كان دقيق النظر في النحو جيد الفهم والقياس، لازم أبا علي الفارسي عشرين سنة فقال له أبو علي: ما بقيتَ تحتاج إليّ، ولو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد أنحى منك. ومن تصانيفه: شرح الإيضاح للفارسي، وكتاب شرح مختصر الجرمي، وكتاب البديع في النحو، وكتاب المبني على فعال، وكتاب التنبيه على خطأ ابن جني في تفسير شرح المتنبي، وكتاب شرح سيبويه(264). وكان يُرمى بالجنون، مر يومًا بسكران ملقًى على قارعة الطريق فحل سراويله وجلس على أنفه وجعل يضرط وينشد:

(264) يلاحظ أن اسم الكتاب تكرر مع مبرمان السابق ذكره.

تمتع من شميم عِرار نجـد

فما بعد العشية من عــــرار

ونازعه يومًا شخص في مسألة فعمد إلى شرحه لكتاب سيبويه فوضعه في إجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم الحيطان ويقول: جزاء من يجعل أولاد البغالين نحاة. وسأل من تلامذته أن يركبوا معه إلى [كلواد](265) فظنوا حاجة عرضت فركبوا معه وعرضوا عليه الركوب فأبى، فلما صار بحذائهم أوقفهم على سلم وأخذ كساء وعصا وما زال يعدو على كلب هناك وهو يهرب منه تارة ويثب عليه أخرى حتى أعياه ذلك، فعاونوه عليه فأمسكه وعضه عضًّا شديدًا وقال: هذا عَضَّني منذ أيام، فأردت أخالف فيه قول الشاعر:

(265) كلواد: هكذا في (خ) و(ط) بالدال غير المعجمة، وفي معجم البلدان (كَلْوَاذ): من أرض همدان, و(كَلْوَاذة) وهي بين الكوفة وواسط، و(كَلْوَاذَى): مثل الذي قبله إلا أن آخره ألف تكتب ياء مقصورة: وهو طسوج قرب مدينة السلام بغداد وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق.

شاتمني عبدُ بني مسمـــع

فصنتُ عنه النفسَ والعِرضَـــا

ولم أُجبه لاحتقـــارِي له

ومن يعضّ الكلب إن عضّـــا

تُوفي سنة 430هـ.

«الفالي»

أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الفالي(266)، كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان كَلِفًا بها فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها فاشتراها الشريف المرتضى فوجد فيها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن الفالي المذكور(267):

(266) (الفالي) بالفاء، وقد جاء في (خ) و(ط) بالقاف (القالي) والصواب ما أثبتنا نقلا عن سير أعلام النبلاء وهو غير أبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (280- 365هـ) صاحب كتاب الأمالي.

(267) الأبيات وردت في سير أعلام النبلاء (18/55) وفيها (فقد) بدلا من (لقد) و(كرائم) بدلا من (ودائع).

أنِسْتُ بها عِشرين حولًا وبعتُهـا

فقد طالَ وجدي بعدها وحنينــي

وما كان ظني أنني سأبيعُهــا

ولو خَلَّدَتْني في السُّجون ديونــي

ولكن لضعفٍ وافتقــارٍ وصِبيةٍ

صِغارٍ عليهم تستَهِلُّ جُفونــي

فقلتُ ولم أملك ســوابق عبرة

مقالة مكوي الفؤاد حزيــن

وقد تُخْرِجُ الحاجـاتِ يا أمَّ مالك

ودائعَ من ربٍّ بهنَّ ضنيــن

«البيهقي»

أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخُسْرَوْجِردي، الإمام أبو بكر، وخُسْرَوْجِرْد بضم الخاء المعجمة وسكون السين المهملة وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء وفي آخره دال. هو الإمام الجليل الحافظ الفقيه الأصولي القائم بنصرة مذهب الشافعي صاحب التصنيفات. له كتاب السنن الكبير، وكتاب المبسوط في نصوص الشافعي، وكتاب

دلائل النبوة، وكتاب شعب الإيمان، وكتاب معرفة السنن والآثار، قال تقي الدين السبكي: معناه معرفة الشافعي بالسنن والآثار وغير ذلك. قال تاج الدين السبكي في الطبقات: كان على سيرة العلماء قانعًا من الدنيا باليسير متجملًا في زهده وورعه. تُوفي في نيسابور في جمادى الأولى سنة 458هـ.

«أبو سعيد الإصطخري»

الحسن بن أحمد بن يزيد بن عيسى، الإمام الجليل أبو سعيد الإصطخري القاضي، قال الخطيب: أحد الأئمة المذكورين من شيوخ الفقهاء الشافعيين، كان ورعًا زاهدًا متقللًا. قال الطبري: وحكى عن الداركي أنه قال: ما كان أبو إسحاق المروزي يفتي بحضرة الإصطخري. قال أبو إسحاق المروزي: سُئل يومًا أبو سعيد عن المتوفَّى عنها زوجها إذا كانت حاملًا هل تجب لها النفقة؟ فقال: نعم. فقيل: ليس هذا من مذهب الشافعي. فلم يصدق فأراه كتابه فلم يرجع وقال: إن لم يكن مذهبه وإلا فهو مذهب علي وابن عباس. قال أبو إسحاق: فحضر يومًا مجلس النظر مع أبي العباس بن سريج فتناظرا فجرى بينهما كلام فقال له أبو العباس: أنت سُئلت عن مسألة فأخطأت فيها وأنت رجل كثرةُ أكل الباقلاء قد ذهبت بدماغك. فقال له أبو سعيد: وأنت كثرةُ أكل الخَلِّ والمُرِّيِّ(268) قد ذَهبَ بدِينك. قال الطبري: وكان من الورع والزهد بمكان لم يصله سواه، يُقال إنه كان قميصه وعمامته وسراويله وطيلسانه من شُقة واحدة، وكانت فيه حِدَّة، وله تصانيف كثيرة فمنها: كتاب أدب القاضي- ليس لأحد مثله، ومن مفردات مسائله قوله: إنه ينتقض الوضوء بمس الأمرد. توفي ببغداد في ثاني الجمادين سنة 328 هـ ، نقلته من طبقات السُّبكي.

(268) المُرِّي: إدامٌ كالكامَخ يُؤْتَدَمُ به. والكوامخ والمقبلات لا تؤكل إلا مع الطعام الطيب والدسم ، ويقصد هنا أن كثرة أكل الطعام الطيب نتيجة مصاحبة الأمراء ورجال الدولة قد أفسدته.

«السيد ركن الدين»

الحسن بن محمد بن شرفشاه العلوي الحسيني الاسترابادي، تلميذ النصير الطوسي أبو الفضائل(269)، له عدة مصنفات منها: شرح أصول ابن الحاجب، وشرح مقدمته في النحو، وشَرَحَ الحاوي شرحين، وكان له إدرارات وجوامك(270) كل يوم ستون درهمًا، كان يعيد

دروس النصير الطوسي في الحكمة. قال الشيخ شهاب الحسباني ومن خطه نقلت: وكان في دينه رقة. تُوفي سنة 718 هـ بالموصل.

269) نصير الدين محمد بن محمد بن حسن الطوسي (597هـ - 672هـ) عالم فارسي فذ في مختلف المجالات، ورجل سياسة. له مؤلفات (بالعربية) في علم الفلك والرياضيات والفلسفة والفقه.

270) جامكي من جامة: ثوب، لباس، ومعناها الأصلي: المال المخصص للملابس، وجمعها جوامك وجامكي، وهي العطاء والأجرة والوظيفة. وجوامك المدارس أي رواتب المدرسين، ويقال أعطاه جامكية وعمل له جامكية أي أجرى له مرتبًا أو وظيفة.

«أبو هفان»

عبد الله بن أحمد بن حرب بن خالد، أبو هفان النحوي اللغوي، روى عن الأصمعي وصنف كتبًا منها: كتاب صناعة الشعر -كبير، وكتاب أخبار الشعراء. قرأت بخط الحسباني أنه كان مقتّرًا عليه ضيق الحال، وأن دعبلًا الخزاعي أضافه وسقاه نبيذًا حلوًا ووصى الجواري لا يدلوه على الخلاء ثم تركه ونام، فقال لبعض الجواري: أين الخلاء؟ فقالت لها الأخرى: ما يقول سيدي فقالت: يقول غني:

خلا من آل عاتكة الديـــــار

فمثوى أهلها منهم قفـــــــار

فغنت هذه وصرخت هذه وشربوا أقداحًا فقال: أحسنتم غير أنكم لم تأتوا على ما في نفسي. فلما أجهده الأمر قال: لعل الجارية بغدادية لا تعرف الخلاء، فقال لها: أين المُسْتَرَاحُ؟ ففعلوا كفعلهم الأول فقال: لعلهن حجازيات، أين الحَشُّ؟ ففعلوا كذلك، ثم قال: لعلهن كوفيات، أين الكنيف؟ فأعادوا ذلك، فحل سراويله وذَرَقَ في وجوههن فانتبه دعبل وأمر له بثياب. وهي حكاية طويلة. قال سعيد بن حميد لأبي هفان: لأن ضرطتُ عليك ضرطةً لأبلغنك إلى فَيْد(271) فقال له أبو هفان: أسعدْني بأخرى تبلغني إلى مكة، فإني ما حججت بعدُ. مات سنة 255هـ.

271) فَيْد: مكان، وجاء في (الصِّحاح) أنه نُزُلٌ بطريق مكة، وجاء في القاموس المحيط أنه قلعة بطريق مكة.

«الرياشي»

العباس بن الفرج الرياشي مولاهم، قال المبرد: سمعت المازني يقول: قرأ الرياشي عليّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أكثر مما استفاد مني. يعني أنه أفاده لغته وشعره وأفاده هو النحو. قال

المبرد: وكان الرياشي والله أحمق، ومن حمقه أنه إذا كان صائمًا لا يبلع ريقه.

«ابن بَابشاذ»

النحوي البصري العلامة طاهر بن أحمد بن بابشاذ أبو الحسن، كان يأكل يومًا مع بعض أصحابه طعامًا فجاء قط فرمى إليه بشيء فأخذه وذهب به وعاد سريعًا، ثم فعل ذلك مرة بعد أخرى فعلم أن له سببًا فاتبعوه فإذا بقط آخر أعمى في سطح فقال الشيخ: هذا حيوان بهيم قد ساق الله له رزقه أفلا يرزقني وأنا عبده، فترك علائقه الدنيوية ولزم غرفة في جامع عمرو بن العاص وأقبل على العلم وجمع تعليقه في النحو قريبًا من خمسة عشر مجلدًا وأصحابه كابن برّي وغيره ينقلون منها ويسمونه تعليقة الغرفة، وكان له معلوم وراتب على قراءته للكتب التي يكتبونها عن السلطان وإصلاحها تُعرض عليه قبل أن تحمل إلى الجهة التي عُيِّنت لها. سقط من سطح جامع عمرو بن العاص فمات من وقته سنة 469هـ.

«عبد الرحمن»

ابن محمد بن عُبيد الله- بضم العين مصغر- ابن أبي سعيد، كمال الدين أبو البركات الأنباري النحوي، صاحب التصانيف المفيدة منها: هداية الذاهب في معرفة المذاهب، وبداية الهداية في الأصول، والداعي إلى الإسلام في الكلام، والنور اللائح في اعتقاد السلف الصالح، وفي الأدبيات ما يزيد على خمسين مصنفًا. انتهت الرحلة إليه بالعراق من سائر الأقطار.

قال الموفق عبد اللطيف: لم نر في العباد والمنقطعين أقوى طريقة ولا أصدق منه في أسلوبه جدّ محض، لا يعتريه تصنع، ولا يعرف السرور ولا أحوال العالم، كان له من أبيه دار يسكنها ودار وحانوت مقدار أجرتهما نصف دينار في الشهر يقنع به ويشتري منه ورقًا ولا يوقد عليه ضوءًا وتحته حصير قصب وعليه ثوب وعمامة قطن يلبسهما عند المضي إلى الجمعة ويلبس في بيته ثوبًا خَلَقًا ولا يخرج منه إلا يوم الجمعة. وسَيَّرَ إليه المستضيء خمسمائة دينار فرَدَّها، فقال له: اجعلها لولدِك. فقال: إن كنت خلقته ارزقه. تُوفي ليلة الجمعة تاسع شعبان سنة 477 هـ ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

«الواحدي»

علي بن أحمد بن محمد أبو الحسن الواحدي، كان مفسرًا نحويًّا أصوليًّا، أنفق في صباه مالًا على تحصيل العلم وكان من أولاد التجار، وذكر في مقدمة تفسيره الذي سماه (البسيط) أشياخه ومن قرأ عليه. قيل للغزالي لما صنف كتبه: ما عملت شيئًا، أخذت الفقه من إمام الحرمين من نهايته وأسماء الكتب من الواحدي. وكان الغزالي يقول: من أراد أن يسمع التفسير كأنه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليه بتفسير الواحدي. وله كتاب نفي التحريف عن القرآن الشريف وغيره، وكان عديم النظير إلا إنه كان يبسط لسانه في العلماء. تُوفي سنة 468هـ.

«ابن برهان»

عبد الواحد بن علي بن عمر بن إسحاق بن إبراهيم أبو القاسم بن برهان، النحوي الأسدي العكبري صاحب العربية والنحو والتاريخ وأيام العرب، قرأ على عبد السلام البصري وأبي الحسن التميمي، كان فيه شراسة على من يقرأ عليه، وكان الطلبة يمشون حوله يمينًا وشمالًا وهو يلقي عليهم المسائل، وتكبَّر على أولاد الرؤساء، وكان يتعصب لمذهب أبي حنيفة، وكان يحب الباذنجان ويقول في تفضيله: الناس يأكلونه ثمانية أشهر في العام وهم أصحاء ولو أكلوا الرمان أربعة أشهر فَلَجوا[(272)]. قرأت بخط الشيخ شهاب الدين الحسباني: إنه كان على إمامته وديانته يحب مشاهدة المليح ويقبِّل أولاد الأمراء والأتراك وأرباب النعم بمحضر من آبائهم ولا ينكرون عليه ذلك لعلمهم بدينه وورعه. تُوفي سنة 446 هـ. قال: ولم يكن يلبس سراويل ولا على رأسه غطا.

[(272)] فَلَجَ: أصيب بالفالج وهو الشلل.

«الحريري»

صاحب المقامات، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد البصري الحِرامي الحريري أحد الأئمة في النظم والنثر، وعُمل بعد الحريري مقامات كثيرة: مقامات ابن الصقيل، مقامات أبي العباس يحيى النصراني المعروفة بالمسيحية، مقامات أبي الهيجاء شهنيروز. شرح المقامات ابن ظفر شرحين: كبير وصغير، والمطرزي والشريشي وغير واحد. قيل وكانت مسوداتها نحو حِمل جمل. سمع الحريري من أبي تمام محمد بن الحسن بن موسى المقرئ وأبي القاسم بن الفضل المقصافي الأديب، وقرأ النحو على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين في العربية، وتفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي. كان الحريري غنيًّا له ثمانية عشر ألف نخلة، كل نخلة في سنة بدينار.

وقيل إنه كان قذرًا في نفسه وشكله ولبسه، قصيرًا ذميمًا بخيلًا مولعًا بنتف ذقنه. وحكى بعض أهل الأدب أن الحريري لما قدم بغداد وكان الناس يهتفون بفضائله ويتطلعون إلى لقائه فحضر إليه ابن حكينا المعروف بالبرغوث الشاعر فلم يجده على ما كان في ظنه فنظم أبياتًا:

شيخ لنا من ربيعة الفـــــرس

ينتف عثنونه من الهـــــوس.(273)

(273) العُثْنُونُ : ما نَبَتَ على الذَّقَن وتحتَهُ سُفْلًا، وشُعْيراتٌ طِوالٌ عند مذبح البعير والتيس.

أنطقه الله بالشَّنان وقـــــد

ألجمه في العراق بالخـــــرس

وقيل إن الحريري حضر مجلسًا فذكروا فيه قول بعض الأدباء: «إن لم يكن لنا طمع في دَرْكِ درّك فاعفنا من شَرَك شرِّك» استحسنها الحاضرون فعمل الحريري في الحال: «إن لم تُدْنِنا من مبارِك مبارِّك فأبعدنا عن مَعارِك معارِّك». وبلغه أن صاحبًا له يسمى أبا زيد المطهر بن سلام البصري الذي عمل المقامات على لسانه شرب مسكرًا فكتب إليه: أبا زيد، اعلم أن من شرب الطلا تدنس فافهم سر قولي المهذب، ومن قبل سُمِّيت المُطهر، والفتى يصدق بالأفعال تسميةَ الأب، فلا تَحْسُهَا كي ما تكون مطهَّرًا وإلا فغيِّر ذلك الاسمَ واشرب.

«أبو العباس»

أحمد بن الحسين النحوي الموصلي المعروف بابن الخباز، كان من علماء النحو وفرسانه، أديبًا لطيف الروح عذب العبارة حسن النظر كثير الاطلاع والحفظ. قال ابن هشام مصنف المغني: فيما وجدته بخطه وكأنه كان غير مصَنف من أهل زمانه وقد وقفت له على عدة تآليف يشكو فيها حاله، فمن ذلك قوله في خطبة كتابه الذي سماه (الفريدة في شرح القصيدة) وهي قصيدة أبي عثمان سعيد بن [المبارك].(274) الشهير بابن الدهان: «فإن أصبت فمن فضل الله الرحيم، وإن أخطأت فمن الشيطان الرجيم، ومن عَلِم حقيقة حالي عذَرني إذا قصرت بأن عندي من الهموم ما يزع الجنَان عن حفظه ويكف اللسان عن لفظه، ولو أن ما بي بالجبال لهدَّها، وبالنار أطفأها، وبالماء لم يجرِ، وبالناس لم يحيوا، وبالدهر لم يكن، وبالشمس لم تطلع، وبالنجم لم يسر. وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي، وأن لا يزيدني على بلواي، فإني كلما أردت خفض العيش

صار مرفوعًا، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعًا. والله المستعان في كل حال ومنه المبدأ وإليه المآل». نقلت ذلك كله من خط العلامة جمال الدين بن هشام مصنف المغني وقال المصنف رحمه الله: نقلت من خط الشيخ نور الدين الأبياري: «الصعاليك من العرب عروة بن الورد العبسي وتأبط شرًا الفهمي والشنفرَى الأزدي أزد شنوءة وعمرو بن معدي كرب الزبيدي والأشعر بن مالك الأودي وعمرو بن برّاق الهمداني وشراحيل بن الأشهب الجعفي وأبو خراش الهذلي وعمرو ذو الكلب الهذلي» ونقلت من خطه أيضًا: «قال الذهبي :كان في الأشعر دعابة ومزح كثير، وكان يقنع باليسير، وكان له بعض قرية من وَقْفِ جدّهم الأمير جلال بن أبي بردة، ويقال إنه بقي إلى سنة 330»(275).

(274) في (خ) و(ط): (المناس) والتصويب من «معجم الأدباء» لياقوت (5/2816) و»الوافي بالوفيات» (15/153).
(275) وتوفي ابن الخباز سنة 639هـ.

الفصل الحادي عشر

«في مباحث تتعلق بالفصل قبله»

ومن المباحث النكات الحاصلة للأعيان

لا يحملنك قلةُ من عَدَدْنا في الفصل قبله من العلماء الذين تقلصت عنهم الدنيا على توهم انبساط الدنيا على غالب العلماء أو معظمهم واعتقاد تمتعهم بها، فإن لانحصارهم في العدد المذكور في الفصل قبله أسبابًا، منها أنا لم نذكر من العلماء إلا من زويت عنه الدنيا ولم يترجم بزهد وشدة تقشف وردّ للدنيا وإعراض عنها، وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل الشيخ:

«محيي الدين النووي»

يحيى بن شرف بن مُرِّي، مع أنه كان لا يأكل إلا أكلة بعد عشاء الأخيرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السَّحر، ولا يشرب الماء المبرَّد ولا يأكل من فاكهة دمشق، معلِّلًا ذلك بأن الأوقاف والأملاك للمحاجير(276) فيها كثيرة والتصرف لهم لا يجوز إلا على وجه الغبطة والمعاملة فيها على وجه المساقاة وفيها خلاف، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء للمالك وكان لا يدخل الحمام ولم يتزوج ولم يشرب الفُقاع(277) ومأكله كعك يابس وتين حوران يأتيه به أبوه وملبسه الثياب المرقعة. توفي سنة 676هـ.

(276) المَحْجَر: كُلُّ مَا لَهُ حُرْمَةٌ، والجمع: المحاجر، ولم يرد جمعها على محاجير. وفي لسان العرب: والحَجْرُ والحِجْرُ والحُجْرُ والمَحْجِرُ ، كل ذلك : الحرامُ ، والكسر أَفصح.

(277) الفُقَّاعُ : شرابٌ يُتَّخَذ من الشعير ، يُخَمَّر حتّى تعلوه فُقاعاته.

«ومثل السهروردي»

صاحب عوارف المعارف، إمام وقته لسانًا وحالًا وعلمًا وعملًا مع إنه عمي في آخر عمره وأقعد ومات ولم يخلف كفنًا. توفي سنة 632هـ.

«والحسن بن العباس الرستمي»

الأصفهاني، مع أنه كان يُسمع عليه الحديث وهو في رثاثة من الملبس والمفرش بحيث لا يساوي طائلًا، كما ذكره ابن كثير في طبقاته. تُوفي سنة 561هـ.

«ومثل إبراهيم بن إسحاق»

ابن بشير أبو إسحاق [الحربي].(278) أحد الأئمة في الفقه والحديث وغير ذلك، إمام مصنف عالم يُقاس بالإمام أحمد شيخ الدارقطني. كان يقول: الرجل الذي يُدخل غَمَّه على نفسِه ولا يُدخله على عياله، وقد كان بي شقيقة.(279) منذ خمس وأربعين سنة ما أخبرت بها أحدًا قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحدًا. أنفق على نفسه وعياله في بعض الرمضانات درهمًا وأربعة دوانيق ونصفًا، وبعث إليه المعتضد بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها فرجع الرسول يقول له: قال لك أمير المؤمنين فرِّقها على جيرانك. فقال: هذا شيء لا نجمعه ولا نفرقه، إما أن يتركنا وإما أن نتحول من بلده.(280). تُوفي لتسع بقين من ذي الحجة سنة 284. وكغيرهم من العلماء والأولياء.

278). في (خ) و(ط):»الحوي» والتصويب من معجم البلدان لياقوت الحموي (1/42) وقال ياقوت:»نقلت من كتاب أبي بكر الخطيب قال: إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله بن دِيْسَم أبو إسحق الحربي».

279). الشقيقَةُ: ألمٌ ينتشر في نصف الرأس والوجه.

280). يروي ياقوت الحموي عن زهده فيقول: «وحدَّث أحمد بن عبد الله بن خالد بن ماهان المعروف بابن أسد قال: سمعتُ إبراهيم الحربيَّ يقول: أجمع عقلاء الأمة أنه من لم يجر مع القدَر لم يهنأ بعيشه، كان يكونُ قميصي أنظف قميصٍ وإزاري أوسخ إزار، ما حدثت نفسي أنهما يستويان قط، وفرد عقبي مقطوع، وفرد عقبي الآخر صحيح، أمشي بهما وأدورُ بغداد كلها هذا الجانب وذاك الجانب، لا أحدِّث نفسي أني أصلحهما، وما شكوت إلى أمي ولا إلى أختي ولا إلى امرأتي ولا إلى بناتي قطُّ حمى وجدتها، الرجل هو الذي يُدْخِل غمه على نفسه ولا يغمُّ عياله، كان بي شقيقةٌ خمسًا وأربعين سنة ما أخبرتُ بها أحدًا قط، ولي عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرتُ به أحدًا، وأفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين في اليوم والليلةإن جاءتني بهما امرأتي أو إحدى بناتي أكلتُ وإلا بقيتُ جائعًا عطشان إلى الليلة الأخرى، والآن آكلُ نصف رغيف وأربع ‘شرة تمرة إن كان برنيًّا، أو نيفًا وعشرين إن كان دَقَلًا. ومرضت ابنتي فمضت امرأتي فأقامت عندها شهرًا فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانقين ونصف. ودخلتُ الحمامَ واشتريت لهم صابونًا بدانقين فقام نفقة شهر رمضان كلِّه بدرهم واربعة دوانيق ونصف، ولا تروَّحتُ ولا رُوِّحتُ قط، ولا أكلتُ من شيء واحد في يومٍ مرتين» اهـ (معجم البلدان، 1/42).

ومنها أنَّا لم نذكر أيضًا من لم يُنَصّ على فقره صريحًا أو بلازم واضح. وكثيرًا ما يقول المترجمون: «كان متقللًا» ويقتصرون عليه فلا أذكره مع الظن بأنه من المستحقين للذكر في الفصل قبله، فمن ذلك:

(ابن الأنباري)

عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري صاحب أسرار العربية والمصنفات التي تزيد على مائة تصنيف، فإنهم قالوا في ترجمته: انقطع للعبادة والعلم صابرًا على خشن العيش والتقلل منه. تُوفي

سنة 377هـ.

(عزيزي بن عبد الملك الشافعي المعروف بشيدله)

صاحب مصارع العشاق، فإنهم قالوا في ترجمته: كان زاهدًا متقللًا من الدنيا. توفي سنة 494- ومنه

(المبارك)

ابن محمد بن عبد الله السوادي الواسطي، نزيل نيسابور، أحد أركان الفقهاء المكثرين الحافظين للمذهب، القوي المناظرة، قالوا في ترجمته: كان متجملًا قانعًا باليسير، ومع ذلك ما ذكرته وغيرهم ممن لم يتضح لي فقره إلا بلازم ضعيف أو عبارة مُجَمْجَمَة[281]، وسقط بذلك طائفة كبيرة.

[281] عبارةٌ مُجَمْجَمةٌ: عبارة خفيَّة غير واضحة.

ومنها إنا لم نذكر كل من شدّ أطرافًا من العلم كيف ما كان وقعدت عنه الدنيا، بل إنما ذكرنا الأعيان وسقط لذلك طائفة كبيرة. ومنها أني لم أذكر إلا من صرح بفقره أو بلازم فقره الجلي، أما من لم يصرح بفقره ولا بغناه ولا يسند إليه تولية منصب ولا تدريس بل ترجموه بالعلم وسَيّبوه[282] فلم أذكره، وفيه بحث؛ لأنه لا يلزم من عدم ذكر الفقر عدمُ الفقر، ولا يقال هو معارض بمثله لأنه لا يلزم من عدم ذكر الغِنى عدم الغِنى؛ لأنا نقول لكن الترجيح معنا لما أن المؤرخين بصدد ذكر كمالات المترجم حتى إنهم يذكرون تداريس لا يعبأ بها في بعض التراجم، فلو كان لَذُكر لِتَوفُّر الداعية على نقله، فلما لم يُذكر عُلِم أنه لم يقع؛ وسقط بذلك طائفة كثيرة مثل (ابن الحاجب) أبي عمرو عثمان المالكي المتوفي سنة 646 هـ ،ومثل (ابن عصفور) علي بن مؤمن بن محمد العلامة الأشبيلي المتوفي سنة 664هـ، ومثل أبي محمد عبد الله (ابن الخشاب) وغيرهم من العلماء الأئمة ومثل (الزمخشري) ومن نظمه:

[282] سَيَّبُوه: بمعنى: تركوه وخَلَّوْه، والفعل فصيح مستخدم في العاميّة بنفس معناه في الفُصحى.

خليليّ هل تجدي عليّ فضائلــي

إذا أنا لم أرفع على كل جاهــــــل

من الغبن ذو نقص ينـــال منازلًا

أخو الفضل محقوق بتلك المنـــازل

ومن لي بحقي بعد ما وقرت على
أراذلها الدنيا حقــوق الأماثـــل
كذا الدهر كم شوهاءَ في الحلـي جيدها
وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجاني أنَّ غُرّ مناقبـــي
يغني بها الركبانُ بين القوافــــل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي
وسارت مسير النيرات رسائلــــي
وكم من أمالٍ لي وكـم من مصنّف
أصاب بها ذهني محز المفاصـــل
غنيٌّ من الآداب لكننــــي إذا
نظرت فما في الكف غير الأنامـــل
فيا ليتني أصبحت مستغنياً ولــم
أكن في خوارزم رئيس الأفاضـــل
ويا ليتني مُرْضٍ صديقي ومُسخط
عدوّي وأني في فهاهة باقـــــل
فلست بفضلي بالغًا ولو أننـــي
كقُسّ إياد أو كسحبان وائـــــل
وما حق مثلي أن يكون مضيَّقًــا
وقد عظمت عند الوزير وسائلـــي
فلا تجعلوني مثل حمزة واصـــل
فيسقطني حذف ولا راء واصـــل
فكل امرئ أمثاله عدد الحصـــا

وهات نظيري في جميع المحافـــل

فوقع إلى هذا الزمـــــان فإنه

غلامك يجعلنـــي كبعض الأراذل

أنَّا لم نذكر من تُرجم بفقر ثم بغِنى زائد تغليبًا لجانب الغِنى المتأخر، وسقط بذلك أيضًا (ومنها) طائفة.

إن الكتب والزمان لم يساعدا على استيفاء هذا المقام وإعطائه حقه فلعل ما لم نره أكثر (ومنها) مما وقفنا عليه (ومنها) أنَّا لم نذكر إلا ما وقفنا عليه في كتاب معتمد وُضع للتراجم أما الكتب الأدبية ففيها أشياء كثيرة لم أذكرها .

و(منها) ما في العقد لابن عبد ربه وشرح الزيدونية لابن نباتة أن أبا الأسود الدؤلي النحوي وسهل بن هارون الملقب بُزُرْجِمْهر الإسلام والكندي الإمام في العلوم العقلية الملقب بفيلسوف العرب كانوا في غاية البخل وفي عدم ذكر أبي الأسود الدؤلي معنى آخر هو جلالته وصيانته عن نسبه البخل إليه.

أني لم أذكر في الفصل قبله في النكبات العارضة للأعيان، فقلما خلا عالم أو نبيل من (ومنها) نكبة، وأنا أذكر هنا طرفًا لائقًا بمقصودي من ذوي النكبات.

«مالك بن أنس»

ابن أبي عامر بن الحرث بن غيمان- بالغين المعجمة- أبو عبد الله الإمام المدني أحد أئمة الإسلام، سُعي به إلى جعفر بن سليمان بن علي ابن عم أبي جعفر المنصور فدعا به وجرّده وضربه سبعين سوطًا ومدت يداه حتى انخلع كتفاه، وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد بن عبد الله بن حسن وقالوا له: إن في أعناقنا مبايعة أبي جعفر. فقال: إنما بايعتم مُكرَهين وليس على مُكرهٍ يمين. فأسرع الناس إلى محمد فسعى به فضُرب لذلك، ثم لم يزل بعده في علو ورفعة كأنما كانت تلك السياط حليًا تحلى بها. تُوفي سنة 174هـ .

«أبو حنيفة»

النعمان بن ثابت الفقيه الكوفي أحد الأئمة المتبوعين ، كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط، وبقي على الامتناع وسجنه فتوفي بالسجن في أحد القولين سنة 150 هـ ببغداد.

«الإمام أحمد بن حنبل»

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي، استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقوّلوه بخلق القرآن فعنّ له بطرسوس أن يكتب إلى نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، فكان ذلك أول الفتنة، وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة 218هـ، فلما وصل الكتّاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا فهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرَهين، واستمر على الامتناع أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري فحُملا على بعير متعادلَين مقيَّدين إلى الخليفة عن أمره.[283] بذلك، ثم جاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وأن الأمر شديد فرُد إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى ومات محمد بن نوح في الطريق وأودع الإمام أحمد السجن ببغداد نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ثم أحضره المعتصم في قيوده وأجلسه لمجلس ودعاه إلى القول بخلق القرآن فامتنع وقال: فما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنا أشهد أن لا الله إلا الله وأن القرآن علم الله، ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر. أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به. وناظره أحمد بن أبي دؤاد وغيره وأنكروا الآثار التي أوردها وقالوا للمعتصم: هذا أكفرك وأكفرنا. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين، ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين. فعند ذلك حمي واشتد غضبه فأُخذ وجيء بالعقابين والسياط وضربه ضربًا مبرحًا شديدًا حتى أُغمي عليه وغاب عقله وأمر بإطلاقه إلى أهله فنُقل وهو لا يشعر، ولما شُفي من الضرب بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البردُ. وكان الضرب في الخامس والعشرين من رمضان سنة 231 هـ ، وتُوفي سنة 241هـ.

[283] متعادلين: أي راكبين معا على البعير، وعن أمره: أي تنفيذًا لأمره.

«البويطي»

يوسف بن يحيى البويطي صاحب الإمام الشافعي. كان الشافعي يُسأل عن الشيء فيحيل عليه فإذا أجاب قال: هو كما أجاب. وقال عنه الشافعي: هو لساني. حُمل إلى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غُلٌّ وفي رجليه قيد وبين الغُل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها أربعون رطلًا وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده سنة 231هـ.

«البخاري»

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، أراد منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتيه في بيته يُسمع أولاده فأبى وقال: «في بيته يُؤْتى الحَكَم»(284) فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق، وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخاري في ذلك كلام وصنف البخاري في ذلك كتابه (خلق أفعال العباد) فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري فلم يقبلوا، فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد، فخرج منها ودعا على خالد بن أحمد فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأنْ يُنادَى على خالد بن أحمد على أتان وزال ملكه وسُجن ببغداد حتى مات، فبرح البخاري إلى بلد يقال لها «خرتنك». فمات سنة 356 هـ. نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير.

(284) يضرب هذا المثل لمن يريد حاجة فينتظر أن يأتي إليه من يقضيها له .ويروي العرب هذا المثل على ألسن البهائم، فهي قصة احتكام الأرنب والثعلب إلي الضب. جاء في حياة الحيوان: (ومن أمثالهم المشهورة في ذلك قولهم : «في بيته يؤتى الحكم» وهو مما زعمته العرب على ألسنة البهائم. قالوا: إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب: يا أبا الحسل (كنية الضب)! قال: سميعًا دعوتِ، قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلا حكمتما، قالت: فاخرج إلينا، قال: «في بيته يؤتى الحكم» قالت: إني وجدت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت :فاختلسها الثعلب، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته، قال: بحقكِ أخذتِ، قالت: فلطمني، قال: حر انتصر (أي اقتص لنفسه)، قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيتُ. فذهبت أقواله كلها أمثالا). (حياة الحيوان الكبرى للدميري)

«النسائي»

أحمد بن علي بن شعيب النسائي صاحب السنن، إمام عصره والمقدم على أضرابه، رحل الآفاق وأخذ على الحُذَّاق، وكان يُنسب إلى شيء من التشيع. قالوا: دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية، قال: ما يكفي معاوية أن يذهب رأسًا برأس حتى يروى له فضائل. فجعلوا يطعنون فيه حتى أُخرج من الجامع فسار إلى مكة فمر بالرملة فسُئل عن فضائل معاوية

فأمسك عنه فضربوه في الجامع. قال: أخرجوني إلى مكة، فأخرجوه وهو عليل. فتُوفي بمكة مقتولًا شهيدًا سنة 303هـ.

«أبو عمرو»

عيسى الثقفي النحوي شيخ سيبويه، صاحب كتاب الجامع الذي قيل إن سيبويه أخذه وزاد عليه ما استفاده من الخليل ونسبه إليه. أودعه شخص وديعة فنمى الخبرُ إلى يوسف بن عمر أمير العراقين فكتب إلى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل إليه عيسى ابن عمر مقيدًا فدعا به ودعا حدادًا وأمره بتقييده فلما قيده قال له: لا بأس عليك، إنما أرادك لتعليم ولده. قال: فما بال القيد إذًا؟ فلما وصل إليه سأله فأنكر فأمر بضربه فضُرب بالسياط(285). تُوفي سنة 149 هـ.

(285) روى الزبيدي في كتابه (طبقات النحويين واللغويين): كان بعض أحبَّاء خالد بن عبد الله عند وقوع البلية بخالد وأصحابه استودعه وديعة – يعني عيسى بن عمر – فنُمِيَ ذلك إلى يوسف بن عمر. فكتب إلى واليه على البصرة يأمره أن يحمله إليه مقيَّدًا، فدعا به ودعا الحداد فأمر بتقييده، فلما عُمِّدَ قال له الوالي: لا بأس عليك! إنما أرادك الأمير أن تؤدب ولده. قال: فما بال القيد إذن! فبقيت مثلًا بالبصرة، فلما أُتِيَ به يوسف بن عمر سأله عن الوديعة فأنكر، فأمر به فضُرِب بالسياط، فلما أخذه السوط جزع فقال: أيها الأمير، إنما كانت أثيابًا في أَسَيْفاط، فرفع الضرب عنه، ووكَّل به حتى أخذ الوديعة منه. أهـ (مراتب النحويين واللغويين، ص 44- 45).

كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر في كلامه، وهو القائل: افرنقعوا عني. قال يومًا لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معد بن عدنان، فاستنشده أبو عمرو بيتًا فيه بدا بمعنى ظهر، وقال له: كيف تسنده إلى جماعة الإناث: أتقول بَدَيْنَ أو بَدأن؟ فقال: بَدَيْنَ. فقال: أخطأت ولو قال بدان لأخطأ أيضًا. وإنما أراد أبو عمرو تغليطه وإنما الصواب بَدَوْنَ من بدا يبدو إذا ظهر وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء، معنى آخر ذكرت هذا استطرادًا لاشتماله على فائدة.

«محمد بن الزيات»

أبو جعفر بن عبد الملك، وزير المعتصم ثم ابنه هارون الواثق، ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده، وأشار القاضي أحمد بتولية أخيه المتوكل وتم أمر المتوكل فحقد ذلك عليه مضمومًا إلى حقده عليه القديم لأنه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقربًا إليه، وكان ابن الزيات قد صنع تنورًا من حديد في أيام وزارته وله مسامير محددة إلى داخله يعذب فيه الناس وكان يقول: إذا استرحم الرحمة خور في الطبيعة. فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلًا من الحديد ومات في التنور فوُجِد قد كَتَبَ في التنور بفحمة:

من له عهدٌ بنـــوم
يرشد الصَّبَّ إليــه
سهرتْ عيني ونامت
عينُ من هُنت عليه
رحم الله رحيمًـــا
دلَّ عينيّ عليـــه
.تُوفي سنة 333هـ

«ابن الدهان»

ناصح الدين أبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان النحوي البغدادي، شارح كتاب الإيضاح والتكملة، وكتاب اللمع لابن جني، وكان يُفَضَّل على أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعاصرين له.(286)، انتقل إلى الموصل قاصدًا جناب الوزير جمال الدين الأصفهاني المعروف بالجواد، وكانت كتبه ببغداد واستولى الغرق في تلك السنة على البلد فغرقت كتبه، وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالغرق إلى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق، فأرسل من أحضرها له وكان قد أفنى عمره فيها فأشاروا عليه أن يطيّبها بالبخور ويصلح ما أمكنه فيها فبخَّرها بِاللَّاذَنِ.(287) ولازمها بالبخور إلى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلًا لاذنًا فطلع ذلك .إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى. تُوفي سنة 569هـ

286) قال العماد الكاتب: هو سيبويه عصره، ووحيد دهره، لقيته وكان حينئذ يقال: نحاة بغداد أربعة: ابن الجواليقي وابن .الشجري وابن الخشاب وابن الدهان(سير أعلام النبلاء)
287) .اللاذن: صمغ راتينجي يُعلَك ويستعمَل عِطراً ودواءً

«ابن عطاء»

أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء، أحد أئمة الصوفية، حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما، كانت له ختمة يتلوها 17 سنة يتدبرها، مات ولم يكملها. أُحضر في أمر الحلاج وقد كتب الحلاج اعتقاده فسأله الوزير حامد ابن العباس عما قاله الحلاج فقال: من لا يقول بهذا فهو بلا اعتقاد. فقال له الوزير: ويحك، تصوِّب مثلَ هذا الاعتقاد؟! فقال: ما لك ولهذا؟

عليك بما نَصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم، ما لك والكلام مع هؤلاء السادة. فأمر الوزير بضرب شِدقيه ونزْع خُفّيْه وأن يُضرب بهما رأسه، فما زال يُفعل به كذلك حتى سال الدم من منخريه وأمر بسجنه، فقيل له: أيها الوزير، إن العامة تتشوش بهذا، فحُمل إلى منزله. قال ابن عطاء: اللهم اقتله أخبث قِتلة واقطع يديه ورجليه. فمات ابن عطاء بعد سبعة أيام سنة 309 هـ وقُتل الحلاج قبله بعد أن ضُرب نحوًا من ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه ثم أحرقت جثته بالنار ونُصبت يداه ورجلاه ورأسه أيامًا على الجسر، وكان ذلك لست بقين من ذي الحجة سنة 309 هـ ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولًا.

«ابن شَنَبوذ»

المقرئ، محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت أبو الحسين المقرئ المعروف بابن شنبوذ، روى عن أبي مسلم وبشر بن موسى وخلف، وكان يختار حروفًا(288) أنكرها أهل زمانه عليه، وصنف أبو بكر بن الأنباري محمد بن القاسم الحافظ الذي كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة كتابًا في الرد عليه، كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس بالنحو والأدب، وكان لا يأكل إلا البقالي ولا يشرب ماء إلا قُريب العصر مراعاة لحفظه. عُقد لابن شنبوذ مجلسٌ في دار الوزير أبي علي محمد بن مقلة وادعى عليه بالحروف التي كان يقرؤها فأقر بالبعض، فضربه الوزير أبو عليٍّ بالدرة على رأسه واستتيب، فدعا على ابن مقلة فلم يُفلح بعد ذلك. وتُوفي سنة 328هـ.

(288) أي قراءات.

«ابن مقلة»

الوزير، أحد المشاهير الكتّاب، محمد بن علي بن الحسين بن عبد الله أبو علي، المعروف بابن مقلة الوزير، كان له بستان كبير جدًّا وعليه جميعه شبكة من إبريسم وفيه من الطيور والقماري والهزار والطواويس شيء كثير، وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والأيل شيء كثير أيضًا، وولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء: المقتدر والقاهر والراضي، وبنى له دارًا فجُمع عند بنائها خلقٌ كثيرٌ من المنجمين فاتفقوا على أن تبنى في الوقت الفلاني، فأسس جدرانها بين العشاءَين كما أشاروا، فما لبث بعد استتمامها إلا يسيرًا. وقد أنشد فيه بعض الشعراء:

قل لابن مقلة لا تكـــــن عجِلا

واصبر فإنك في أضغاث أحلام

تبني بإنقاص دور النـاس مجتهدًا

دارًا ستُنقَض أيضًا بعد أيـــــام

ما زلت تختار سعدًا تطلبن لهـا

فلم يوف بها من نحس بهـــرام

إن القرآن وبطليموس ما اجتمعـا

في حال نقض ولا في حال إبـــرام

ثم عُزل عن وزارته وأُحرِقت داره وانقلعت أشجاره وقُطعت يده ثم قطع لسانه وأُغرم ألف ألف دينار، ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة، وكان يستقي الماء بنفسه من بير عميق يدلي الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه، وقاسى جهدًا جهيدًا حتى مات في الحبس سنة 328 هـ، ومن نظمه وهو يبكي على يده:

إذا ما مات بعضُك فابك بعضًـا

فإنّ البعـــض من بعض قريـــب

والنكبات كثيرة لا تُحصى وفيما ذكرناه مقنع، فإن الكتاب كله أنموذج ومسودة في بابه، والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني عشر

في أشعار المفلوكين

(ومن في معناهم من مقاصد شتى وبيان أن الحامل عليها إنما هو الفلاكة)

اعلم أن الفلاكة إذا استولت على شخص وسلبته القدرة على الأفعال انتقل إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال، وذلك لما أن في الكلام راحة وفرجًا وتنقيصًا من ألم الباطن، ولذلك قلما يطيق كتمان الأسرار إلا الواحد الفذ، وكذلك أيضًا قلما يطيق الإنسان استدامة أقوال تخالف ما في باطنه، بل لا بد له من فلتات مطابقة لما في باطنه، لما أن النفس بطبعها تطمح إلى طلب الراحة والاستلذاذ بحسب المقدور. وإذا اتضح أن في الأقوال تنفسًا وراحة ولذة وتنقيصًا من آلام الباطن وضحت الحكمةُ في انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء وحكماء، فمرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات النفسانية على الكمالات المالية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية، ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة، ويصوغون عنها أعذارًا وحكمة وتشبيهات رائقة وكلمات فائقة؛ تنقيصًا من قبح صورتها، وليشغلوا الناس بما أوردوه فيها من محاسن الكلام عن الفكرة في صورتها الشنيعة. ومرة يسابقون إلى ذكر نقائصهم ويجعلونها رقة أدبية أو نكتة شعرية أو كلمة هزلية قبل أن يذكرها غيرهم عنهم ليصرفوا الناس عن الاشتغال بها؛ لأن النفوس تكره المعاد؛ ولذلك قيل في الأمثال: «أقبح من معاد» وليكون ذلك أخف على نفوسهم لما أن الشخص يتأنف من نفسه ما يتأنفه من غيره، ولا يثقل عليه كلامه ككلام غيره.

حُكِي أن الأخفش الصغير كان يحفظ الأهاجي التي هجاه بها ابن الرومي ويوردها في جملة ما يورده، والحكمة فيه ما ذكرته لا ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من أنه كان يقول: أنوّه بذكري بها. فإن ذلك إن قاله الأخفش فقوله غطاء على المعنى الحقيقي. ولذلك أيضًا يذكرون الأسفار ويغرون بها مرة وينهون عنها أخرى، فالإغراء لما قدمته في الفصل الرابع والنهي يكون حيرة ودهشًا؛ ولذلك أيضًا يغرون بتطلب المجد والثروة تارة ويأمرون بالقناعة أخرى قلقًا واضطرابًا، ويذمون الأيام ويتضجرون، ويتململون ويتعتبون، ويشعرون وهم لا يشعرون، ويتفتنون وهم يفتنون، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا إلا إنهم هم الخاسرون، ويتلطفون وهم يستثقلون، ويتعذرون ولكن لا يَعْذرون، أم تسألهم خرجًا فهم من مغرم مثقلون.[289] فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[289](#) .يشير إلى قول الله تعالى في سورة الطور: ﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴾ الآية 40

والأغنياء عن ذلك كله بمعزل وعن العناء فيه بألف منزل، قد أغناهم الفعلُ عن القول، والفضلُ عن الفضول، والأعذارُ عن الاعتذار، والإحسانُ عن صوغ اللسان. وأنا أورد- إن شاء الله تعالى- أحاسن ما يحضرني من أشعار المفلوكين ومن في معناهم في هذه المقاصد كلها. وإنما قلت (أو من في معناهم) دفعًا لسؤال مُقَدَّر توجيهه: إن المذكور في هذا الفصل من الشعر منه ما هو من كلام الأماثل والعظماء والنبلاء. فالجواب إنه وإن صدر عن عظيم أو نبيل فإنما ذُكر بلسان المفلوكين وشرحًا لحالهم ونيابة عنهم ورحمة عليهم، أو عند عارض فلاكة حقيقية عرضت للوجيه العظيم صيرته في حكم المفلوك بحسب تلك الحالة أو عند عارض فلاكة حالية بحكم الوارد على القلة. فإن الوارد- كما هو مقرر في كتب الصوفية- إذا ورد على القلب وشايعته النفس بالاستحسان والاستحلاء ولم يمانعه أكْسَب حالًا، وإذا علمت الأحوال المقتضية للأشعار الآتية والحامل عليها فهاكها غير ناسٍ ولا غافل عما قررته في مقدمة الفصل العاشر فإنه محتاج إليها في هذا الفصل. فمن ذلك قول القائل:

إلى الله أشكو جور دنياكم التي
تغر الفتى حتى يُوارَى برَمْسِــــــه
فتكسبه إن أقبلت حُسْنَ غيرِه
وتَسلبه إن أدبرت حُسْنَ نفسِــــه

ومنه:

ما تطعمتُ لذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسَـا
أيُّ شيء أعزُّ عندي من العلـ
ـم فما أبتغي سواه أنيسَـــا
إنما الذلُّ في مخالطةَ النـــا
س فدعهم وعش عزيزًا رئيسَـا

ومنه[290](#):

[290](#) .الأبيات لأبي الحسن مهيار بن مروزيه الكاتب الفارسي الديلمي(ت: 428هـ)

تلحى على البخل الشحيح بمالـه

أفلا تكون بماء وجهك أبخـــــلا

أَكْرِمْ يَدَيْكَ عَنْ السُّؤالِ فَإِنَّمَـــا

قَدْرُ الحيَاةِ أَقَلُّ مِنْ أَنْ تَسَـــــأَلا

ولقد أَضمُّ إليَّ فضلَ قناعتــــي

وأبيتُ مشتمِلًا بهما متـــــــزمّلًا

وأُرِي العدوَّ على الخصاصة شارةً

تصفُ الغِنى فيخالنـــــي متموّلًا

وإذا امرؤ أفنى الليالـــــي حَيْرةً

وأمانيًا أفنيتهـــــن تـــوكُّلًا

ومنه:

عجبت سعاد من ارتياحي للعــلا

في العُدْم وهو يفلّ غَرْب الجامــح

لا يغشني الإقتار عارًا إننـــــي

رحب الذراع بكل خطب فـــادح

ولربما نهض المقل بعبئـــــه

وحبا به المثـرون حبـــو الرازح

مثل السماكين انتفاعك منهمــا

بالأعزل المدحوض فوق الرامـــح

ولئن خفيت عن الورى وفضائلي

كمد الحسود ونار غيظ الكاشـــح

فالنار في أشجارها مخبـــوءة

حتى يتاح لها يميـــن القــادح

ومنه (291):

291) 167 البيتان أوردهما الصفدي في الوافي بالوفيات (15/157) وعزاهما إلى أبي محمد النحوي المعروف بابن الدهان.

أهوى الخمول لكي أظل مرفَّهًا
مما يعانيه بنو الأزمـــــــان
إن الرياح إذا عصفن لواقحًـــا
تُولي الأذية شامخ الأغصـــــان

ومنه:

المرء يحظى ثم يعلو ذكـــره
حتى يُزيَّن بالذي لم يفعـــــل
وترى الشقيَّ إذا تكامـــل عيبُه
يُرمى ويُنحل بالذي لم يَعمـــل

ومنه:

شُغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى
كما شُغلوا عن مكسب العلم بالوَفـــر
وصار لهم حظٌّ من الجهل والغِنـــى
وصار لنا حظٌّ من العِلم والفقـــــر

ومنه:

لا تحقرنّ أديبًا راق رونقُـــــه
عن الفصاحة إمّا راح في شمـــــل
فالسكرُ العسليُّ الحلو من قَصــب
والنرجسُ البابلي الغضُّ من بصـــل

ومنه:

ينجد بي تارة ويتهم بـــي
ضر زمان بأهله جافـــــي

حتى كأني قذاةَ مقلتـــــه
أو خبث فوق كأسه طافـــــي

ومنه:

وقالوا توصلْ بالخضوعِ إلى الغني
وما علموا أن الخضـــوع هو الفقرُ
وبيني وبين المـــال بابانِ حرَّمَا
عليّ الغني: نفسي الأبِيَّةُ والدهـــرُ
إذا قيل هذا اليسرُ أبصرت دونــه
مواقف خير من وقوفي بها العســرُ

ومنه:

ولا تعُدّنّ رزقًا ما ظفرتَ بـــــه
إلا إذا دار بين الحلق والحَنَـــــكِ

ومنه:

لا يؤيسنّك من مجد تباعُـــدُه
فإن للمجد تدريجًا وترتيبَـــــا
إن الفتاة التي أبصرتَ رفعتهـــا
تنمـــو وتحدث أنبـــوبًا فأنبوبًا

ومنه:

والحُرُّ مِن حَذَرِ الهـــوان
يحاذر الأمرَ الجسيمـــــا
والعاجز المأيوف أقـــ
ـعد ما يكون إذا أقيمـــــا

ومنه:

المرء يجمع والزمان يفــــرق

ويظل يرقع والخطوب تمـــــــزق

ولئن يعادي عاقـــلًا خيرٌ له

من أن يكون له صديق أحمـــــق

وإن امرؤ لسعته أفعى مـــرة

تركته حين يُجَرّ حبلٌ يفــــــرق

لا ألفينك ثاويًا في غربـــــة

إن الغريب بكل نبل يُرشـــــــق

ما الناس إلا عاملان فعامـــلٌ

قد مات من عطش وآخر يغـــرق

والناسُ في طلب المعاش وإنما

بالجـــــــد يُرزق منهم من يُرزق

لو يرزقون على وزان عقولهـم

ألفيْت أكثر من ترى يتُصـــــدق.(292).

(292). المعنى في البيت على ما ذهب إليه مؤلِّفُ الكتاب، ويبقى الخلافُ في كلمة (يتصَدَّق) وما إذا كانت -كما قال المؤلف- بالبناء للمجهول مع حذف كلمة (عليه) أي (يتُصدَّقُ عليه) وهو ما أراه تقديرًا بعيدًا. وقد جاء في (الصِّحَاح) للجوْهري قوْلُه في مادة صدق: «ومررْتُ برجل يسألُ، ولا تقل: يتصدّق، والعامّة تقوله، وإنما المتصدِّق: الذي يعطي. فهل هي لغةٌ عاميّة استعمل الشاعر فيها كلمة (يتصدّق) بمعنى يسأل؟ قد يكون. أم أنها لغة قديمة فصيحة جاءت فيها (يتصدّق) بمعنى: يسألُ الصدقة، وهو ما يؤيّده معنى البيت؟

لو سار ألف مدجج في حاجـة

لم يقضهـــــا إلّا الذي يترفـــق

هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس، وقوله (يتصدق) هو ببناء المجهول حتى يصح المعنى المراد، وهو أن الغالب على الناس قلة العقل والخفة وأصله (يتُصدق عليه) فحذف (عليه) ولو قُرئ ببناء المعلوم لانعكس المعنى وكان معناه أن العقلاء هم الأكثر، وليس بصحيح لا دراية

ولا رواية، وهذا الرجل اتهمه المهدي بالزندقة فأمر بحمله إليه فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثباته فأمر بإطلاقه فلما ولّى ردّه وقال ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقــه

حتى يُوارى في ثـرى رمســه

إذا ارعوى عاد إلى جهلــه

كذي الضنى عاد إلى نكســه

فقال: بلى. [قال:](293) وأنت لا تترك أخلاقك، فأمر به فقُتل سنة 167هـ.

(293) زيادة ضرورية.

فانظر إلى الفلاكة، قال حكمة فكانت سبباً في قتله. ومثله قول عمارة اليمني الملقب نجم الدين الشاعر:

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته كما يقول الورى لحمًا على وَضم(294).

(294) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض.

وكان أول هذا الدين من رجل

سعى إلى أن دعوه سيد الأمـــم

أراد إظهار معنى بديع مبتكر فكان سبباً في قتله في أحد الأقوال في سنة 569هـ.

وكنت هممت أن أضع فصلًا في الكلمات التي كانت سبباً للحوق ضرر عظيم لأصحابها كهاتين الحكايتين وأسميهما بالفلاكة اللفظية لتكون الفلاكة ثلاثة أنواع: مالية ومعنوية ولفظية. ثم بدا لي في ذلك وخشيت أن يصير الكتاب أدبيًا لا علميًّا ولنرجع إلى مقصود الفصل ومنه:

ليس الخمول بعار

على امرئ ذي جــلال

فليلة القدر تخفَى

وتلك خير الليالـــي

ومنه:

يا هذه إن رحـت في شمل

فما في ذاك عــــــار
هذي المدام هي الحيــاة
قميصها خـــــرق وقــار

:ومنه

وليس قبح المكان ممــا
يزري به منصبي وديـــــي
فالشمس علويــة ومَمْ ذا
تغرب في حمأة وطيـــــن

:ومنه

احتل لحقدك فاللبيـ
ـب بلطفه يستلّ ثـــــاره
أمضى الحديـد أرقّه
والماء يثقب في الحجــاره
والهجو بيت منــه لا
يطفي طويلُ المدح نــــاره
يخفي الكثير من الحلا
وة في القليـــل من المـراره

:ومنه

ولا غرو أن يبلى الشريف بناقص
فمن ذنَب التنين تنكسف الشمـــس

:ومنه

وإني وإعدادي لدهري محمـدًا
كملتمس إطفاء نـــار بنافـــخ

ومنه:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثـــروة
فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسـر
فقد كشف الإثراءُ عنـك خلائقًا
من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقـر

ومنه:

حيائي حافظ لي ماء وجهـي
ورفقي في مطالبتي رفيقـــي
ولو أني سمحت ببذل وجهي
لكنت إلى الغنى سهل طريقـي

ومنه:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبهـا
فكيف ما انقلبت يومًا به انقلبـــوا
يعظمون أخا الدنيـــا فإن وثبت
عليه يومًا بما لا يشتهـــي وثبـوا

ومنه:

قالت وقد انتضت سيوف اللحـظ
والدر ممازج لذاك اللفــــــظ
ذا حظك ما أنقصه قلت لهـــا
لو شئتِ لما كنتُ قليل الحـــظ

ومنه:

من منصفي من معشـــــر
كثروا عليّ وكبـــــــروا

صادقتهم وأرى الخـــرو

ج من الصداقة يعســـــر

كالخط يسهل في الطــرو

س ومحـــــوه يتعــذَّر

ومتى أردت كشطْتُــــه

لكــنّ ذاك يؤثـــــر

ومنه:

إذا فات الفتى شيئان أضحــى

بعيدًا من ممازحـــة القلــوب

جمال الوجه أو مال عظيـــم

يزين في حضـــور أو مغيـــب

فكثر المال يشفع في المسـاوي

وحســن الوجه يشفع في الذنوب

ومنه:

إن الغني الذي ترضي معيشتــه

لا من يظل على ما فات مكتئبـــا

لا تحقرن من الأيـــام محتَقرًا

كل امرئ سَوف يُجزى بالذي كَسَبا

قد يحقر المرءُ ما يهوى فيتركـه

حتى يكون إلى توريطـــه سَببا

إن العدوّ وإن أبدى مكاشـرة(295)

(295) مُكَاشَرَة: مصدر كاشَرَ، وكاشَرَهُ: ضَحِكَ في وجهه وباسَطه.

إذا رأى منك يومًا فرصة وثبـــا

إذا وترت(296) امرأ فاحذر مغبَّتـه

.وَتَرَ الرَّجلَ: أَصَابَهَ بِظَلْمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، أَفْزَعَهَ .(296)

من يَزرعِ الشوكَ لا يحصدْ به عِنبـا

:ومنه

أتعبت نفسك بين ذلة كـــــادح

طلب الحياة وبين حــرص مؤمّـل

ونثرت دهرك لا خلاعة ماجــــن

حصلت فيه ولا وقار مبجّــــل

وأضعت حظ النفس في الدنيا وفي الـ

أخرى ورحت عن الجميع بمعــزل

:ومنه

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها

أهل الفضائل محقورون بينهـــم

قد أنزلونا لأنا غير جنسهـــم

منازلَ الوحش في الإهمال عندهـم

فليتنا لو قدرنا أن نعرّفهــــم

مقدارهم عندنا أوْ لوْ دَرَوْهُ هُـــمُ

لهم مُريحان: من جهل وفرط غنى

وعندنا المتعبان العلــم والعَـدَمُ

:ومنه

إذا كان غير الله في عدة الفتـــى

أتته الرزايا من وجوه الفوائـــــد

:ومنه

إذا لم يكن عون من الله للفتـــى

فأكثر ما يجني عليه اجتهـــــاده

ومنه:

إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكـــن
على حالة إلا رضيت بدونهـــــا
ومن يطلب الغالي من العيش لم يزل
حزينًا على الدنيا رهين غبونهـــا

ومنه:

إني رأيت الدهر في حكمه
يمنح حظَّ العاقـــل الجاهلا
وما أراني نائلًا ثـــروة
كأنه يحسبنـــي عاقـــلًا

ومنه:

إذا وجد الشيخ من نفســه
نشاطًا فذلك موت خفـــي
ألست ترى أن ضوء السراج
له لهب قبل أن ينطفــــي

ومنه:

انفض يديك من الأنام فكلهـــم
شحًّا يحل وأنت عجزًا تعقـــد

ومنه:

انفض يديك من الزمان وخيـــره
واحذر بنيه تفز بقلة ضيـــــره
ولقد صفوتُ فما وجـدت مُصافيًا
في الله أصحبُه ولا في غيـــــره

ومنه:

وأخ لي تكـــدرت
بعد صفو مشـــاربـه
صاحبي حين لا يرى
في الورى من يصاحبـه
وإذا ما حظـــي به
صدّ وازورّ جانبـــه

ومنه:

إذا لم يكن صدر المجالس سيـدًا
فلا خيرَ فيمن صَدَّرته المجالـــسُ
وكم قائل ما لي رأيتـــك راجلًا
فقلـــت له من أجل أنك فـــارسُ

ومنه:

وأخ إن رام مني حاجـــــة
كان بالإنجـــاح مني واثقَـــا
وإذا ما رُمت منه حاجـــة
كـــان بالرد بصيرًا حاذقَـــــا
يعمل الحيلة في الرد لهـــا
قبل أن أفرغ منها ناطقَـــــا

ومنه:

إذا ما مدحت الباخلين فإنمـــا
تذكرهم ما في سواهم من الفضـــل
وتهدي لهم غمًّا كثيرًا وحســـرة

فإن منعوا منك النوال فبالعــــدل

ومنه:

وإذا المسافر آب مثلي مفلسًـــا

صفر اليدين من الذي رجـــــاه

وخلا من الشيء الذي يهديه للـ

إخوان عند لقائهـــم إيــــاه

لم يفرحوا بقدومـــه وثثقلوا

بوروده وتكرَّهوا لُقيـــــــاه

وإذا أتاهـــم قادمًا بهديــة

كان الســرور بقدر ما أهـــداه

ومنه:

لو كنت أجهل ما علمت لسرني

جهلي كما ســـــاءني ما أعلمُ

فالصعو يرتع في الرياض وإنما

حُبِسَ الهَزار(297) لأنه يتكلــــــم

(297) الصعو: عصفور صغير ، والهزار: طائر صغير الجثَّة سريع الحركة حَسَن الصَّوت ، ريشه بُنيّ مائل إلى الحمرة ، يألف الحدائق والغابات والأدغال ويظهر أيّام الرَّبيع.

ومنه:

إن قدّم الصاحب ذا ثروة

وعـــاق ذا فقر وإفلاس

فالله لم يدع إلى بيتـــه

إلا المياسيرَ من النــــاس

ومنه:

لا يدرك المجد من لا يركب الخطرا

ولا ينال العلا من قدم الحـــــذرا

ومن أراد العلا صفواً بلا كـــدر

قضى ولم يقض من إدراكه وطـــرا

وأحزم الناس من لو مات من ظمـأ

لا يقرب الوِرْدَ حتى يعرف الصَّدَرا(298)

(298) .الوِرْدُ: الماءُ الذى يُورَدُ. والصَّدَر: الانصراف عن المكان أو الماء.

ومنه:

وقائلة ما بالُ مثلِك خامِـــــلًا

أأنت ضعيفُ الرأي أم أنت عاجـــزُ

فقلت لها ذنبي إلى القوم أننـــي

لما لم يحوزوه من المجـــد حائزُ

وما فاتني شيءٌ سوى الحظ وحده

وأما المعالي فهي عندي غرائـــزُ

ومنه:

من أخمل [النفسَ](299) أحياها وروحها

(299) .في (خ): الناس

ولم يبت طاويًا فيها على ضَجَـــر

إن الرياح إذا اشتدت عواصفهـــــا

فليس ترمي سوى العالي من الشجر

ومنه:

ألا موتٌ يُباع فأشتريـــه

فهذا العيشُ ما لا خيــرَ فيـــه

ألا موت لذيذ الطعم يأتـي

يخلصني من الموتِ الكريـــه

إذا أبصرت قبرًا من بعيـــد
وَدَدْتُ لو أننـــي فيما يليـــه

ومنه:

ولو أني استزدتك فوق ما بـــي
من البلوى لأعوزك المزيـــــــد
ولو عُرِضت على الموتى حياة
بعيش مثل عيشــــــي لم يريدوا

ومنه:

قالوا أقمتَ وما رُزقتَ وإنمـــا
باليسير يكتســـب اللبيبُ ويُرزق
فأجبتهم ما كل سير نافعًـــــا
الحـــظ ينفعُ لا الرحيل المقلِـــق
كم سَفْرةٍ نفعت وأخرى مثلهـا
ضرت ويكتدح الحريص ويُخفـــق
كالبدر يكتسب الكمـال بسَيره
وبه إذا حُرم السعادةُ يُمحـــــق

ومنه:

سافِرْ إذا حاولت قـــدرا
سار الهلالُ فصـــــار بَدْرا
والماء يكسب ما جـــرى
طِيبًا ويخبث ما استقـــــرا
وبنقلة الدار النفيســـــة
بدَّلت بالبحر بحـــــــرا

ومنه:

قَوِّض رِكابَك عن أرض تُهان بهـا
وجانِبِ الذلَّ إنَّ الذلَّ يُجتنـــبُ
وارحل إذا كان في الأوطان منقصةٌ
فالمَنْدَلُ(300) الرطب في أوطانه حَطَبُ

(300) المَنْدَلُ: العُودُ الطيِّب الرائحة.

ومنه:

إذا ما نَبَتْ بالحُرِّ دار يودّهـــا
ولم يرتحل عنها فليس بذي حـــزم
وهَبْهُ بها صَبًا ألم يَدْرِ أنـــه
سيزعجه عنها الحِمام على رَغْـــمِ
ولم تكنِ الدنيا تضيق على فتـى
يرى الموت خيرًا من مقام على هَضْم(301)

(301) هضم: ظلم.

ومنه:

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع
فقلت ولكن موضعَ الرزقِ ضَيِّق
إذا لم يكن في الأرض حر يعيننـــي
ولم يكُ لي كسبٌ فمن أين أُرزقُ

ومنه:

قالوا اغترب عن بلاد كنت تألفهـــا
إن ضاق رزقٌ تجد في الأرض مُقترَحا
قلت انظروا الريقَ في الأفواه مختَزَنًـا
عَذْبًا فإن بان عنها صار مُطَّرَحـــا

ومنه:

عوِّد ركابَك كلَّ يـــــــوم منزِلًا
وتَنَقَّلَنْ كي لا تملّ وتضجـــرَا
فالماءُ يعذُبُ ما جَرَى وتلاطمـــت
أمواجُـــه فإذا أقـــام تغيرَا

ومنه:

إذا أنا لم أجد رزقًا حـــلالًا
ولم آكل حرامًا مت جوعَـــا

ومنه:

قالوا حُبست فقلت ليس بضائـري
حبسي وأي مُهند لا يُغمـــــــد

ومنه:

لم ينصبوا بالشاد ناج صبيحة الـــ
اثنين مسبوقًا ولا مجهـــــــولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهـــم
شرفًا وملء صـــــدورهم تبجيلا
ما ضرَّه إن بُزّ عنه لباســـــه
فالسيف أهـــولُ ما يُرى مسلولا

ومنه:

لا ينبغي للضيف إن كـان ذا
حزم وتدبير وطبع لطيـــف
أن يتعدى أبدًا طــــوره
ولا يَرى إلا بحُكم المُضيــف

فالأمر للإنسان في بيتـــــه
إن شاء أن يُنصف أو أن يَحيـف
وإنما ينقضُ أحكامَـــــه
عليه ذو جهل وعقل سَخيــف

ومنه:

إذا شئت أن تستقرضَ المالَ مُنفقًـا
على شهواتِ النفس في زمن العُسـر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها
عليك وإرفاقًا إلى زمن اليُســـــر
فإن قبلت كنت الغني وإن أبــت
فكل منوع بعدها واســـــع العُذر

ومنه:

إذا ما لم تكن ملكًا مطاعًـــــا
فكن عبدًا لمالكه مطيعـــــــا
وإن لم تملك الدنيا جميعًـــــا
كما تختار فاتركها جميعـــــا
هما سببان من ملك ونســــك
ينيلان الفتى الشرف والرفيعـــــا
ومن يقنع من الدنيا بشـــــيء
سوى هذين عاش بها وضيعـــــا

ومنه:

يا أيها العالم لا تشتكـــي
فالحذق محســوب من الرزق

العلم لا يُسلبه أهلـــــه
والمـــال مسلوب من الخلْق

ومنه:

المال أشرف ما اقتنيت فلا تكن
سمحًا به وتأنَّ في تفصيلـــــــه
ما صنف الناس العلوم بأسرها
إلا ليحتالوا على تفضيلـــــــه

ومنه:

أحمد الله كم أجوّد في الدهـ
ـر مقالًا وما يفيد المقـــــــال
كلمي في الآنام سحر ولكـــن
أنا والسحر باطل بطــــــــال

ومنه:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
وليس لهم حتى النشور نشــــور
وأرواحُهم في وحشة من جسومهم
وأجسادُهم قبل القبور قُبــــور

ومنه:

من ظن أن الغنى بالمال يجمعـــه
فاعلم بأن غناه فقـــــره أبـــدا
فاستغن بالعلم والتقوى وكن رجلًا
لا ترتجي غير رزاق الورى أحــــدا

ومنه:

تصفو الحياة لجاهل أو غافـــل

عما مضى منها وما يتوقــــــع

ولمن يغالط في الحقائق نفســه

ويسومها طلب المحال فتطمــــع

ومنه:

إني تركتُ لذي الوَرَى دنياهـــم

وظَللتُ أنتظرُ الممـــــات وأرقبُ

وقَطعتُ عن نفسي المطامع ليس لي

وَلَدٌ يمـــوتُ ولا عَقارٌ يخـربُ

ومنه(302)**:**

(302) الأبيات لأبي الحسن الجرجاني، علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن قاض من العلماء بالأدب. كثير الرحلات. له شعر حسن. ولد بجرجان وولي قضاءها، ثم قضاء الريّ، فقضاء القضاة. وتوفي بنيسابور، وهو دون السبعين، فحمل تابوته إلى جرجان.
من كتبه (الوساطة بين المتنبي وخصومه - ط) و (تفسير القرآن) و (تهذيب التاريخ) و(ديوان شعر) و (رسائل) مدونة. وكان خطه يشبه بخط ابن مقلة.

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنمــا

رأوا رجلًا عن موقف الذُّلِّ أحْجَمــا

أرى الناسَ من دَاناهُمُ هانَ عندهم

ومن أكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النفسِ أُكْرِمَــــا

وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّنـــي

ولا كل من لاقيت أرضاه منعَّمــا(303)

(303) ورد هكذا في (ط) و(خ) وتصويبه:
وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني
ولا كلُّ من في الأرضِ أرضاه مُنَعَّم

وإنّي إذا ما فاتني الأمــرُ لم أَبِتْ

أقلِّبُ طرفي إثْره متندِّمـــــــا

ولكنّه إنْ جـــــاءَ عفوًا قبلتُه

وإنْ مَالَ لم أُتبعه لَولا ورُبَّمـــا(304)

(304) *في الديوان (ص 128): *وإن مَالَ لم أُتبعهُ هَلاّ وليتَما

وأقبض خطوي عن أمور(305) كثيرة

(305) في الديوان: (فضول).

إذا لم أنلها وافر العِرْض مُكرَمـــا

وأكرم نفسي أن أُضاحِك عابسًـا

وأن أتلقَّى بالمديح مذمَّمـــــا

ولو أنَّ أهلَ العِلم صانوه صَانَهـم

ولو عظَّموه في النفوس لعَظَّمـــا

ولكن أدالوه فهان ودنَّســـوا

مُحيَّاه بالأطماع حتى تَجَهَّمــا(306)

(306) ورد في الديوان بلفظ:

ولكن أهانوه فهانوا ودَنَّسُوا

مُحَيَّاه بالأطماعِ حتى تَجَهَّما

وورد في الوافي بالوفيات:

ولكن أذالوه جهارًا ودنَّسوا

مُحَيَّاه بالأطماعِ حتى تَجَهَّما

راجع ديوانه (127-128) تحقيق سميح إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ط1، 2003. والوافي بالوفيات، (21/157-158). ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (4/1797-1798)

أأَشقى به غرسًا وأجنيـــه ذِلَّةً

إذَنْ فاتباع الجهل قد كان أحْزَمَـــا

ومنه:

لا يحطن رتبتي سوء حالـــي

آية الحسن في الجفون السقـــام

أنا كالنار أطفأ القِطر منهـــا

ولها بعد نفخة اغتـــــــلام

ومنه:

أصبحت مثل السيف أبلى غمده
طول اعتلاق نجاده بالمنكـــــب
إن يعتليه صدًى فكم من صفحة
مصقولة للماء تحت الطحلـــب

ومنه:

وأنت السيف إن تعـــدم حليّا
فلن تعدم فرندك والغـــــرار
وربّ مطوّق بالتبر يكبـــــو
بصاحبـــه وللرهج اعتبــــار

الفصل الثالث عشر

(في وصايا يستضاء بها في ظلمات الفلاكة)

وبهذا الفصل نختم الكتاب إن شاء الله تعالى

اعلم يا أخي في الوفا وأخوة المصطفى، خصوصًا المفلوك مثلي، أن في الكمالات النفسانية لذة تزيد على اللذات الجسمانية، فلا تستصغرن نعمة الله فيها متى زويت عنك الدنيا، واستَحْضِرْ قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يعطي الدنيا لمن يحبه ولمن لا يحبه ولا يعطي الدين إلا لمن يحبه» (307). و«إن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذ منه فقد أخذ بحظ وافر» (308). وانظر كيف يكون استجلاء لطائف العلوم شاغلًا عن الأكل والوقاع، أفتراه يكون دونها لذة وهو شاغل عنها؟ وعليك من العلوم بالكتاب والسنة والتمتع بما فيهما من النكات واللطائف، واستمد منهما برد اليقين وثلج الصدور، ولا تقنع بالعلوم العقلية فإنها ملساء مزلة الأقدام، وأصحابها يضطربون فيها اضطراب الأرْشِية (309).

(307) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بلفظ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب». قال الذهبي: صحيح الإسناد.

(308) سبق تخريجه.

(309) الأرشية: جمع رِشاء وهو حبل الدلو.

هذا الإمام فخر الدين على جلالته وإمامته يصحح في بعض كتب ما يضعف في الآخر، وأبلغ من ذلك أن ابن الراوندي، سامحه الله، صنف رسائل في خلق الأعمال وفي قدم العالم وغيرهما ثم صنف هو نفسه رسائل في رد ذلك كما ذكره صاحب الفهرست، ولا تجمع لنفسك بين قبح الظاهر، وهو الفقر وقبح الباطل وهو الجهل، وسَع الناس بأخلاقك ومعارفك إن لم تسعهم بمالك ومعروفك، واجتنب الإساءة إليهم إن عجزت عن الإحسان لهم، وخذهم بالرجاء لأنه أيسر ولا تأخذهم بالخوف وإن كانوا به أطوع لأنه أخطر، وارْضَ بميسورهم وعظم حقيرهم، فلا يحصل للنفوس مقصودها إلا خالقها، فلا تطلب المقصود إلا منه، واجعل باطنك وحده لله، وكن شديد الاستهانة بأمور الدنيا: ضرًّا ونفعًا، عطاء ومنعًا، حصولًا وفواتًا، سلامة وآفات، وانظر الأصلح لنفسك من ذلك قبل وقوعه وبعده، فتوخَّه واجتهد فيه، ولا تكن وَكِلًا بل متحركًا كيِّسًا، ورقع خرق عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك والتعرض لتنفيسات الدهر والوثوب عند

الفرصة، ولا تيأس من روح الله، قال صلى الله عليه وسلم: «إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»(310) قال تعالى: ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف: 87].
قال الشاعر:

(310) رواه الطبراني في الكبير عن محمد بن مسلمة برقم: 2398 وهو بتمامه : «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدا». والحديث حكم عليه السيوطي بالضعف ، وكذلك الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته برقم : 1917 وكذلك في الضعيفة برقم 3189. والحديث وإن كان ضعيفًا، إلا أن أدلة الشرع متوافرة على ذلك من الحث على استباق الخيرات وتحين الفرص، كالدعاء يوم عرفة، وليلة القدر، وفي الثلث الأخير من الليل، وساعة يوم الجمعة، والدعاء حال السفر وفي مواضع السجود. كل هذا يدل على معنى ما دل عليه الحديث.

والعاجزانِ الغالبـانِ، مُعاقِبٌ
لا ينتهي ومُعاتِبٌ لا يخجـــل

وقال:

ثِبْ على الفرصة في موضعهــــا
فهــي لا تبقـــي ولا تُسْتَكْسَـــبُ

واقطع بأن ذرة من حظ خير من قنطار عقل، وإن جزءًا واحدًا من المال خير من أجزاء كثيرة من الكمالات النفسانية. ولله درّ من سمى المال كمال الكمالات، وتحقَّقْ أن المعاصي كالسموم يضر قليلُها وكثيرُها مع الاستخفاف بها ومع تعظيم ارتكابها وجليها أوخفيها، فلا تغتر بالتستر والحيلة، فإن لله عيونًا من الملكوت ناظرة إليك، وإن للطاعات عبقًا وشذا تفوح على أهلها وإن كتموها، وللمعاصي نتنًا وذفرًا تفوح على أهلها وإن أخفوها (وإذا نزعت عن الغواية فليكن لله ذاك النزع لا للناس)(311) وخذ الناس إلى أغراضك بمصالحهم تحقيقًا أو توهيمًا، فإن النفوس تخدع بالباطل كما تخدع بالحق، ولا تأخذهم بغرضك المحض فقلما يساعفونك به إلا عوضًا عما سلفتهم من غرض لهم سابق، وكن توَّابًا رجَّاعًا أوَّابًا إلى الله، عظيم الالتجاء إليه والاستعانة بقوّته، وباهر قدرته متملقًا له خاضعًا لجلاله، وكن كثير الدعاء والإلغاظ(312) بأسمائه تعالى ولها الحمد، فإن الدعاء نسبته إلى استجلاب المطالب كنسبة الفكر إلى استدعاء المطلوب العلمي، قال صلى الله عليه وسلم: «أَلِظُّوا بـ (يا ذا الجلال والإكرام)»(313) قال تعالى: ﴿ قُل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ [الفرقان: 77] وإياك إياك من التعويل على واحد بخصوصه من البشر وإلقاء الشراشر(314) عليه، فإن من ألقي شراشره على غير الله وكَلَه وما اختارَه لنفسِه، وأنهاك

أنهاك عن التوقيف على بواطنك وخفاياك، وآمرك آمرك بسد طريق العلم بذلك جهدك وتكثيف حجابه ما أمكن، وكن مع الناس بلسانك وظاهرك من كمالاتهم الدنيوية التي يعتقدونها كمالًا، فإن الدنيا قد صارت مخارق بلا حقائق، وثَمَّ أمور لا يمكن التصريح بها ولا تتم بالتلقين، وأنا أسأل الله أن يوفقك لها ويوقفك على حقيقتها.

(311) الجزء المحصور بين قوسين عبارة عن بيت شعري ينسب إلى أبي نواس وتمامه كالآتي:

وإذا نَزَعْتَ عن الغَواية فليكنْ

لله ذاكَ النّزْعُ لا للناسِ

نزعت: كففت. الغواية: الضلا.

(312) الإلغاط: معناها هنا: رفْعُ الصوت بالدّعاء والمبالغة فيه.

(313) حديث صحيح، رواه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك. و قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد. وأَلِظُّوا: أي الزموا وداوموا، والإلْظَاظُ: لزوم الشيء والمثابرة عليه، ومعنى (أَلِظُّوا بـ (يا ذا الجلال والإكرام) أي الزموا ترديد هذا الدعاء والمثابرة عليه.

(314) الشّراشر: مفردها: شُرْشُرَة: جاء ف (الصِّحاح): ألقي عليه شراشره، أي نفسَه، حرصًا ومحبّةً. والمعنى: حَصَر كلَّ آماله فيه.

آخر ما تيسر لي كتابته في هذا الغرض مما سهل مما حضر، وفي النفس من معاودته (هذا) وبسط القول فيه، فإن هذا الكتاب إنما وضعته مسوَّدة وأنموذجًا وبرنامجًا في هذا المطلوب وفتحًا لباب عسى أن يلج فيه من حرَّكه الله لذلك. ولم أدخر فيه مما حضرني إلا ما خفت على الكتاب من كساده به لغموضه وكونه من الحكمة الضرورية، أو من مشكلات غيرها من العلوم، فيعسر فهمه أو ينتقده من لا يقف على حقيقة معناه، أو لكونه تاريخًا محضًا فيصير الكتاب به أدبيًّا لا علميًّا. ولم تتسع المادة بمجانس لما أوردته أزيد مما ذكرته لأني زحمت به بالحلحلة ولززت به لزًّا بين عوائقي النفسانية وشواغلي البدنية مع قلة الكتب وعدمها وما أحق هذا المقام بقول القائل:

ولست بأول ذي همـــة

دعته لما ليس بالنائـــــل

يشمر للجّ عن ساقـــه

ويغمره الموج في الساحــل

وأنا أستغفر الله تعالى وأتوب إليه مما لعله فيه بما هو من قبيل الشقشقية والطنطنة، أو من قبيل التمويه والسفسطة، أو من حُكْم لم يصادف الحق، أو قول لعله لم يوافق مرضاته سبحانه وله الحمد، أو من نية لعلها لم تخلص لله، أو مقصد مزج بغير إرشاد شرعي، أو من تعليل الأمور بالمقاصد

الدنية الدنيوية، وأستقيله العثرة في ذلك كله وأستوهبه المعذرة وأستمنحه المغفرة وأبرأ إليه من ذلك كله لا إله إلا هو ولا غافر سواه.

(اللهم) يا رحمن يا رحيم يا واسع يا عظيم، يا ذا الفضل العميم والمنّ الجسيم، يا معطياً قبل السؤال وعالمًا بالحال، أسألك بأسمائك كلها وصفاتك أجمعها وبكل ما إذا دعيت به أجبت أن تكشف عنا ضر الفلاكة والإهمال والحرمان، وأن تصرفنا عن مواقع الشر والخذلان، وأن تحفظ ألسنتنا وقلوبنا من الشيطان، وأن تكلأنا بالتوفيق وتؤيدنا بالتكلان، يا رحيم يا رحمن. لا حول ولا قوة إلا بك يا عليّ يا عظيم.

(اللهم) إني أشكو إليك ضعف حيلتي وقلة قوتي وهواني على الناس، رب المستضعفين وربي، إلى من تكلني، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي لكن رحمتك أوسع لي.

(اللهم) اقبل معاذيري، وتجاوز عن تقصيري، ولا تتركني حقيرًا، ولا تسلط عليّ تغييرًا، واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا.

(اللهم) قد رفعت يديّ إليك فلا تردهما صفرًا .

(اللهم) ضع فيهما من خيرك وبركتك.

ما أنت بالسبب الضعيـــــف
وإنما نجح الأمور بقوة الأسبـــاب
فاليوم حاجتنـــا إليك وإنما
يدعى الطبيب لساعة الأوصـــاب

(اللهم) انقطع الرجاء إلا منك، وحصل اليأس إلا من رحمتك، لا تعكس ظنًّا قد عَوَّل على فضلك، لا تخيب أملًا طال تعلقه بك ،أعتق عنقًا مدّ إليك من رق غيرك، فُكَّ أسيرًا لا يملك فِكَاكَهُ إلا أنتَ.

(اللهم) ليس على عطائك عائق، ولا يعجزك شيء، فلك القدرة الكاملة والرحمة الواسعة والحكمة البالغة، وكلتا يديك سخاء، ولا ينقص فيضك العطاء، وتستحي من تخييب آمليك غاية الحياء، وعلمك قد أحاط بما في الأرض والسماء وبما في الظواهر والضمائر من الجلاء والخفاء، انظر إلينا منك بنظرة رحيمة. ربنا مسنا ضر نفوسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من

الخاسرين. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، سمع الله، نظر الله، سبحان الله، آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحُسن توفيقه وكمُل.

مراجع التحقيق

* القرآن الكريم.

- كتب الأحاديث الصحيحة.

- معاجم اللغة المختلفة.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.

- حياة الحيوان الكبرى للدميري، تهذيب وتصنيف أسعد فارس، دمشق، 1992.

- الدارس في أخبار المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، دار الكتب العلمية ، بيروت،ط1، 1990.

- دراسة للفكر الاقتصادي عند الدلجي- حمد بن عبد الرحمن الجنيدل، دار معاذ للنشر والتوزيع ، الرياض، 1993.

- دراسات اقتصادية- إعداد وتأليف الدكتور/ زيد بن محمد الرماني، عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – منشور على الإنترنت.

- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح علي حسن فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

- ديوان الشاب الظريف العفيف التلمساني، تحقيق شاكر هادي شاكر، مطبعة النجف، العراق، 1967.

- ذيل مرآة الزمان، قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، دراسة وتحقيق حمزة أحمد عباس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2007.

- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1991.

- شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي، المطبعة الحيدرية، النجف، د ت.

- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزّبيدي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

- علم الاجتماع الاقتصادي في دراسات المسلمين، د. عبد الله عبد الغني غانم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1993.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978.

- معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، 1985.